مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الرَّابعَـةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الحَمدَ للهِ، نَحمَدُهُ، وَنَستَعِينُهُ، وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعوذُ بِاللهِ مِنْ شُرورِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعمَالِنَا، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأشهَدُ أَنَّ مُحمدًا عَبدُهُ وَرَسولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعدُ:

فَإنَّ أَصدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدْيِ هَدْيِ مُحمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمورِ مُحدثَاتُها، وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعةٌ، وَكُلَّ بِدعةٍ ضَلَالةٌ، وَكُلَّ ضَلَالةٍ فِي النَّارِ.

وَبَعْدُ:

فَهَذِهِ هِيَ الطَّبعَةُ الرَّابعَةُ مِن كِتَاب:

«فَضلُ العَرَبِيَّةِ وَوُجُوبُ تَعَلُّمِهَا عَلَى المُسْلِمِين»

وَقَد طُبِعَ الكِتَابُ -قَبلُ- ثَلَاثَ طَبَعَاتٍ، كَانَت الأولَىٰ فِي جُمَادَىٰ الآخِرَةِ سَنَة ١٤٠٩، المُوَافِق لـ: يَنَاير سَنَة ١٩٨٩، وَصُوِّرَت كُلُّ طَبعَةٍ مَرَّاتٍ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

وَهَذِهِ هِيَ الطَّبعَةُ الرَّابِعَةُ -بِحَولِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- **وَهِي كِتَابَةٌ جَدِيدَةٌ قَدِيمَةٌ**، فَقَد حَافَظْتُ فِيهَا عَلَىٰ مَا سَبَقَ إلَّا أَقَلَّهُ، وَزِدْتُ فِيهَا كَثِيرًا، وَحَرَّرتُ مَا استَطَعْتُ.

وَقَد جَعَلتُهُ -بِفَضلِ الله وَحْدَهُ- كَالكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ، لَا تُمَزِّقُهُ فُصُولٌ، وَلَا تَعتَرِضُهُ أَبوَابٌ، وَإِنَّمَا يُمسكُ كَلَامٌ بِزِمَامِ كَلَامٍ، يَتَهَادَىٰ حَتَّىٰ يُفْرَغَ مِنْهُ.

وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَىٰ الإسهَابِ فِي ذِكْرِ أَهَمِيَّةِ هَذَا المَوضُوعِ وَخُطُورَتِهِ، وَعَظِيمِ دَوْرِهِ فِي تَحْقِيقِ سِيَادَةِ الأُمَّةِ، وَاستِعَادَةِ مَجْدِهَا.

وَالدِّفَاعُ عَنِ العَرَبِيَّةِ دِفَاعٌ عَنْ كِيانِ أُمَّةٍ بِرُمَّتِهَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إلَّا بِهَتْكِ الأَستَارِ المُسدَلَةِ التِي عَمِلَ مِنْ وَرَائِهَا رِجَالٌ مِن قَبلُ، وَلَا يَزَالُ رِجَالٌ يَعْمَلُونَ

مِنْ وَرَائِهَا، اختَارَتْهُمُ «**الثَّقَافَةُ الغَرْبِيَّةُ الوَثَنِيَّةُ النَّصْرَانِيَّةُ**»، لِيُحَقِّقُوا لِهَذِهِ الثَّقَافَةِ غَلَبَةً عَلَىٰ عُقُولِنَا، وَعَلَىٰ مُجْتَمَعِنَا، وَعَلَىٰ حَيَاتِنَا، وَعَلَىٰ ثَقَافَتِنَا، وَعَلَىٰ تُرَاثِنَا، وَبِهَذِهِ الغَلَبَةِ، يَتِمُّ انْهِيَارُ الكِيَانِ العَظِيمِ الذِي بَنَاهُ آبَاؤنَا فِي قُرونٍ مُتَطَاوِلَةٍ، وصَحَّحُوا بِهِ فَسَادَ الحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ فِي نَوَاحِيهَا الدِّينِيَّةِ، وَالإِنْسَانِيَّةِ، وَالأَدَبِيَّةِ، وَالأَخْلَاقِيَّةِ، وَالعَمَلِيَّةِ، وَالفِكْرِيَّةِ، وَرَدُّوهَا إِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، عَلِمَ ذَلِكَ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ.

وَاللُّغَةُ -كَمَا قَالَ الرَّافِعِيُّ-: هِيَ صُورَةُ وجُودِ الأُمَّةِ بِأَفْكَارِهَا وَمَعَانِيهَا وَحَقَائِقِ نُفُوسِهَا، وجُودًا مُتَمَيِّزًا قَائِمًا بِخَصَائِصِهِ.

وَمَا ذَلَّتْ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذَلَّ، وَلَا انْحَطَّتْ إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ، وَإِدْبَارٍ.

إِنَّ العَرَبِيَّةَ المُجَاهِدَةَ هِيَ لُغَةُ القُرْآنِ المَجِيدِ، وَهِيَ لُغَةُ النُّبُوَّةِ الخَاتِمَةِ، وَهِيَ سَيِّدَةُ اللُّغَاتِ، وَهِيَ السَّابِقَةُ بِالوُصْلَةِ، المُحَافِظَةُ عَلَىٰ خَصَائِصِ اللُّغَةِ السَّامِيَّةِ الأَصْلِيَّةِ التِي تَفَرَّعَتْ عَنْهَا اللُّغَاتُ السَّامِيَّةُ المُخْتَلِفَةُ.

وَالعَرَبِيَّةُ هِيَ الآخِرَةُ بِالنُّبُوَّةِ، بِمَا نَزَلَ بِهَا مِنَ الوَحْيِ المَعْصُومِ العَصِيِّ عَلَىٰ التَّحْرِيفِ وَالتَّصْحِيفِ، المَعْصُومِ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، المَحْفُوظِ مِنَ الزِّيَادَةِ والنُّقصَانِ.

لَقَدْ كَانَ اللَّحْنُ يُعَدُّ هُجْنَةً فِي اللِّسَانِ تَمْسَخُ المَعْنَىٰ وتُفْسِدُ المَبْنَىٰ، وَفِيهِ قَالَ عَبْدُ المَلِكِ بنُ مَرْوَانَ كَلِمَتَهُ المَشْهُورَةَ:

«اللَّحْنُ فِي الكَلَامِ أَقبَحُ مِنَ الجُدَرِيِّ فِي الوَجْهِ».

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَعْيِ السَّالِفِينَ بِأَهَمِّيَّةِ اللُّغَةِ أَنْ قَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَحمَدَ الخُوَارَزْمِيُّ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ:

«وَاللهِ لَأَنْ أُهْجَىٰ بِالعَرَبِيَّةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُمْدَحَ بِالفَارِسِيَّةِ».

وَلَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «الرِّسَالَة» (ص٤٨):** «فَعَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ العَرَبِ مَا بَلَغَهُ جَهْدُهُ؛ حَتَّىٰ يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيَتْلُو بِهِ كِتَابَ اللهِ، وَيَنْطِقَ بِالذِّكْرِ، فِيمَا افتُرِضَ عَلَيهِ مِنَ التَّكْبِيرِ، وَأُمِرَ بِهِ مِنَ التَّسبِيحِ، وَالتَّشهُّدِ وَغَيرِ ذَلِكَ.

وَمَا ازْدَادَ مِنَ العِلْمِ بِاللِّسَانِ، الذِي جَعَلَهُ اللهُ لِسَانَ مَنْ ختَمَ بِهِ نُبُوَّتهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ آخِرَ كُتُبِهِ -كَانَ خَيْرًا لَهُ، كَمَا عَلَيهِ يَتَعَلَّم الصَّلَاةَ، وَالذِّكْرَ فِيهَا، وَيَأْتِي البَيتَ وَمَا أُمِرَ بِإِتيَانِهِ، وَيَتَوَجَّه لِمَا وُجِّهَ لَهُ، وَيَكُونُ تَبعًا فِيمَا افتُرِضَ عَلَيهِ، ونُدِبَ إِلَيهِ، لَا مَتْبُوعًا».

لَقَدْ شَوَّهَ أَقْوَامٌ مِنْ بَنِي جِلدَتِنَا تُرَاثَنَا، وتَارِيخَنَا، وَلُغَتَنَا، وَلَو كَانَ القَائِمُ عَلَىٰ تَوجِيهِ العَقْلِ العَرَبِيِّ يَهُودًا مَا وَصَلُوا بِهِ إِلَىٰ أَبْشَعَ مِنْ ذَلِكَ.

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَكَيفَ نَحْمِي كِيَانًا كَرِهْنَاهُ، وَتَارِيخًا دنَّسنَاهُ، وتُرَاثًا ازْدَرَينَاهُ، وَأُمَّةً صَوَّرَتْهَا لَنَا الدِّرَاسَاتُ الضَّارَّةُ فِي صُورَةِ شَرِّ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَأَجْهَلِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَأَجْفَىٰ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؟!!

لَقَدْ صَوَّرُوا أَدَبَ الأُمَّةِ فِي صُورَةِ أَدَبٍ سَطْحِيٍّ سَاذَجٍ، وَعِلْمَهَا كَعِلْمِ حَلَّاقِ القَرِيةِ، وَنَحْوَهَا مَبْنِيًّا عَلَىٰ شَوَاهِدِ زُورٍ، وَشِعْرَهَا مَزَامِيرَ فِي زَفَّةِ نِفَاقٍ...

إنَّ مِفتَاحَ المَعرِفةِ الصَّحِيحَةِ هُوَ اللُّغةُ، تُفضِي إِلَىٰ آفَاقٍ رَحبَةٍ مِنَ العِلْمِ المُسْتَقِيمِ، وَالفَهْمِ القَوِيمِ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ العَظِيمِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الكَرِيمِ ﷺ.

وَأَسأَلُ اللهَ أَن يَجزِيَ خَيرًا كُلَّ مَنْ بَذَلَ فِيهِ جُهْدًا بِطَبعٍ أَو نَشْرٍ، وَكُلَّ مَنْ نَظَرَ فِيهِ، أَو دَلَّ عَلَيهِ، أَو أَرْشَدَ إِلَيهِ.

وَأَسأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجعَلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ، وَأَن يَنْفَعَ بِهِ كُلَّ مُسْلِمٍ؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

وَالحَمدُ لله الَّذِي بِنِعمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ أَبويه إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَآخِرُ دَعْوَانا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

-عفا الله عنه وعن والديه-

سُبك الأحد

الجمعة: ٥/ ٣/ ١٤٣١

١٩/ ٢/ ٢٠١٠

العَربيةُ لُغَةُ القُرآنِ العَظِيمِ

لَقَد أَنزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ القُرْآنَ العَظِيمَ، آيَةً بَاقِيَةً لِرَسُولِهِ الأمِينِ ﷺ، يَتَحَدَّىٰ بِهَا الإنسَ وَالجِنَّ أَجْمَعِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ.

«وَاللِّسَانُ العَرَبيُّ شِعَارُ الإسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَاللُّغَاتُ مِن أَعْظَمِ شَعَائِرِ الأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ»(١).

وَقَد اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ العَرَبَ لِيَصطَفِيَ مِنْهُم رَسُولَهُ الخَاتَمَ ﷺ، ويُنْزِلَ بِلِسَانِهِمْ كِتَابَهُ المُعْجِزَ، المُتَعَبَّدَ بِتِلَاوَتِهِ، المُتَحَدَّىٰ بِمِثْلِ أَقْصَرِ سُورَةٍ فِيهِ.

«وَللعَرَبيَّةِ شَجَاعَةٌ صَادِقَةٌ فِي تَعبِيرِهَا، وَفِي اشتِقَاقِهَا، وَفِي تَكْوِينِ أَحْرُفِهَا، لَيْسَتْ لِلغَةٍ أُخْرَىٰ.

وَإِذَا كَانَت اللُّغَةُ هِيَ خِزَانَةُ الفِكْرِ الإنسَانِيِّ، فَإِنَّ خَزَائِنَ العَرَبيَّةِ قَد ادَّخَرَتْ مِن نَفِيسِ البَيَانِ الصَّحِيحِ عَنِ الفِكْرِ الإنسَانِيِّ، وَعَن النُّفُوسِ الإنْسَانِيَّةِ، مَا يُعْجِزُ سَائِرَ اللُّغَاتِ؛ لأَنَّهَا صُفِّيَتْ مُنذُ الجَاهِلِيَّةِ الأولَىٰ المُعْرِقَةِ فِي القِدَمِ، مِن نُفُوسٍ مُختَارَةٍ بَرِيئَةٍ مِنَ الخَسَائِسِ المُزرِيَةِ، وَمِن العِلَلِ الغَالِبَةِ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (١/ ٤٦٢).

إِسْمَاعِيلُ نَبِيُّ اللهِ، ابنُ إبرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَن، أَخَذَهَا وَزَادَهَا نَصَاعَةً وَبَرَاعَةً وَكَرَمًا، وَأَسْلَمَهَا إِلَىٰ أَبنَائِهِ مِنَ العَرَبِ، وَهُم عَلَىٰ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ دِينِ أَبِيهِم إِبرَاهِيمَ، فَظَلَّت تَتَحَدَّرُ عَلَىٰ أَلسِنَتِهِم مُختَارَةً مُصَفَّاةً مُبَرَّأَةً، حَتَّىٰ أَظَلَّ زَمَانُ نَبِيٍّ لَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ ﷺ، فَأَنزَلَ اللهُ بِهَا كِتَابَهُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، بِلَا رَمْزٍ مَبنِيٍّ عَلَىٰ الخُرَافَاتِ وَالأوهَامِ، وَلَا ادِّعَاءٍ لِمَا لَم يَكُنْ، وَلَا نِسبَةِ كَذِبٍ إِلَىٰ اللهِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَن ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا»[١].

واللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ هِيَ: السَّابِقَةُ بِالوُصْلَةِ، وَالآخِرَةُ بِالنُّبُوَّةِ.

وَالمَقصُودُ بِالوُصْلَةِ: المُحَافظَةُ عَلَىٰ خَصَائِصِ اللُّغَةِ السَّامِيَّةِ الأصلِيَّةِ الَّتِي تَفَرَّعَت عَنْهَا اللُّغَاتُ السَّامِيَّةُ المُختَلِفَةُ.

وَهِي الآخِرَةُ بِالنُّبُوَّةِ: بِمَا نزَلَ بِهَا مِنَ الوَحيِ المَعصُومِ العَصِيِّ عَلَىٰ التَّحْرِيفِ وَالتَّصْحِيفِ، المَعصُومِ مِنَ التَّغيِيرِ وَالتَّبدِيلِ، المَحفُوظِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ.

وَأَهْلُ الإِسْلَامِ يَفْرَعُونَ[٢] الأُمَمَ بِمَا لَدَيهِم مِن آيَاتِ الوَحيِ البَيِّنَاتِ، وَمُشْرِقَاتِ جَوَامِعِ الكَلِمِ اللائِحَاتِ، تَنْفِي عَنِ الفِطْرَةِ مَا شَابَهَا مِن كَدَرٍ، وَتُذْهِبُ عَن صَفحَتِهَا مَا رَانَ عَلَيهَا مِن غَبَشٍ، بِمَا تَحمِلُ مِن دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ، وَإِثبَاتِ الرِّسَالَةِ، وَسُمُوِّ الغَايَةِ، وَأَمَارَاتِ المُرُوءَةِ، وَتَقْوِيمِ مَا اعْوَجَّ مِن مَسْلَكِ الإنسَانِ.

---

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود محمد شاكر (ص٤٣٦).

(٢) فَرَعَ قَوْمَهُ: عَلَاهُمْ وَجَاهَةً وَشَرَفًا.

وَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ آخِرَ المُرْسَلِينَ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ؛ جَعَلَ اللهُ آيتَهُ الكُبْرَىٰ بَاقِيَةً عَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ، وَكَرِّ الدُّهُورِ، وَأَعْلَنَ أَنَّ التَّحَدِّيَ قَائِمٌ مَا بَقِيَت آيَاتُهُ فِي الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ، وَدَمَغَ الثَّقَلَينِ -جَمِيعًا- بِالعَجْزِ عَنِ الإتيَانِ بِمِثلِهِ، وَلَو كَانَ أَوَّلُهُم لآخِرِهِم نَصِيرًا، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وَقَد كَانَت العَرَبُ أُمَرَاءَ البَيَانِ، وَمُلُوكَ الفَصَاحَةِ يَوْمَ نَزَلَ القُرآنُ يَتَحدَّاهُم أَن يَأتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثلِهِ، وَلَم يَكتَفِ بِبَيَانِ عَجْزِهِم عَنِ الإتيَانِ بِمِثْلِهِ فِي الحَالِ، بَل صَرَّحَ بِفَضْحِ عَجْزِهِم عَن ذَلِكَ عَلَىٰ التَّأْبِيدِ، وَجَعَلَ عَجْزَهُم -وَهُم كَانُوا مِنَ الفَصَاحَةِ حَيثُ كَانُوا- دَلِيلًا عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الكِتَابَ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ بَشَرٍ، وَلَو كَانَ فِي مَقْدُورِ بَشَرٍ لأَتَوْا بِمِثْلِهِ، وَمَا مَسَّهُم مِن لُغُوبٍ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ الله تَعَالَىٰ-: «شَرَعَ تَعَالَىٰ فِي تَقْرِيرِ النُّبُوَّةِ، بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، فَقَالَ مُخَاطِبًا الكَافِرِينَ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾؛ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ، ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾ مِن مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ إِنْ زَعَمْتُم أَنَّهُ مِن عِنْدِ غَيرِ اللهِ، فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ، وَاستَعِينُوا عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَنْ شِئتُم مِن دُونِ اللهِ، فَإِنَّكُم لَا تَستَطِيعُونَ ذَلِكَ.

وَقَد تَحَدَّاهُم الله تَعَالَىٰ بِهَذَا فِي غَيرِ مَوْضِعٍ مِنَ القُرْآنِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ القَصَصِ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [القصص:٤٩].

وَقَالَ فِي سُورَةِ سُبْحَان: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وَقَالَ فِي سُورَةِ هُود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود:١٣].

وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُس: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس:٣٧-٣٨].

وَكُلُّ هَذِهِ الآيَاتِ مَكيَّةٌ.

ثُمَّ تَحدَّاهُم بِذَلِكَ أَيْضًا فِي المَدِينَةِ، فَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾؛ أَي: شَكٍّ، ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ، ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ يَعْنِي: مِن مِثْلِ القُرْآنِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ، واختَارَهُ ابنُ جريرٍ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾. وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾.

وَقَد تَحَدَّاهُم بِهَذَا فِي مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً، مَعَ شِدَّةِ عَدَاوتِهِم لَهُ وبُغضِهِم لِدِينِهِ، وَمَع هَذَا عَجَزُوا عَن ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟

﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٤]، وَ(لَنْ): لِنَفي التَّأْبِيدِ؛ أَي: وَ(لَنْ) تَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا.

وَهَذِهِ -أَيْضًا- مُعجِزَةٌ أُخْرَىٰ، وَهُو أَنَّهُ أَخْبَرَ خَبَرًا جَازِمًا قَاطِعًا مُقْدِمًا غَيرَ خَائِفٍ وَلَا مُشْفِقٍ: أَنَّ هَذَا القُرْآنَ لَا يُعَارَضُ بِمِثْلِهِ أَبَدًا، وَكَذَلِكَ وَقَعَ الأَمرُ، لَم يُعَارَض مِن لَدُنهُ إِلَىٰ زَمَانِنَا هَذَا، وَلَا يُمْكِنُ، وَأَنَّىٰ يَتَأَتَّىٰ ذَلِكَ لأَحَدٍ، وَالقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ خَالِقِ كُلِّ شَيءٍ، وَكَيفَ يُشْبِهُ كَلَامُ الخَالِقِ كَلَامَ المَخْلُوقِينَ؟!»[1].

وَمَا كَانَ القُرآنُ الَّذِي تَحَدَّاهُم اللهُ بِهِ نَازِلًا بِغَيرِ أَحْرُفِ كَلَامِهِم، وَلَا شَاهِدًا عَلَيهِم بِغَيرِ لِسَانِهِم، وَلَا نَاطِقًا بِغَيرِ لُغَتِهِم الَّتِي رَضَعُوا لَبَانَهَا صِغَارًا، وَارْتَاضُوا أَنْفُسَهُم عَلَىٰ أَدَبِهَا -شِعْرًا وَنَثْرًا- كِبَارًا.

وَقَد ذَكَرَ الله تَعَالَىٰ فِي أَوَائِلِ سُورٍ مِن كِتَابِهِ المَجِيدِ حُرُوفًا مُقَطَّعَةً، قَالَ ابنُ كَثِيرٍ حَاكِيًا الحِكْمَةَ الَّتِي اقْتَضَتْ إِيرَادَ هَذِهِ الحُرُوفِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، عَن طَائِفَةٍ مِن أَهْلِ العِلْمِ: «إِنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الحُرُوفُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا بَيَانًا لإِعجَازِ القُرْآنِ، وَأَنَّ الخَلْقَ عَاجِزُونَ عَن مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ مِن هَذِهِ الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا...

وَإِلَيهِ ذَهَبَ الشَّيخُ الإِمَامُ العَلَّامَةُ أَبُو العَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ، وَشَيْخُنَا الحَافِظُ المُجْتَهِدُ أَبُو الحَجَّاجِ المِزِّيُّ، وَحَكَاهُ لِي عَن ابنِ تَيمِيَّةَ.

قُلْتُ: وَلِهَذَا؛ كُلُّ سُورَةٍ افتُتِحَتْ بِالحُرُوفِ فَلَابُدَّ أَنْ يُذكَرَ فِيهَا الانتِصَارُ لِلقُرْآنِ، وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا مَعلُومٌ بالاستِقْرَاءِ، وَهُو الوَاقِعُ فِي تِسعٍ

(١) «عمدة التفسير»، وهو مختصر تفسير ابن كثير، لأحمد محمد شاكر (١/ ٨٦).

وَعِشرِينَ سُورَةً»[١].

وَقَد بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِن كِتَابِهِ: أَنَّ هَذَا الكِتَابَ عَرَبيٌّ، وَأَنَّهُ نَزَلَ بِلِسَانِ العَرَبِ الَّذِي كَانُوا بِهِ يَنْطِقُونَ، وَلَيْسَ أَعْجَمِيًّا؛ بَل هُو قُرْآنٌ عَرَبيٌّ مُبينٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ: وَهُوَ أَفْضَلُ الأَلْسِنَةِ، بِلُغَةِ مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ، وَبَاشَرَ دَعْوَتَهُمْ أَصْلًا، اللِّسَانِ البيِّنِ الوَاضِحِ.**

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الفَضَائِلُ الفَاخِرَةُ فِي هَذَا الكِتَابِ الكَرِيمِ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الكُتُبِ، نَزَلَ بِهِ أَفْضَلُ المَلَائِكَةِ، عَلَىٰ أَفْضَلِ الخَلْقِ، عَلَىٰ أَفْضَلِ بَضْعَةٍ فِيهِ، وَهِيَ قَلْبُهُ، عَلَىٰ أَفْضَلِ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ، **بِأَفْضَلِ الأَلْسِنَةِ وَأَفْصَحِهَا وَأَوْسَعِهَا، وَهُوَ اللِّسَانُ العَرَبِيُّ المُبِينُ**»[٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مِنْ بَيَانِ القُرْآنِ وَإِيضَاحِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ، أَشْرَفِ الأَلْسِنَةِ وَأَبْيَنِهَا، المُبِينِ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ مِنَ الحَقَائِقِ النَّافِعَةِ»[٣].

---

(١) «عمدة التفسير» (١/ ٧١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (٣/ ١٢٣٣).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٧٧٧).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَيَّنَ -جَلَّ وَعَلَا- كَذِبَهُمْ وَتَعَنُّتَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أَيْ: كَيْفَ يَكُونُ تَعَلُّمُهُ مِنْ ذَلِكَ البَشَرِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ البَشَرَ أَعْجَمِيُّ اللِّسَانِ، وَهَذَا القُرْآنُ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ فَصِيحٌ، لَا شَائِبَةَ فِيهِ مِنَ العُجْمَةِ؟! هَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ.

وَبَيَّنَ شِدَّةَ تَعَنُّتِهِمْ أَيْضًا بِأَنَّهُ لَوْ جَعَلَ القُرْآنَ أَعْجَمِيًّا لَكَذَّبُوهُ أَيْضًا، وَقَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا القُرْآنُ أَعْجَمِيًّا مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ عَرَبِيٌّ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّۗ﴾ [فصلت:٤٤]؛ أَيْ: أَقُرْآنٌ أَعْجَمِيٌّ، وَرَسُولٌ عَرَبِيٌّ؟!

فَكَيْفَ يُنْكِرُونَ أَنَّ القُرْآنَ أَعْجَمِيٌّ وَالرَّسُولَ عَرَبِيٌّ، وَلَا يُنْكِرُونَ أَنَّ المُعَلِّمَ المَزْعُومَ أَعْجَمِيٌّ، مَعَ أَنَّ القُرْآنَ المَزْعُومَ تَعْلِيمهُ لَهُ عَرَبِيٌّ؟!

كَمَا بَيَّنَ تَعَنُّتَهُمْ أَيْضًا بِأَنَّهُ لَوْ نَزَلَ هَذَا القُرْآنُ العَرَبِيُّ المُبِينُ، عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ عَرَبِيًّا لَكَذَّبُوهُ أَيْضًا، مَعَ ذَلِكَ الخَارِقِ لِلْعَادَةِ؛ لِشِدَّةِ عِنَادِهِمْ وَتَعَنُّتِهِمْ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُلْحِدُونَ﴾؛ أَيْ: يُمِيلُونَ عَنِ الحَقِّ.

وَالمَعْنَىٰ: لِسَانُ البَشَرِ الَّذِي يُلْحِدُونَ؛ أَيْ: يُمِيلُونَ قَوْلَهُمْ عَنِ الصِّدْقِ وَالاسْتِقَامَةِ إِلَيْهِ؛ أَعْجَمِيٌّ غَيْرُ بَيِّنٍ، وَهَذَا القُرْآنُ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ؛ أَيْ: ذُو بَيَانٍ وَفَصَاحَةٍ»[١].

قَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقَالُ: رَجُلٌ أَعْجَمُ، وَأَعْجَمِيٌّ؛ إِذَا كَانَ غَيْرَ فَصِيحٍ، وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا، وَرَجُلٌ عَجَمِيٌّ، وَإِنْ كَانَ فَصِيحًا، يُنْسَبُ إِلَىٰ أَصْلِهِ، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أَيْ: أَفْصَحُ مَا يَكُونُ مِنَ العَرَبِيَّةِ»[٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا؛ أَيْ: بِاللُّغَةِ الفُصْحَىٰ أَكْمَلِ اللُّغَاتِ، فُصِّلَتْ آيَاتُهُ وَجُعِلَ عَرَبِيًّا، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لِأَجْلِ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ مَعْنَاهُ كَمَا يَتَبَيَّنُ لَفْظُهُ، وَيَتَّضِحَ لَهُمُ الهُدَىٰ مِنَ الضَّلَالِ، وَالغَيُّ مِنَ الرَّشَادِ، وَأَمَّا الجَاهِلُونَ الَّذِينَ لَا يَزِيدُهُمُ الهُدَىٰ إِلَّا ضَلَالًا، وَلَا البَيَانُ إِلَّا عَمًى؛ فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَسُقِ الكَلَامَ لِأَجْلِهِمْ وَ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]»[٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٣].

أَيْ: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا هَذَا الكِتَابَ بِاللِّسَانِ الفَاضِلِ العَرَبِيِّ الَّذِي تَفْهَمُونَهُ

---

(١) «أضواء البيان» لمحمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٣٣٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ١٨٧).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٥٦٤).

وَتَفْقَهُونَهُ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْكُمْ لَفْظُهُ وَلَا مَعْنَاهُ.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ أَيْ: نَوَّعْنَاهَا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً؛ تَارَةً بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ العَدْلِ وَالانْتِقَامِ، وَتَارَةً بِذِكْرِ المَثُلَاتِ الَّتِي أَحَلَّهَا بِالأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَأَمَرَ أَنْ تَعْتَبِرَ بِهَا الأُمَمُ اللَّاحِقَةُ، وَتَارَةً بِذِكْرِ آثَارِ الذُّنُوبِ وَمَا تُكْسِبُهُ مِنَ العُيُوبِ، وَتَارَةً بِذِكْرِ أَهْوَالِ القِيَامَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ المُزْعِجَاتِ وَالمُقْلِقَاتِ، وَتَارَةً بِذِكْرِ جَهَنَّمَ وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ العِقَابِ وَأَصْنَافِ العَذَابِ.

كُلُّ هَذَا رَحْمَةً بِالعِبَادِ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ اللهَ؛ فَيَتْرُكُونَ مِنَ الشَّرِّ وَالمَعَاصِي مَا يَضُرُّهُمْ، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فَيَعْمَلُونَ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالخَيْرِ مَا يَنْفَعُهُمْ.

فَكَوْنُهُ عَرَبِيًّا، وَكَوْنُهُ مُصَرَّفًا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ أَكْبَرُ سَبَبٍ وَأَعْظَمُ دَاعٍ لِلتَّقْوَىٰ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فَلَوْ كَانَ غَيْرَ عَرَبِيٍّ أَوْ غَيْرَ مُصَرَّفٍ فِيهِ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَذَا الأَثَرُ»[1].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٧-٢٨].

أَيْ: «جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَاضِحَ الأَلْفَاظِ، سَهْلَ المَعَانِي؛ خُصُوصًا عَلَىٰ العَرَبِ، غَيْرَ ذِي عِوَجٍ، أَيْ: لَيْسَ فِيهِ خَلَلٌ وَلَا نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ؛ لَا فِي أَلْفَاظِهِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ كَمَالَ اعْتِدَالِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١-٢].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٠٤٥).

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ اللهَ تَعَالَىٰ؛ حَيْثُ سَهَّلْنَا عَلَيْهِمْ طُرُقَ التَّقْوَىٰ العِلْمِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ بِهَٰذَا القُرْآنِ العَرَبِيِّ المُسْتَقِيمِ الَّذِي ضَرَبَ اللهُ فِيهِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ»[١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ:٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فَبَيَّنَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ أَنَّ القُرْآنَ العَظِيمَ أُنْزِلَ بِلُغَةِ العَرَبِ، وَبِلِسَانِهِمْ، وَدَعَا إِلَىٰ تَدَبُّرِهِ، وَالنَّظَرِ فِي مَعَانِيهِ، وَاسْتِجْلَاءِ مَرَامِيهِ.

فَاجْتَمَعَ مِنْ كَوْنِهِ مُنَزَّلًا بِلُغَةِ العَرَبِ، وَمِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ تَدَبُّرِهِ: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ لُغَةِ القُرْآنِ، وَتَعَلُّمِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ مَا تَزَالُ قَائِمَةً.

وَلَقَدْ نَجَمَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ تَدَبُّرَ القُرْآنِ هُوَ النَّظَرُ فِي قَوَانِينِهِ الَّتِي قَنَّنَهَا، وَوَسَائِلِ الإِصْلَاحِ الَّتِي فَصَّلَهَا، وَالحُدُودِ الَّتِي حَدَّهَا، وَالشَّرَائِعِ الَّتِي شَرَعَهَا، وَآفَاقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّتِي جَلَّاهَا، وَأَسْرَارِ النَّفْسِ الَّتِي سَوَّاهَا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِهِ وَفُنُونِهِ، وَهَذَا فِي مُكْنَةِ العَرَبِيِّ، وَالأَعْجَمِيِّ العَيِيِّ مِنْ غَيْرِ فَارِقٍ كَبِيرٍ!!

وَالحَقُّ: أَنَّ القَوْمَ الَّذِينَ نَزَلَ القُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ كَانُوا عَرَبًا جَرَىٰ القُرْآنُ فِي

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٥١٨).

مُقْتَضَىٰ قَانُونِ لُغَتِهِمْ، وَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَعَجَزُوا، وَيَعْجِزُ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ أَبَدًا؛ لِأَنَّ الإِعْجَازَ بِالتَّحَدِّي لَا يَزَالُ قَائِمًا، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وَالسُّوَرُ الَّتِي أُنْزِلَتْ بِمَكَّةَ أَوَّلَ العَهْدِ بِنُزُولِ الوَحْيِ كَانَتْ غَيْرَ مُنْطَوِيَةٍ عَلَىٰ نُظُمٍ تَشْرِيعِيَّةٍ، وَلَا قَوَانِينَ تَنْظِيمِيَّةٍ، وَإِنَّمَا لَحَظَ أُولَئِكَ العَرَبُ الإِعْجَازَ فِي نَظْمِ هَذَا القُرْآنِ نَفْسِهِ.

وَعَلَىٰ قَدْرِ المَعْرِفَةِ بِلُغَةِ العَرَبِ تَكُونُ المَعْرِفَةُ بِفَضْلِ القُرْآنِ وَعُلُوِّ شَأْنِهِ.

«وَإِنَّمَا يَعْرِفُ فَضْلَ القُرْآنِ، مَنْ عَرَفَ كَلَامَ العَرَبِ، فَعَرَفَ عِلْمَ اللُّغَةِ، وَعِلْمَ العَرَبِيَّةِ، وَعِلْمَ البَيَانِ، وَنَظَرَ فِي أَشْعَارِ العَرَبِ وَخُطَبِهَا وَمُقَاوَلَاتِهَا: فِي مَوَاطِنِ افْتِخَارِهَا، وَرَسَائِلِهَا، وَأَرَاجِيزِهَا، وَأَسْجَاعِهَا، فَعَلِمَ مِنْهَا: تَلْوِينَ الخِطَابِ وَمَعْدُولَهُ، وَفُنُونَ البَلَاغَةِ، وَضُرُوبَ الفَصَاحَةِ، وَأَجْنَاسَ التَّجْنِيسِ، وَبَدَائِعَ البَدِيعِ، وَمَحَاسِنَ الحِكَمِ وَالأَمْثَالِ.

فَإِذَا عَلِمَ ذَلِكَ وَنَظَرَ فِي هَذَا الكِتَابِ العَزِيزِ، وَرَأَىٰ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ فِيهِ مِنَ البَلَاغَةِ وَالفَصَاحَةِ وَفُنُونِ البَيَانِ، فَقَدْ أُوتِيَ العَجَبَ العُجَابَ، وَالقَوْلَ الفَصْلَ اللُّبَابَ، وَالبَلَاغَةَ النَّاصِعَةَ الَّتِي تُحَيِّرُ الأَلْبَابَ، وَتُغْلَقُ دُونَهَا الأَبْوَابُ.

فَكَانَ خِطَابُهُ لِلْعَرَبِ، بِلِسَانِهِمْ لِتَقُومَ بِهِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَمُجَارَاتُهُ لَهُمْ فِي مَيْدَانِ الفَصَاحَةِ لِيُسْبِلَ رِدَاءَ عَجْزِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَيُثْبِتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ خِطَابِهِمْ لَدَيْهِمْ،

فَعَجَزَتْ عَنْ مُجَارَاتِهِ فُصَحَاؤُهُمْ، وَكَلَّتْ عَنِ النُّطْقِ بِمِثْلِهِ أَلْسِنَةُ بُلَغَائِهِمْ.

وَبَرَزَ فِي رَوْنَقِ الجَمَالِ وَالجَلَالِ، فِي أَعْدَلِ مِيزَانٍ مِنَ المُنَاسَبَةِ وَالاعْتِدَالِ، وَلِذَلِكَ يَقَعُ فِي النُّفُوسِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ مِنَ الرَّوْعَةِ مَا يَمْلَأُ القُلُوبَ هَيْبَةً، وَالنُّفُوسَ خَشْيَةً، وَتَسْتَلِذُّهُ الأَسْمَاعُ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِ بِالحَنِينِ الطِّبَاعُ، سَوَاءٌ كَانَتْ فَاهِمَةً لِمَعَانِيهِ أَوْ غَيْرَ فَاهِمَةٍ، عَالِمَةً بِمَا يَحْتَوِيهِ أَوْ غَيْرَ عَالِمَةٍ، كَافِرَةً بِمَا جَاءَ بِهِ أَوْ مُؤْمِنَةً»[1].

وَلَقْدَ كَانَتِ العَرَبِيَّةُ مُهيَّأَةً عِنْدَ نُزولِ القُرْآنِ لِنُزُولِهِ بِهَا، وَلَا رَيبَ أنَّ القُرْآنَ لَمَّا جَاءَ بِهَذَا اللِّسَانِ خَارِجًا عَنْ سَنَنِ كَلَامِ النَّاسِ، أَخْرَجَ هَذَا اللِّسَانَ نَفسَهُ عَنْ سَنَنِ لُغَاتِ النَّاسِ، وَهَذا الَّذِي أَحدَثَهُ القُرْآنُ فِي العَرَبيَّةِ لَيسَ فِي غَيرِهَا مِنْ لُغَاتِ الأرْضِ، وَمَا عَرَفَ التَّارِيخُ لُغَةً عَاشَتْ فِي أفْوَاهِ أجيَالِ البَشَرِ عُمُرًا مَدِيدًا كَهَذَا اللِّسَانِ.

وَلَقَدْ دَلَّ نُزُولُ القُرْآنِ بِهَذَا اللِّسَانِ العَرَبيِّ عَلَىٰ بُلُوغِ العَرَبِيَّةِ مَرْتَبَةً أَعْلَىٰ مِنْ حَيثُ تَوفُّرُ وَسَائِلِهَا، وَثَرَاءُ طَاقَاتِهَا المُتَمَثِّلَةِ فِي أحْوَالِهَا، وَخَصَائِصُهَا التِي تَقَعُ عَلَيهَا صُورُ سَبْكِهَا مِنْ حَيثُ المُفْرَدَاتُ وَالتَرَاكِيبُ.

لَقَدْ بَلَغَتِ العَرَبِيَّةُ حِينَ نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ حَدَّ الكَمَالِ اللُّغَويِّ، وَلَا رَيبَ أنَّ إتْقَانَ اللُّغَةِ وَتَرَقِّيَ وسَائِلِ أدَائِهَا، وتَنَوُّعَهَا، إنَّمَا هُوَ انْعِكَاسٌ لِمَا فِي فِطْرَةِ الأجْيَالِ التِي عَكَفَتْ عَلَىٰ هَذِهِ اللُّغَةِ، وَصَقلتها فَصَقَلَتْهُم، وهَذَّبَتْهَا فَهَذَّبَتْهُم، وأحكَمَتْها

(١) «الفوائد المشوق لعلوم القرآن» (ص٧).

فأحكَمَتْهُم، وَأوْدَعُوهَا دَقَائِقَ نُفُوسِهم، فَكَانَتْ فِي اكتِمَالِ بَيَانِهَا صُورَةً لاكتِمَالِ سَلاَئِقِهِم.

وَكَانَ الجِيلُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ القُرْآنُ أَقْدَرَ الأَجْيَالِ عَلَىٰ تَمْيِيزِ أصنَافِ الكَلَامِ وَنَقْدِهِ، وَمَعْرِفَةِ طَبَقَاتِهِ، وَرَأَتْ آذَانُهُم فِي القُرْآنِ مَا يَرَاهُ النَّاسُ فِي تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، وسَوْقِ السَّحَابِ المُسَخَّرِ، وتَحْلِيقِ الطَّيرِ فِي أجْوَاءِ السَّماءِ صَافَّاتٍ وَيَقبِضْنَ، مَا يُمْسِكهُنَّ إلَّا الرَّحْمَنُ، استَيقَنَ ذَلِكَ مَنْ آمَنَ بِالقُرْآنِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ.

وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ إِعْجَازِ القُرْآنِ العَظِيمِ، وَالوُقُوفِ عَلَىٰ ذَلِك، إِلَّا عَنْ طَرِيقِ مَعْرِفَةِ لُغَةِ العَرَبِ، وَمَعْرِفَةِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ زَمَنَ النُّزُولِ مِنَ الفَصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ وَالبَيَانِ وَاللَّسَنِ، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بِذَلِكَ دِرَايَةٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهِ إِقْبَالٌ، فَشَأْنُهُ شَأْنُ الأَعْجَمِيِّ الَّذِي يَعْرِفُ الإِعْجَازَ فِي القُرْآنِ مِنْ عَجْزِ العَرَبِ الأَقْدَمِينَ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ.

قَالَ البَاقِلَّانِيُّ -عَفَا اللهُ عَنْهُ-: «قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ لَا يَتَهيَّأُ لِمَنْ كَانَ لِسَانُهُ غَيْرَ العَرَبِيَّةِ مِنَ العَجَمِ وَالتُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَعْرِفُوا إِعْجَازَ القُرْآنِ إِلَّا بِأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ العَرَبَ قَدْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ، فَإِذَا عَرَفُوا هَذَا -بِأَنْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ قَدْ تُحُدُّوا إِلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَقُرِّعُوا عَلَىٰ تَرْكِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَلَمْ يَأْتُوا بِهِ- تَبَيَّنُوا أَنَّهُم عَاجِزُونَ عَنْهُ، وَإِذَا عَجَزَ أَهْلُ ذَلِكَ اللِّسَانِ فَهُمْ عَنْهُ أَعْجَزُ.

وَكَذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ -إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَبْلُغُ فِي الفَصَاحَةِ الحَدَّ الَّذِي يَتَنَاهَىٰ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ أَسَالِيبِ الكَلَامِ، وَوُجُوهِ تَصَرُّفِ

اللُّغَةِ، وَمَا يَعُدُّونَهُ فَصِيحًا بَلِيغًا بَارِعًا مِنْ غَيْرِهِ- فَهُوَ كَالأَعْجَمِيِّ فِي أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْرِفَ إِعْجَازَ القُرْآنِ، إِلَّا بِمِثْلِ مَا بَيَّنَّا أَنْ يَعرِفَ بِه الفَارِسِيُّ الَّذِي بَدَأْنَا بِذِكْرِهِ، وَهُوَ وَمَنْ لَيسَ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ سَوَاءٌ»[(١)].

وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِي هُنَا أَنْ أُفَصِّلَ القَوْلَ فِي اخْتِلَافِ وُجُوهِ النُّظَّارِ فِي إِعْجَازِ القُرْآنِ المَجِيد.

وَإِنَّمَا الغَرَضُ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ القُرْآنَ العَظِيمَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْرِفَةٍ بِلُغَةِ العَرَبِ حَتَّىٰ يُفْهَمَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، وَحَتَّىٰ تُدْرَكَ مَقَاصِدُهُ، وَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَحَدَّىٰ الثَّقَلَيْنِ إِلَّا بِمُعْجِزَةٍ عَظِيمَةٍ قَاهِرَةٍ.

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ، أَنَّ آيَتَهُ العَظِيمَةَ الظَّاهِرَةَ هِيَ القُرْآنُ، وَأَنَّهُ بِهَذَا القُرْآنِ، يَكُونُ أَكْثَرَ الأَنْبِيَاءِ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(٢)].

أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لَهُ.

قَالَ الحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُهُ ﷺ: «**وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ**»؛ أَيْ: إِنَّ مُعْجِزَتِي الَّتِي تَحَدَّيْتُ بِهَا: الوَحْيُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيَّ وَهُوَ القُرْآنُ؛

(١) «إعجاز القرآن» (ص١٧١).

(٢) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (٢٣٩).

لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الإِعْجَازِ الوَاضِحِ.

وَلَيْسَ المُرَادُ حَصْرَ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ فِيهِ، وَلَا أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ مِنَ المُعْجِزَاتِ مَا أُوتِيَ مَنْ تَقَدَّمَهُ، بَلِ المُرَادُ أَنَّهُ المُعْجِزَةُ العُظْمَىٰ الَّتِي اخْتُصَّ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ مُعْجِزَةً خَاصَّةً بِهِ، لَمْ يُعْطَهَا بِعَيْنِهَا غَيْرُهُ، تَحَدَّىٰ بِهَا قَوْمَهُ، وَكَانَتْ مُعْجِزَةُ كُلِّ نَبِيٍّ تَقَعُ مُنَاسِبَةً لِحَالِ قَوْمِهِ، كَمَا كَانَ السِّحْرُ فَاشِيًا عِنْدَ فِرْعَوْنَ، فَجَاءَهُ مُوسَىٰ بِالعَصَا عَلَىٰ صُورَةِ مَا يَصْنَعُ السَّحَرَةُ لَكِنَّهَا تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا، وَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ لِغَيْرِهِ.

وَكَذَلِكَ إِحْيَاءُ عِيسَىٰ المَوْتَىٰ، وَإِبْرَاءُ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ، لِكَوْنِ الأَطِبَّاءِ وَالحُكَمَاءِ كَانُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ، فَأَتَاهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِم بِمَا لَمْ تَصِلْ قُدْرَتُهُمْ إِلَيْهِ.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ العَرَبُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الغَايَةِ مِنَ البَلَاغَةِ؛ جَاءَهُمْ بِالقُرْآنِ الَّذِي تَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»؛ رَتَّبَ هَذَا الكَلَامَ عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مُعْجِزَةِ القُرْآنِ المُسْتَمِرَّةِ، لِكَثْرَةِ فَائِدَتِهِ وَعُمُومِ نَفْعِهِ، لِاشْتِمَالِهِ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ وَالحُجَّةِ وَالإِخْبَارِ بِمَا سَيَكُونُ، فَعَمَّ نَفْعُهُ مَنْ حَضَرَ وَمَنْ غَابَ، وَمَنْ وُجِدَ وَمَنْ سَيُوجَدُ.

وَقَدْ جَمَعَ بَعْضُهُمْ إِعْجَازَ القُرْآنِ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: حُسْنُ تَأْلِيفِهِ، وَالْتِئَامُ كَلِمِهِ، مَعَ الإِيجَازِ وَالبَلَاغَةِ.

وَثَانِيهَا: صُورَةُ سِيَاقِهِ، وَأُسْلُوبُهُ المُخَالِفُ لِأَسَالِيبِ كَلَامِ أَهْلِ البَلَاغَةِ مِنَ العَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا، حَتَّىٰ حَارَتْ فِيهِ عُقُولُهُمْ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَىٰ الإِتْيَانِ بِشَيءٍ مِثْلِهِ، مَعَ تَوَفُّرِ دَوَاعِيهِمْ إِلَىٰ تَحْصِيلِ ذَلِكَ، وَتَقْرِيعِهِ لَهُمْ عَلَىٰ العَجْزِ عَنْهُ.

وَثَالِثُهَا: مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الإِخْبَارِ عَمَّا مَضَىٰ مِنْ أَحْوَالِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَالشَّرَائِعِ الدَّاثِرَةِ، مِمَّا كَانَ لَا يُعْلَمُ مِنْهُ إِلَّا النَّادِرُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ.

وَرَابِعُهَا: الإِخْبَارُ بِمَا سَيَأْتِي مِنَ الكَوَائِنِ الَّتِي وَقَعَ بَعْضُهَا فِي العَصْرِ النَّبَوِيِّ، وَبَعْضُهَا بَعْدَهُ.

وَمِنْ غَيْرِ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ آيَاتٌ وَرَدَتْ بِتَعْجِيزِ قَوْمٍ فِي قَضَايَا أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَهَا، فَعَجَزُوا عَنْهَا مَعَ تَوَفُّرِ دَوَاعِيهِم عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ، كَتَمَنِّي اليَهُودِ المَوْتَ.

وَمِنْهَا: الرَّوْعَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لِسَامِعِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ قَارِئَهُ لَا يَمَلُّ مِنْ تَرْدَادِهِ، وَسَامِعَهُ لَا يَمُجُّهُ، وَلَا يَزْدَادُ بِكَثْرَةِ التَّكْرَارِ إِلَّا طَرَاوَةً وَلَذَاذَةً.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ آيَةٌ بَاقِيَةٌ لَا تُعْدَمُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا.

وَمِنْهَا: جَمْعُهُ لِعُلُومٍ وَمَعَارِفَ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهَا، وَلَا تَنْتَهِي فَوَائِدُهَا. اهـ مُلَخَّصًا مِنْ كَلَامِ عِيَاضٍ وَغَيْرِهِ»[(١)].

(١) «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني (٨/ ٦٢٣).

قَالَ أُسَامَةُ بنُ مُنْقِذٍ:

«كَلَامُ المَخْلُوقِينَ تَتَمَيَّزُ فِيهِ البَلَاغَةُ مِنَ العِيِّ، وَالفَصَاحَةُ مِنَ اللَّكَنِ.

وَأَمَّا كَلَامُ الخَالِقِ -تبَارَكَ وَتعَالَىٰ- فعُقُولُ البُلَغَاءِ تَعجِزُ عَنْ تَدبُّرِ بَلَاغَتِهِ، وَتَحَارُ فِي اطِّرادِ فَصَاحَتِهِ، فَمَاذَا يُورِدُ المُورِدُ مِنْهُ؟! وَبِمَاذَا يُتَرْجِمُ عَنْهُ؟!

وَقَدْ تَحَدَّىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ بِهِ خَلقَهُ أَجْمَعِينَ، فَقَالَ -وَهُوَ أَصْدَقُ القَائِلِينَ- فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس:٣٧-٣٨].

وَقَالَ -تبَارَكَ وَتعَالَىٰ- فِي سُورَةِ هُود: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود:١٢-١٣].

وَقَالَ -تبَارَكَ وَتعَالَىٰ- فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨-٨٩].

وَقَالَ ﷻ فِي سُورَةِ الطُّورِ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٣-٣٤].

وَمَا يَعجزُ الإِنْسَانُ وَالجِنُّ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ فَمَاذَا يُنْتَزَعُ مِنْهُ وَمَاذَا يُنْتَخَبُ؟

وَعَنِ الأَصْمَعِيِّ قَالَ: «اجتَزْتُ بِبَعْضِ أَحيَاءِ العَرَبِ، فَرَأَيتُ صَبِيَّةً مَعَهَا قِربَةٌ فِيهَا مَاءٌ، وقَدْ انحَلَّ وِكَاءُ فَمِهَا.

فَقَالَتْ: يَا عَمِّ، أَدْرِكْ فَاهَا، غَلَبَنِي فُوْهَا، لَا طَاقَةَ لِي بِفِيهَا.

فَأَعنْتُهَا، وقلتُ: يا جاريةُ، ما أفصَحَكِ!

فَقَالَتْ: يَا عَمِّ، وَهَلْ تَرَكَ القُرْآنُ لِأَحَدٍ فَصَاحَةً؟ وَفِيهِ آيَةٌ فِيهَا خَبَرَانِ، وَأَمْرَانِ، وَنَهْيَانِ، وَبِشَارَتَانِ!

قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟

قَالَتْ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

قَالَ: فَرَجعْتُ بِفَائِدَةٍ، وَكَأَنَّ تِلْكَ الآيَةَ مَا مَرَّتْ بِمَسَامِعِي!»[١].

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الفَصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ حَيْثُ لَا يُدَانَىٰ، «اسْتَعْمَلَ المَبْسُوطَ فِي مَوْضِعِ البَسْطِ، وَالمَقْصُورَ فِي مَوْضِعِ القَصْرِ، وَهَجَرَ الغَرِيبَ الوَحْشِيَّ، وَرَغِبَ عَنِ الهَجِينِ السُّوقِيِّ، فَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ إِلَّا عَنْ مِيرَاثِ حِكْمَةٍ،

(١) «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ، تحقيق أحمد شاكر (ص٣٢٨).

وَلَمْ يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِكَلَامٍ قَدْ حُفَّ بِالعِصْمَةِ، وَشُيِّدَ بِالتَّأْيِيدِ، وَيُسِّرَ بِالتَّوْفِيقِ.

وَكَلَامُهُ ﷺ هُوَ الكَلَامُ الَّذِي أَلْقَىٰ اللهُ عَلَيْهِ المَحَبَّةَ، وَغَشَّاهُ بِالقَبُولِ، وَجَمَعَ لَه بَيْنَ المَهَابَةِ، وَالحَلَاوَةِ، وَبَيْنَ حُسْنِ الإِفهَامِ، وَقِلَّةِ عَدَدِ الكَلَامِ، مَعَ اسْتِغْنَائِهِ عَنْ إِعَادَتِهِ، وَقِلَّةِ حَاجَةِ السَّامِعِ إِلَىٰ مُعَاوَدَتِهِ.

لَمْ تَسْقُطْ لَهُ كَلِمَةٌ، وَلَا زَلَّتْ بِهِ قَدَمٌ، وَلَا بَارَتْ لَهُ حُجَّةٌ، وَلَمْ يَقُمْ لَهُ خَصْمٌ، وَلَا أَفْحَمَهُ خَطِيبٌ، بَلْ يَبُذُّ الخُطَبَ الطِّوَالَ بِالكَلِمِ القِصَارِ، وَلَا يَلْتَمِسُ إِسْكَاتَ الخَصْمِ إِلَّا بِمَا يَعْرِفُهُ الخَصْمُ، وَلَا يَحْتَجُّ إِلَّا بِالصِّدْقِ، وَلَا يَطْلُبُ الفَلْجَ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلَا يَسْتَعِينُ بِالخِلَابَةِ، وَلَا يَسْتَعْمِلُ المُوَارَبَةَ، وَلَا يَهْمِزُ وَلَا يَلْمِزُ، وَلَا يُبْطِئُ وَلَا يَعْجَلُ، وَلَا يُسْهِبُ وَلَا يَحْصَرُ.

ثُمَّ لَمْ يَسْمَعِ النَّاسُ بِكَلَامٍ قَطُّ أَعَمَّ نَفْعًا، وَلَا أَقْصَدَ لَفْظًا، وَلَا أَعْدَلَ وَزْنًا، وَلَا أَجْمَلَ مَذْهَبًا، وَلَا أَكْرَمَ مَطْلَبًا، وَلَا أَحْسَنَ مَوْقِعًا، وَلَا أَسْهَلَ مَخْرَجًا، وَلَا أَفْصَحَ مَعْنًىٰ، وَلَا أَبْيَنَ فِي فَحْوًىٰ، مِنْ كَلَامِهِ صَلَّىٰ الله عَلَيهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا»(١).

وَقَدْ كَانَ ﷺ أَفْصَحَ العَرَبِ، «عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّفُ القَوْلَ، وَلَا يَقْصِدُ إِلَىٰ تَزْيِينِهِ، وَلَا يَبْغِي إِلَيْهِ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الصَّنْعَةِ، وَلَا يُجَاوِزُ بِهِ مِقْدَارَ الإِبْلَاغِ فِي المَعْنَىٰ الَّذِي يُرِيدُهُ، ثُمَّ لَا يَعْرِضُ لَهُ فِي ذَلِكَ سَقَطٌ وَلَا اسْتِكْرَاهٌ، وَلَا تَسْتَزِلُّهُ الفُجَاءَةُ وَمَا يَبْدَه مَنْ أَغْرَاضِ الكَلَامِ عَنِ الأُسْلُوبِ الرَّائِعِ، وَعَنِ النَّمَطِ الغَرِيبِ وَالطَّرِيقَةِ المُحْكَمَةِ، بِحَيْثُ لَا يَجِدُ النَّظَرُ إِلَىٰ كَلَامِهِ طَرِيقًا يَتَصَفَّحُ مِنْهُ صَاعِدًا

---

(١) «البيان والتبيين» (٢/ ١٧).

أَوْ مُنْحَدرًا؛ ثُمَّ أَنْتَ لَا تَعْرِفُ لَهُ إِلَّا المَعَانِيَ الَّتِي هِيَ إِلْهَامُ النُّبُوَّةِ، وَنِتَاجُ الحِكْمَةِ، وَغَايَةُ العَقْلِ، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِمَّا يَخْرُجُ بِهِ الكَلَامُ، وَلَيْس فَوْقَهُ مِقْدَارٌ إِنْسَانِيٌّ مِنَ البَلَاغَةِ وَالتَّسْدِيدِ، وَبَرَاعَةِ القَصْدِ، وَالمَجِيءُ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الغَايَةِ...

وَلَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الفَصَاحَةَ قَدْ كَانَتْ لَهُ ﷺ إِلَّا تَوْفِيقًا مِنَ اللهِ وَتَوْقِيفًا؛ إِذِ ابْتَعَثَهُ فِي العَرَبِ، وَهُمْ قَوْمٌ يُقَادُونَ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَهُمُ المَقَامَاتُ المَشْهُورَةُ، فِي البَيَانِ وَالفَصَاحَةِ، ثُمَّ هُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ تَفَاوُتِ مَا بَيْنَ طَبَقَاتِهِمْ فِي اللُّغَاتِ وَعَلَىٰ اخْتِلَافِ مَوَاطِنِهِمْ.

فَمِنْهُمُ الفَصِيحُ وَالأَفْصَحُ، وَمِنْهُمُ الجَافِي وَالمُضْطَرِبُ، وَمِنْهُمْ ذُو اللُّوثَةِ وَالخَالِصُ فِي مَنْطِقِهِ، إِلَىٰ مَا كَانَ مِنَ اشْتِرَاكِ اللُّغَاتِ وَانْفِرَادِهَا بَيْنَهُمْ، وَتَخَصُّصِ بَعْضِ القَبَائِلِ بِأَوْضَاعٍ وَصِيَغٍ مَقْصُورَةٍ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُسَاهِمُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ العَرَبِ، إِلَّا مَنْ خَالَطَهُمْ أَوْ دَنَا مِنْهُمْ دُنُوَّ المَأْخَذِ»[(١)].

وَفِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ أَنَّهُ ﷺ أُعْطِيَ جَوَامِعَ الكَلِمِ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ**»[(٢)]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُعْطِيتُ**

---

(١) «تاريخ آداب العرب» لمصطفىٰ صادق الرافعي (٢/ ٢٨٢).

(٢) البخاري (٢٨١٥)، ومسلم (٥٢٣).

جَوَامِعَ الكَلِمِ».

وَذَكَرَ الحَافِظُ شَرْحَ «جَوَامِعِ الكَلِمِ» عَنِ الزُّهْرِيِّ: «وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِالقَوْلِ المُوجَزِ، القَلِيلِ اللَّفْظِ، الكَثِيرِ المَعَانِي.

وَجَزَمَ غَيْرُ الزُّهْرِيِّ بِأَنَّ المُرَادَ بِـ «جَوَامِعِ الكَلِمِ»: القُرْآنُ؛ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: «**بُعِثْتُ**»، وَالقُرْآنُ هُوَ الغَايَةُ فِي إِيجَازِ اللَّفْظِ وَاتِّسَاعِ المَعَانِي»[١].

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: «قَوْلُهُ ﷺ: «**أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**»، وَفِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَىٰ: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ**»، قَالَ الهَرَوِيُّ: يَعْنِي بِهِ القُرْآنَ؛ جَمَعَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الأَلْفَاظِ اليَسِيرَةِ مِنْهُ المَعَانِيَ الكَثِيرَةَ، وَكَلَامُهُ ﷺ كَانَ بِالجَوَامِعِ، قَلِيلَ اللَّفْظِ كَثِيرَ المَعَانِي»[٢].

وَقَدْ سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ «**السُّنَّةَ**» حِكْمَةً فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنَ الكِتَابِ العَزِيزِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: « قَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾، يَقُولُ: وَمِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، مَعَ سَائِرِ مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ نِعَمِهِ، أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ، وَهُوَ القُرْآنُ الَّذِي فِيهِ بَيَانُ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًىٰ وَمَوْعِظَةٌ.

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٢٦١).

(٢) «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم» (٥/ ٥).

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ يَعْنِي: وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ مَعَ الكِتَابِ الحِكْمَةَ، وَهِيَ مَا كَانَ فِي الكِتَابِ مُجْمَلًا ذِكْرُهُ، مِنْ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَأَحْكَامِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ»[(١)].

وَفِي «عُمْدَة التَّفْسِير»: «امْتَنَّ عَلَيْهِ بِتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ، وَعِصْمَتِهِ لَهُ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَهُوَ القُرْآنُ، وَالحِكْمَةِ وَهِيَ السنَّةُ»[(٢)].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «أَيْ: وَاعْمَلْنَ بِمَا يُنَزِّلُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا؛ أَيْ: ذَا لُطْفٍ بِكُنَّ، إِذْ جَعَلَكُنَّ فِي البُيُوتِ الَّتِي تُتْلَىٰ فِيهَا آيَاتُ اللهِ، وَالحِكْمَةُ، وَهِيَ السُّنَّةُ»[(٣)].

❊ ❊ ❊

(١) «تفسير الطبري» تحقيق محمود شاكر (٩/ ٢٠٠).

(٢) «عمدة التفسير» (٣/ ٢٦٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨٠٣).

العَرَبِيَّةُ لُغَةُ النُّبُوَّةِ الخَاتِمَةِ

قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيُّ: «مَنْ أَحَبَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَحَبَّ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَمَنْ أَحَبَّ الرَّسُولَ العَرَبِيَّ أَحَبَّ العَرَبَ، وَمَنْ أَحَبَّ العَرَبَ أَحَبَّ العَرَبِيَّةَ؛ الَّتِي بِهَا نَزَلَ أَفْضَلُ الكُتُبِ، عَلَىٰ أَفْضَلِ العَجَمِ وَالعَرَبِ، وَمَنْ أَحَبَّ العَرَبِيَّةَ عُنِيَ بِهَا، وَثَابَرَ عَلَيْهَا، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا.

وَمَنْ هَدَاهُ اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ، وَآتَاهُ حُسْنَ سَرِيرَةٍ فِيهِ، اعْتَقَدَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَيْرُ الرُّسُلِ، وَالإِسْلَامَ خَيْرُ المِلَلِ، وَالعَرَبَ خَيْرُ الأُمَمِ، وَالعَرَبِيَّةَ خَيْرُ اللُّغَاتِ وَالأَلْسِنَةِ، وَالإِقْبَالَ عَلَىٰ تَفَهُّمِهَا مِنَ الدِّيَانَةِ؛ إِذْ هِيَ أَدَاةُ العِلْمِ، وَمِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، وَسَبَبُ إِصْلَاحِ المَعَاشِ وَالمَعَادِ.

ثُمَّ هِيَ لِإِحْرَازِ الفَضَائِلِ، وَالاحْتِوَاءِ عَلَىٰ المُرُوءَةِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ المَنَاقِبِ، كَاليَنْبُوعِ لِلْمَاءِ، وَالزَّنْدِ لِلنَّارِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الإِحَاطَةِ بِخَصَائِصِهَا وَالوُقُوفِ عَلَىٰ مَجَارِيهَا وَمَصَارِفِهَا وَالتَّبَحُّرِ فِي جَلَائِلِهَا وَدَقَائِقِهَا إِلَّا قُوَّةُ اليَقِينِ فِي إِعْجَازِ القُرْآنِ وَزِيَادَةُ البَصِيرَةِ فِي إِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ الَّتِي هِيَ عُمْدَةُ الإِيمَانِ، لَكَفَىٰ بِهِمَا فَضْلًا يَحْسُنُ فِيهِمَا أَثَرُهُ، وَيَطِيبُ فِي الدَّارَيْنِ ثَمَرُهُ، فَكَيْفَ وَأَيْسَرُ مَا خَصَّهَا اللهُ ﷻ بِهِ مِنْ ضُرُوبِ

المَمَادِحِ، يُكِلُّ أَقْلَامَ الكَتَبَةِ، وَيُتْعِبُ أَنَامِلَ الحَسَبَةِ.

وَلَمَّا شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَىٰ -عَزَّ اسْمُهُ- وَعَظَّمَهَا، وَرَفَعَ خَطَرَهَا وَكَرَّمَهَا، وَأَوْحَىٰ بِهَا إِلَىٰ خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهَا لِسَانَ أَمِينِهِ عَلَىٰ وَحْيِهِ، وَخُلَفَائِهِ فِي أَرْضِهِ، وَأَرَادَ بَقَاءَهَا وَدَوَامَهَا، حَتَّىٰ تَكُونَ فِي هَذِهِ العَاجِلَةِ لِخِيَارِ عِبَادِهِ ... قَيَّضَ لَهَا حَفَظَةً وَخَزَنَةً مِنْ خَوَاصِّهِ، مِنْ خِيَارِ النَّاسِ وَأَعْيَانِ الفَضْلِ، وَأَنْجُمِ الأَرْضِ، تَرَكُوا فِي خِدْمَتِهَا الشَّهَوَاتِ، وَجَابُوا الفَلَوَاتِ، وَنَادَمُوا لِاقْتِنَائِهَا الدَّفَاتِرَ، وَسَامَرُوا القَمَاطِرَ وَالمَحَابِرَ، وَكَدُّوا فِي حَصْرِ لُغَاتِهَا طِبَاعَهُمْ، وَأَشْهَرُوا فِي تَقْيِيدِ شَوَارِدِهَا أَجْفَانَهُمْ، وَأَجَالُوا فِي نَظْمِ قَلَائِدِهَا أَفْكَارَهُمْ، وَأَنْفَقُوا عَلَىٰ تَخْلِيدِ كُتُبِهَا أَعْمَارَهُمْ، فَعَظُمَتِ الفَائِدَةُ، وَعَمَّتِ المَصْلَحَةُ، وَتَوَفَّرَتِ العَائِدَةُ، وَكُلَّمَا بَدَأَتْ مَعَارِفُهَا تَتَنَكَّرُ، أَوْ كَادَتْ مَعَالِمُهَا تَتَسَتَّرُ، أَوْ عَرَضَ لَهَا مَا يُشْبِهُ الفَتْرَةَ، رَدَّ اللهُ تَعَالَىٰ لَهَا الكَرَّةَ، فَأَهَبَّ رِيحَهَا، وَنَفَّقَ سُوقَهَا»[١].

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «اللِّسَانُ العَرَبِيُّ شِعَارُ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَاللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ»[٢].

وَقَالَ: «اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ هِيَ شِعَارُ الإِسْلَامِ، وَلُغَةُ القُرْآنِ»[٣].

وَقَالَ: «نَفْسُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنَ الدِّينِ، وَمَعْرِفَتُهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ»[٤].

---

(١) «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي (ص٢١).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٢).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٨).

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٩).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ وَقَدْ ذَكَرَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ تَعَلُّمِ العَرَبِيَّةِ، وَتَعَلُّمِ الشَّرِيعَةِ: «وَهَذَا الَّذِي أَمَرَ بِهِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ فِقْهِ العَرَبِيَّةِ وَفِقْهِ الشَّرِيعَةِ، يَجْمَعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ فِيهِ أَقْوَالٌ وَأَعْمَالٌ، فَفِقْهُ العَرَبِيَّةِ هُوَ الطَّرِيقُ إِلَىٰ فِقْهِ أَقْوَالِهِ، وَفِقْهُ السُّنَّةِ هُوَ فِقْهُ أَعْمَالِهِ»[1].

وَهَذِهِ اللُّغَةُ الَّتِي نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ، وَتَكَلَّمَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَوْسَعُ اللُّغَاتِ مَدًىٰ، وَأَبْسَطُهَا لِسَانًا، وَأَصْفَاهَا بَيَانًا.

وَقَدْ تَنَازَعَ العُلَمَاءُ فِي أَلْفَاظٍ وَرَدَتْ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاطَئَتْهَا أَلْفَاظٌ فِي أَلْسِنَةِ أَقْوَامٍ مِنْ غَيْرِ العَرَبِ، كَالفُرْسِ وَالحَبَشِ وَالتُّرْكِ.

وَعَرَضَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ لِذَلِكَ فِي «رِسَالَتِهِ» العَظِيمَةِ، فَبَيَّنَ أَنْ لَيْسَ فِي القُرْآنِ لَفْظٌ غَيْرُ عَرَبِيٍّ، وَفِي تَضَاعِيفِ بَيَانِهِ رَحِمَهُ اللهُ دُرَرٌ نَفِيسَةٌ عَنْ فَضْلِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ، وَفَضْلِ النَّاطِقِينَ بِهِ، وَلِنَفَاسَةِ هَذَا البَيَانِ أَنْقُلُهُ لَكَ عَلَىٰ طُولِهِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي العِلْمِ مَنْ لَوْ أَمْسَكَ عَنْ بَعْضِ مَا تَكَلَّمَ فِيهِ مِنْهُ لَكَانَ الإِمْسَاكُ أَوْلَىٰ بِهِ، وَأَقْرَبَ مِنَ السَّلَامَةِ لَهُ -إِنْ شَاءَ اللهُ-، فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ: إِنَّ فِي القُرْآنِ عَرَبِيًّا وَأَعْجَمِيًّا!!

وَالقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنْ لَيْسَ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَيءٌ إِلَّا بِلِسَانِ العَرَبِ، وَلَعَلَّ

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٧٠).

مَنْ قَالَ: إِنَّ فِي القُرْآنِ غَيْرَ لِسَانِ العَرَبِ، وَقُبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ: ذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّ مِنَ القُرْآنِ خَاصًّا يَجْهَلُ بَعْضَهُ بَعْضُ العَرَبِ.

وَلِسَانُ العَرَبِ أَوْسَعُ الأَلْسِنَةِ مَذْهَبًا، وَأَكْثَرُهَا أَلْفَاظًا، وَلَا نَعْلَمُهُ يُحِيطُ بِجَمِيعِ عِلْمِهِ إِنْسَانٌ غَيْرُ نَبِيٍّ، وَلَكِنَّهُ لَا يَذْهَبُ مِنْهُ شَيءٌ عَلَىٰ عَامَّتِهَا، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ مَوْجُودًا فِيهَا مَنْ يَعْرِفُهُ.

وَالعِلْمُ بِهِ -أَيْ: بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ- **عِنْدَ العَرَبِ كَالعِلْمِ بِالسُّنَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الفِقْهِ: لَا نَعْلَمُ رَجُلًا جَمَعَ السُّنَنَ فَلَمْ يَذْهَبْ مِنْهَا عَلَيْهِ شَيءٌ.**

فَإِذَا جُمِعَ عِلْمُ عَامَّةِ أَهْلِ العِلْمِ بِهَا أَتَىٰ عَلَىٰ السُّنَنِ، وَإِذَا فُرِّقَ عِلْمُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ذَهَبَ عَلَيْهِ الشَّيءُ مِنْهَا، ثُمَّ كَانَ مَا ذَهَبَ عَلَيْهِ مِنْهَا مَوْجُودًا عِنْدَ غَيْرِهِ، وَهُمْ فِي العِلْمِ طَبَقَاتٌ: مِنْهُمُ الجَامِعُ لِأَكْثَرِهِ وَإِنْ ذَهَبَ عَلَيهِ بَعْضُهُ، وَمِنْهُمُ الجَامِعُ لِأَقَلَّ مِمَّا جَمَعَ غَيْرُهُ.

وَلَيْسَ قَلِيلُ مَا ذَهَبَ مِنَ السُّنَنِ عَلَىٰ مَنْ جَمَعَ أَكْثَرَهَا: دَلِيلًا عَلَىٰ أَنْ يُطْلَبَ عِلْمُهُ عِنْدَ غَيْرِ طَبَقَتِهِ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، بَلْ يُطْلَبُ عِنْدَ نُظَرَائِهِ مَا ذَهَبَ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ يُؤْتَىٰ عَلَىٰ جَمِيعِ سُنَنِ رَسُولِ اللهِ -بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي- فَيَتَفَرَّدُ جُمْلَةُ العُلَمَاءِ بِجَمْعِهَا، وَهُوَ دَرَجَاتٌ فِيمَا وَعَوْا مِنْهَا.

وَهَكَذَا لِسَانُ العَرَبِ عِنْدَ خَاصَّتِهَا وَعَامَّتِهَا: لَا يَذْهَبُ مِنْهُ شَيءٌ عَلَيْهَا، وَلَا يُطْلَبُ عِنْدَ غَيْرِهَا، وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ قَبِلَهُ عَنْهَا، وَلَا يَشْرَكُهَا فِيهِ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَهَا فِي تَعَلُّمِهِ مِنْهَا، وَمَنْ قَبِلَهُ مِنْهَا فَهُوَ مِنْ أَهْلِ لِسَانِهَا.

وَإِنَّمَا صَارَ غَيْرُهُمْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ بِتَرْكِهِ، فَإِذَا صَارَ إِلَيْهِ صَارَ مِنْ أَهْلِهِ، وَعِلْمُ أَكْثَرِ اللِّسَانِ فِي أَكْثَرِ العَرَبِ أَعَمُّ مِنْ عِلْمِ أَكْثَرِ السُّنَنِ فِي العُلَمَاءِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَقَدْ نَجِدُ مِنَ العَجَمِ مَنْ يَنْطِقُ بِالشَّيءِ مِنْ لِسَانِ العَرَبِ؟

فَذَلِكَ يَحْتَمِلُ مَا وَصَفْتُ مِنْ تَعَلُّمِهِ مِنْهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ تَعَلَّمَهُ مِنْهُمْ، فَلَا يُوجَدُ يَنْطِقُ إِلَّا بِالقَلِيلِ مِنْهُ، وَمَنْ نَطَقَ بِقَلِيلٍ مِنْهُ فَهُوَ تَبَعٌ لِلْعَرَبِ فِيهِ، وَلَا نُنْكِرُ إِذْ كَانَ اللَّفْظُ قِيْلَ تَعَلُّمًا أَوْ نُطِقَ بِهِ مَوْضُوعًا: أَنْ يُوَافِقَ لِسَانُ العَجَمِ أَوْ بَعْضُهَا قَلِيلًا مِنْ لِسَانِ العَرَبِ، كَمَا يَاتَفِقُ[1] القَلِيلُ مِنْ أَلْسِنَةِ العَجَمِ المُتَبَايِنَةِ فِي أَكْثَرِ كَلَامِهَا، مَعَ تَنَائِي دِيَارِهَا، وَاخْتِلَافِ لِسَانِهَا، وَبُعْدِ الأَوَاصِرِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنْ وَافَقَتْ بَعْضَ لِسَانِهِ مِنْهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الحُجَّةُ فِي أَنَّ كِتَابَ اللهِ مَحْضٌ بِلِسَانِ العَرَبِ، لَا يَخْلِطُهُ فِيهِ غَيْرُهُ؟

فَالحُجَّةُ فِيهِ كِتَابُ اللهِ، قَالَ اللهُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤].

(١) قَالَ الشَّيخُ أَحْمَد شَاكِر رَحِمَهُ اللهُ: «(يَاتَفِقُ) فِعلٌ مُضَارِعٌ لَم تُدغم فِيهِ فَاءُ الافتعَالِ، بل قُلِبَتْ حَرفًا لَينًا مِن جِنسِ الحَرَكةِ قَبْلَهَا، وهي لغةُ أهلِ الحِجَاز، يقولون: ايتفق، ياتفق، فهو موتفق. ولغةُ غَيرِهم الإدغامُ يقولون: اتفق، يتفق، فهو متفق، والشافعيُّ يكتبُ ويتحدَّثُ بلغته: لُغَةِ أهلِ الحجاز».

انظر: حاشية (ص٣١) «الرسالة» للشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِنَّ الرُّسُلَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ كَانُوا يُرْسَلُونَ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ خَاصَّةً، وَإِنَّ مُحَمَّدًا بُعِثَ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً؛ فَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بُعِثَ بِلسَانِ قومِهِ خَاصَّةً، وَيَكونَ عَلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً أَنْ يَتَعَلَّمُوا لِسَانَهُ ومَا أطَاقُوا مِنْهُ.

وَيَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ بُعِثَ بِأَلْسِنَتِهِم: فَهَلْ مِنْ دَلِيلٍ عَلَىٰ أَنَّهُ بُعِثَ بِلِسَانِ قَوْمِهِ خَاصَّةً دُونَ أَلْسِنَةِ العَجَمِ؟

فَإِنْ كَانَتِ الأَلْسِنَةُ مُخْتَلِفَةً بِمَا لا يَفْهَمُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ تَبَعًا لِبَعْضٍ، وَأَنْ يَكُونَ الفَضْلُ فِي اللِّسَانِ المُتَّبَعِ عَلَىٰ التَّابِعِ، وَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِالفَضْلِ بِاللِّسَانِ مَنْ لِسَانُهُ لِسَانُ النَّبِيِّ، وَلا يَجُوزُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنْ يَكُونَ أَهْلُ لِسَانِهِ أَتْبَاعًا لِأَهْلِ لِسَانٍ غَيْرِ لِسَانِهِ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، بَلْ كُلُّ لِسَانٍ تَبَعٌ لِلِسَانِهِ، وَكُلُّ أَهْلِ دِينٍ قَبْلَهُ فَعَلَيْهِمُ اتِّبَاعُ دِينِهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ:

قَالَ اللهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٣]. وَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧]. وَقَالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورىٰ:٧]. وَقَالَ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:١-٣]. وَقَالَ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨].

فَأَقَامَ حُجَّتَهُ بِأَنَّ كِتَابَهُ عَرَبِيٌّ فِي كُلِّ آيَةٍ ذَكَرْنَاهَا، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِأَنْ نَفَىٰ عَنْهُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- كُلَّ لِسَانٍ غَيْرَ لِسَانِ العَرَبِ، فِي آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ، فَقَالَ

-تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وَقَالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾ [فصلت:٤٤].

وَعَرَّفَنَا نِعَمَهُ بِمَا خَصَّنَا بِهِ مِنْ مَكَانِهِ فَقَالَ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وَقَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

وَكَانَ مِمَّا عَرَّفَ اللهُ نَبِيَّهُ مِنْ إِنْعَامِهِ أَنْ قَالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ [الزخرف:٤٤]، فَخَصَّ قَوْمَهُ بِالذِّكْرِ مَعَهُ بِكِتَابِهِ.

وَقَالَ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

وَقَالَ: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ [الزخرف:٤٤].

وَأُمُّ القُرَىٰ: مَكَّةُ، وَهِيَ بَلَدُهُ وَبَلَدُ قَوْمِهِ، فَجَعَلَهُمْ فِي كِتَابِهِ خَاصَّةً، وَأَدْخَلَهُمْ مَعَ المُنْذَرِينَ عَامَّةً، وَقَضَىٰ أَنْ يُنْذَرُوا بِلِسَانِهِمُ العَرَبِيِّ: لِسَانِ قَوْمِهِ مِنْهُمْ خَاصَّةً.

فَعَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ العَرَبِ مَا بَلَغَهُ جَهْدُهُ، حَتَّىٰ يَشْهَدَ بِهِ أَنْ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيَتْلُوَ بِهِ كِتَابَ اللهِ، وَيَنْطِقَ بِالذِّكْرِ فِيمَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْبِيرِ، وَمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّشَهُّدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمَا ازْدَادَ مِنَ العِلْمِ بِاللِّسَانِ، الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِسَانَ مَنْ خَتَمَ بِهِ نُبُوَّتَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ آخِرَ كُتُبِهِ، كَانَ خَيْرًا لَهُ، كَمَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الصَّلَاةَ وَالذِّكْرَ فِيهَا، وَيَأْتِيَ البَيْتَ وَمَا أُمِرَ بِإِتْيَانِهِ، وَيَتَوَجَّهُ لِمَا وُجِّهَ لَهُ، وَيَكُونُ تَبَعًا فِيمَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ وَنُدِبَ إِلَيْهِ، لَا مَتْبُوعًا»[1].

فَهَذَا هُوَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَذْكُرُ اتِّسَاعَ لِسَانَ العَرَبِ حَتَّىٰ لَيَسْتَحِيلَ أَنْ يُحِيطَ بِهِ غَيْرُ النَّبِيِّ، وَلَكِنَّهُ كَالسُّنَنِ تَتَفَرَّقُ عِنْدَ العُلَمَاءِ بِهَا، وَلَكِنَّهَا بِمَجْمُوعِهَا عِنْدَ مَجْمُوعِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ سُنَّةٍ مِنَ السُّنَنِ فَإِنَّمَا يَبْحَثُ عَنْهَا فِي مَظَانِّهَا؛ عِنْدَ العُلَمَاءِ بِهَا، وَلَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَكَذَلِكَ اللِّسَانُ العَرَبِيُّ إِذَا عَزَبَ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ بَعْضِ أَهْلِهِ وُجِدَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَلَكِنَّهُ لَا يُخْطِئُ مَجْمُوعَهُمْ.

وَاللِّسَانُ العَرَبِيُّ مُتَّبَعٌ، وَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِالفَضْلِ فِي اللِّسَانِ مَنْ لِسَانُهُ لِسَانُ النَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ وَجَّهَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ المُسْلِمَ إِلَىٰ تَعَلُّمِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ مَا بَلَغَهُ جَهْدُهُ، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّهُ مَا ازْدَادَ أَحَدٌ مِنَ العِلْمِ بِاللِّسَانِ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَمَّا القَضِيَّةُ الَّتِي كَانَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يُنَاقِشُهَا -وَهِيَ: خُلُوُّ القُرْآنِ مِنْ

(١) «الرسالة» للشافعي، تحقيق: أحمد شاكر (ص٤١).

لَفْظٍ أَعْجَمِيٍّ – فَقَدْ حَكَىٰ السّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِجْمَاعَ الجُمْهُورِ عَلَىٰ مَا قَالَهُ الشَّافِعِيُّ، وَلَا بَأْسَ مِنْ نَقْلِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ القَضِيَّةُ لَيْسَتْ مِنْ صُلْبِ مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ[(١)].

قَالَ السّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ الجُمْهُورُ: لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ شَيءٌ بِغَيْرِ لُغَةِ العَرَبِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

وَادَّعَىٰ نَاسٌ أَنَّ فِي القُرْآنِ مَا لَيْسَ بِلُغَةِ العَرَبِ، حَتَّىٰ ذَكَرُوا لُغَةَ الرُّومِ وَالقِبْطِ وَالنَّبطِ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَقَدْ أَكْبَرَ القَوْلَ»[(٢)].

قَالَ أَحْمَد شَاكِر رَحِمَهُ اللَّهُ مُعَلِّقًا عَلَىٰ كَلَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ الَّذِي نَقَلْتُهُ آنِفًا: «فِي هَذَا مَعْنًىٰ سِيَاسِيٌّ وَقَوْمِيٌّ [كَذَا] جَلِيلٌ؛ لِأَنَّ الأُمَّةَ الَّتِي نَزَلَ بِلِسَانِهَا الكِتَابُ الكَرِيمُ، يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ عَلَىٰ نَشْرِ دِينِهَا، وَنَشْرِ لِسَانِهَا، وَنَشْرِ عَادَاتِهَا وَآدَابِهَا بَيْنَ الأُمَمِ الأُخْرَىٰ، وَهِيَ تَدْعُوهَا إِلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهَا مِنَ الهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ، لِتَجْعَلَ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ الإِسْلَامِيَّةِ أُمَّةً وَاحِدَةً، دِينُهَا وَاحِدٌ، وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ، وَلُغَتُهَا وَاحِدَةٌ، وَمُقَوِّمَاتُ شَخْصِيَّتِهَا وَاحِدَةٌ، وَلِتَكُونَ أُمَّةً

(١) عقد ابن فارسٍ في كتابه «الصاحبي» بابًا عنوانُه: «القولُ في اللغةِ التي بها نزل القرآنُ، وأنه ليس في كتاب الله –جلَّ ثناؤه– شيءٌ بغير لغةِ العربِ»، «الصاحبي» (ص٤١).

(٢) «المزهر» للسيوطي (١/ ٢٦٦).

وَسَطًا، وَيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فِي هَذِهِ العُصْبَةِ الإِسْلَامِيَّةِ: فَعَلَيهِ أَنْ يَعْتَقِدَ دِينَهَا، وَيَتَّبِعَ شَرِيعَتَهَا، وَيَهْتَدِيَ بِهَدْيِهَا، وَيَتَعَلَّمَ لُغَتَهَا، وَيَكُونَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: **تبعًا لا متبوعًا**»[1].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّمَا بَدَأْتُ بِمَا وَصَفْتُ مِنْ أَنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ العَرَبِ دُونَ غَيرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْلَمُ مِنْ إِيضَاحِ جُمَلِ عِلْمِ الكِتَابِ أَحَدٌ جَهِلَ سَعَةَ لِسَانِ العَرَبِ، وَكَثْرَةَ وُجُوهِهِ، وَجِمَاعَ مَعَانِيهِ وَتَفَرُّقَهَا، وَمَنْ عَلِمَهُ انتَفَتْ عَنْهُ الشُّبَهُ الَّتِي دَخَلَتْ عَلىٰ مَنْ جَهِلَ لِسَانَهَا.

فَكَانَ تَنْبِيهُ العَامَّةِ عَلَىٰ أَنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ العَرَبِ خَاصَّةً: نَصِيحَةً لِلمُسْلِمِينَ، وَالنَّصِيحَةُ لَهُم فَرْضٌ لَا يَنْبَغِي تَرْكُهُ، وإِدْرَاكُ نَافِلَةِ خَيرٍ لَا يَدَعُهَا إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَتَرَكَ مَوضِعَ حَظِّهِ، وكَانَ يجمَعُ مَعَ النَّصِيحَةِ لَهُم قِيَامًا بِإِيضَاحِ حَقٍّ، وكَانَ القِيَامُ بِالحَقِّ وَنَصِيحَةُ المُسْلِمِينَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ، وَطَاعَةُ اللهِ جَامِعَةٌ لِلخَيرِ».

قَالَ الشَّافِعِيُّ: «فَإِنَّمَا خَاطَبَ اللهُ بِكِتَابِهِ العَرَبَ بِلِسَانِهَا عَلَىٰ مَا تَعْرِفُ مِنْ مَعَانِيهَا، وَكَانَ مِمَّا تَعْرِفُ مِنْ مَعَانِيهَا؛ اتِّسَاعُ لسَانِهَا، وَأَنَّ فِطْرَتَهُ أَنْ يُخَاطِبَ بِالشَّيءِ مِنْهُ عَامًّا ظَاهِرًا يُرَادُ بِهِ العَامُّ الظَّاهِرُ، وَيُستَغْنَىٰ بِأَوَّلِ هَذَا مِنْهُ عَنْ آخِرِهِ، وعَامًّا ظَاهِرًا يُرَادُ بِهِ العَامُّ وَيَدخُلُهُ الخَاصُّ.

(١) «الرسالة»، حاشية (ص٤٩).

فَيُسْتَدَلُّ عَلَىٰ هَذَا بِبَعْضِ مَا خُوطِبَ بِه فِيهِ، وَعَامًّا ظَاهِرًا يُرَادُ بِهِ الخَاصُّ، وَظَاهِرًا يُعْرَفُ فِي سِيَاقِهِ أَنَّهُ يُرَادُ بِهِ غَيرُ ظَاهِرِهِ.

فَكُلُّ هَذَا مَوجُودٌ عِلمُهُ فِي أَوَّلِ الكَلَامِ أَوْ وَسَطِهِ أَوْ آخِرِهِ.

وَتَبَتَدِئُ الشَّيءَ مِنْ كَلَامِهَا يُبِينُ أَوَّلُ لَفْظِهَا فِيهِ عَنْ آخِرِهِ، وَتَبتَدِئُ الشَّيءَ يُبِينُ آخِرُ لَفظِهَا مِنْهُ عَنْ أَوَّلِهِ.

وَتَكلَّمُ بِالشَّيء تعرِّفُهُ بِالمَعْنَىٰ دُونَ الإِيضَاحِ بِاللَّفْظِ كَمَا تُعَرِّفُ الإِشَارَةُ، ثُمَّ يَكُونُ هَذَا عِنْدَهَا مِنْ أَعَلَىٰ كَلَامِهَا؛ لانفرَادِ أَهْلِ عِلْمِهَا بِهِ دُونَ أَهْلِ جَهَالَتِهَا.

وَتُسَمِّي الشَّيءَ الوَاحِدَ بِالأَسْمَاءِ الكَثِيرَةِ، وَتُسمِّي بِالاسْمِ الوَاحِدِ المَعَانِيَ الكَثِيرَةَ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الوجُوهُ التِي وَصَفْتُ اجتمَاعَهَا فِي مَعْرِفَةِ أَهْلِ العِلْمِ مِنْهَا -وإِنِ اختَلَفَت أسبَابُ مَعرِفَتِهَا- مَعرفَةً [أي: مَعْرُوفةً] وَاضِحَةً عِنْدَهَا، وَمُستَنكَرًا عِنْدَ غَيرِهَا، مِمَّنْ جَهِلَ هَذَا مِنْ لِسَانِهَا، وَبِلِسَانِهَا نَزَلَ الكِتَابُ وَجَاءَتِ السُّنَّةُ، فَتكلَّفَ القولَ فِي عِلْمِهَا تَكَلُّفَ مَا يجهَلُ بعضَهُ.

ومَنْ تَكَلَّفَ مَا جَهِلَ وَمَا لَمْ تُثْبِتْهُ مَعْرِفَتُه، كَانَتْ مُوَافقتُهُ لِلصَّوَابِ -إِنْ وَافَقَهُ مِنْ حَيثُ لَا يَعْرِفُهُ- غير مَحْمُودَةٍ -واللهُ أَعْلَمُ-، وَكَانَ بِخَطَئِهِ غَيرَ مَعْذُورٍ، إِذَا مَا نَطَقَ فِيمَا لَا يُحِيطُ عِلْمُهُ بِالْفَرْقِ بَينَ الخَطَأِ وَالصَّوَابِ فِيهِ»[1].

(١) «الرسالة» (ص٥٠).

لِمَاذَا نَهْتَمُّ بِالعَرَبِيَّةِ الفُصْحَى؟

«لِلْعَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ ظَرْفٌ خَاصٌّ، لَمْ يَتَوَفَّرْ لِأَيَّةِ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ العَالَمِ، وَهَذَا الظَّرْفُ يَجْعَلُنَا نَرْفُضُ مَا يُنَادِي بِهِ بَعْضُ الغَافِلِينَ وَالمُغْرِضِينَ، مِنْ تَرْكِ الحَبْلِ عَلَىٰ الغَارِبِ لِلْعَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ، لِكَيْ تَتَفَاعَلَ مَعَ العَامِّيَّاتِ، تَأْخُذُ مِنْهَا وَتُعْطِي، كَمَا يَحْدُثُ فِي اللُّغَاتِ كُلِّهَا...

حَقًّا إِنَّ اللُّغَةَ كَائِنٌ حَيٌّ، تَتَطَوَّرُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ المُتَكَلِّمِينَ بِهَا، فَيَنْشَأُ مِنْ هَذَا التَّطَوُّرِ اخْتِلَافٌ بَيْنَ لُغَةِ عَصْرٍ وَالعَصْرِ الَّذِي سَبَقَهُ، وَهُنَا يَحْدُثُ الصِّرَاعُ بَيْنَ أَنْصَارِ الشَّكْلِ القَدِيمِ، وَأَنْصَارِ الشَّكْلِ الجَدِيدِ.

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ يُصْبِحُ قَدِيمًا مَا كَانَ بِالأَمْسِ جَدِيدًا، فَيَتَصَارَعُ مَعَ جَدِيدٍ آخَرَ، وَتَضْمَحِلُّ لُغَةُ العَصْرِ الأَسْبَقِ أَوْ تَنْدَثِرُ.

غَيْرَ أَنَّ كُلَّ جَدِيدٍ لَا يَظْهَرُ فَجْأَةً، وَلَا يُقْضَىٰ عَلَىٰ القَدِيمِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بَلْ يَظَلُّ الصِّرَاعُ بَيْنَهُمَا لِفَتْرَةٍ قَدْ تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ، غَيْرَ أَنَّ الانْتِصَارَ يَكُونُ فِي النِّهَايَةِ لِلشَّكْلِ الجَدِيدِ، تِلْكَ سُنَّةُ الحَيَاةِ، وَتَارِيخُ اللُّغَاتِ جَمِيعِهَا يَشْهَدُ بِهَذَا، وَلَا نَعْرِفُ لُغَةً عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ، جَمَدَتْ عَلَىٰ شَكْلٍ وَاحِدٍ مِئَاتِ السِّنِينَ.

غَيْرَ أَنَّ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَىٰ، لَهَا ظَرْفٌ لَمْ يَتَوَفَّرْ لِأَيَّةِ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ العَالَمِ،

ذَلِكَ أَنَّهَا ارْتَبَطَتْ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَدُوِّنَ بِهَا التُّرَاثُ العَرَبِيُّ الضَّخْمُ، الَّذِي كَانَ مِحْوَرُهُ هُوَ القُرْآنُ الكَرِيمُ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَظَاهِرِهِ.

وَقَدْ كَفَلَ اللهُ لَهَا الحِفْظَ مَا دَامَ يَحْفَظُ دِينَهُ، فَقَالَ ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وَلَوْلَا أَنْ شَرَّفَهَا الله ﷻ، فَأَنْزَلَ بِهَا كِتَابَهُ، وَقَيَّضَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يَتْلُوهُ صَبَاحَ مَسَاءَ، وَوَعَدَ بِحِفْظِهِ عَلَىٰ تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ – لَوْلَا كُلُّ هَذَا لَأَمْسَتِ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ لُغَةً أَثَرِيَّةً، تُشْبِهُ اللَّاتِينِيَّةَ أَوِ السنسكريتِيَّةَ، وَلَسَادَتِ اللَّهْجَاتُ العَرَبِيَّةُ المُخْتَلِفَةُ فِي نَوَاحِي الأَرْضِ العَرَبِيَّةِ، وَازْدَادَتْ عَلَىٰ مَرِّ الزَّمَانِ بُعْدًا عَنِ الأَصْلِ الَّذِي انْسَلَخَتْ مِنْهُ.

هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي يَجْعَلُنَا لَا نَقِيسُ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَىٰ، بِمَا يَحْدُثُ فِي اللُّغَاتِ الحَيَّةِ المُعَاصِرَةِ، فَإِنَّ أَقْصَىٰ عُمْرِ هَذِهِ اللُّغَاتِ فِي شَكْلِهَا الحَاضِرِ لَا يَتَعَدَّىٰ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ، فَهِيَ دَائِمَةُ التَّطَوُّرِ وَالتَّغَيُّرِ، وَعُرْضَةٌ لِلتَّفَاعُلِ مَعَ اللُّغَاتِ المُجَاوِرَةِ، تَأْخُذُ مِنْهَا وَتُعْطِي، وَلَا تَجِدُ فِي كُلِّ ذَلِكَ حَرَجًا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَرْتَبِطْ فِي فَتْرَةٍ مِنْ فَتَرَاتِ حَيَاتِهَا بِكِتَابٍ كَرِيمٍ، كَمَا هِيَ الحَالُ فِي العَرَبِيَّةِ.

فَاهْتِمَامُنَا بِالعَرَبِيَّةِ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ نَابِعًا مِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ، وَهُوَ ارْتِبَاطُهَا بِالدِّينِ الإِسْلَامِيِّ وَالتُّرَاثِ العَرَبِيِّ.

وَإِذَا أَصْبَحَ هَذَا المُنْطَلَقُ وَاضِحًا فِي أَذْهَانِ القَائِمِينَ عَلَىٰ تَعْلِيمِ العَرَبِيَّةِ، لَمْ يَجْنَحْ بِهِمُ الخَيَالُ يَوْمًا إِلَىٰ الاعْتِقَادِ بِأَنَّ إِجَادَةَ تَعْلِيمِ هَذِهِ اللُّغَةِ، سَيَقْضِي عَلَىٰ لُغَةِ الحَدِيثِ اليَوْمِيِّ تَمَامًا، فَلَيْسَ مِنَ اللَّازِمِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ النَّاسُ جَمِيعًا هَذِهِ اللُّغَةَ

الأَدَبِيَّةَ فِي أَحَادِيثِهِمْ، بَلْ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ يَكَادُ يَكُونُ مُسْتَحِيلًا، وَلَمْ يَحْدُثْ فِي أَيِّ عَصْرٍ مِنَ العُصُورِ.

فَمِنَ القَوَاعِدِ المُقَرَّرَةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ: أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَىٰ مَجْمُوعَةٍ بَشَرِيَّةٍ، تَعِيشُ فِي مِسَاحَةٍ أَرْضِيَّةٍ شَاسِعَةٍ، أَنْ تَصْطَنِعَ فِي حَدِيثِهَا اليَوْمِيِّ لُغَةً مُوَحَّدَةً، تَخْلُو مِنَ اخْتِلَافٍ صَوْتِيٍّ، أَوْ دَلَالِيٍّ، أَوِ اخْتِلَافٍ فِي البِنْيَةِ أَوِ التَّرَاكِيبِ»[1].

«إِنَّ ارْتِبَاطَ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ، هُوَ السِّرُّ فِي تَمَسُّكِنَا بِالعَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ القَدِيمَةِ، وَدَعْوَتِنَا إِلَىٰ دِرَاسَتِهَا دِرَاسَةً مُسْتَفِيضَةً؛ لِكَيْ نَفْهَمَ بِهَا القُرْآنَ الكَرِيمَ، وَمَا دَارَ حَوْلَهُ مِنْ دِرَاسَاتٍ، وَكَذَلِكَ الشِّعْرُ العَرَبِيُّ القَدِيمُ، الَّذِي يُلْقِي أَضْوَاءً عَلَىٰ المَعَانِي القُرْآنِيَّةِ، وَيُفِيدُ فِي تَوْضِيحِ القُرْآنِ الكَرِيمِ.

فَهَذِهِ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ، الَّتِي اسْتَمَرَّتْ حَيَّةً، أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَالَّتِي سَتَسْتَمِرُّ فِي حَيَاتِهَا إِلَىٰ مَا شَاءَ اللهُ تَسْتَمِدُّ مِنَ ارْتِبَاطِهَا بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ عُنْصُرَ الحَيَاةِ.

وَهَذِهِ القَضِيَّةُ كَانَتْ وَاضِحَةً فِي أَذْهَانِ اللُّغَوِيِّينَ العَرَبِ فِي المَاضِي؛ فَهَذَا هُوَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ (المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٣٢٢هـ) يَقُولُ فِي كِتَابِهِ «الزِّينَة فِي الكَلِمَات الإِسْلَامِيَّة» (١/ ١١٦): وَلَوْلَا مَا بِالنَّاسِ مِنَ الحَاجَةِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ لُغَةِ العَرَبِ، وَالاسْتِعَانَةِ بِالشِّعْرِ عَلَىٰ العِلْمِ بِغَرِيبِ القُرْآنِ، وَأَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالأَئِمَّةِ المَاضِينَ، لَبَطَلَ الشِّعْرُ، وَانْقَرَضَ ذِكْرُ الشُّعَرَاءِ،

---

(١) «فصول في فقه العربية» لرمضان عبد التواب (ص٤١٤).

وَلَعَفَّىٰ الدَّهْرُ عَلَىٰ آثَارِهِمْ، وَنَسِيَ النَّاسُ أَيَّامَهُمْ»[١].

إِنَّ ارْتِبَاطَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِالإِسْلَامِ، ذَلِكَ الارْتِبَاطَ الوَثِيقَ الَّذِي يَتَمَثَّلُ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَالأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، قَدْ جَعَلَ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَكَانَةً تَسْمُو عَلَىٰ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ الَّتِي عَرَفَهَا التَّارِيخُ.

«وَالقُرْآنُ الكَرِيمُ بِحُكْمِ أَنَّهُ لِسَانُ الإِسْلَامِ النَّاطِقُ، وَمُعْجِزَتُهُ البَاقِيَةُ، هُوَ الَّذِي حَفِظَ العَرَبِيَّةَ مِنَ الضَّيَاعِ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ عَلَىٰ وَجْهٍ تَحَدَّىٰ بِهِ العَرَبَ تَحَدِّيًا صَارِخًا؛ فَذَلُّوا وَاسْتَكَانُوا، فَحَرَصَ كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَىٰ أَلْفَاظِهِ احْتِفَاظًا بِالمُعْجِزَةِ، وَتَعَبُّدًا بِتِلَاوَتِهِ، وَلَوْ أَنَّهُ جَاءَ كَمَا جَاءَ غَيْرُهُ مِنَ الكُتُبِ، مُجَرَّدًا عَنِ الإِعْجَازِ، لَمَا كَانَ حَتْمًا عَلَىٰ النَّاسِ أَنْ يُلْزِمُوا أَنْفُسَهُمْ تَعَهُّدَهَا وَالتَّعَرُّفَ إِلَيْهَا.

بَلْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مَا فِيهِ مِمَّا يُصْلِحُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ بَعْدَ أَنْ يَنْقُلُوهُ إِلَىٰ لُغَاتِهِمْ، فَتَضْطَرُّ العَرَبِيَّةُ أَنْ تَقِفَ وَحْدَهَا فِي مُعْتَرَكِ الحَيَاةِ، فَلَا تَزَالُ تَتَطَلَّعُ إِلَىٰ التَّجْدِيدِ، حَتَّىٰ تُصْبِحَ فِي مَبْدَئِهَا وَنِهَايَتِهَا لُغَتَيْنِ أَوْ لُغَاتٍ مُتَبَايِنَةً، أَوْ تَمْشِي إِلَىٰ المَوْتِ، وَتَدُبُّ إِلَىٰ الفَنَاءِ حَتَّىٰ تُصْبِحَ فِي ذِمَّةِ التَّارِيخِ»[٢].

إِنَّمَا نَهْتَمُّ بِالعَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ؛ لِأَنَّ عَامَّةَ الخَطَأِ فِي الدِّينِ يَأْتِي مِنْ سُوءِ الفَهْمِ لِأَلْفَاظِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إِذْ إِنَّ الدِّينَ هُوَ التَّسْلِيمُ لِلْكِتَابِ عَلَىٰ مُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلِلسُّنَّةِ عَلَىٰ مُرَادِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَكِنْ يَأْتِي آتٍ فَيَأْخُذُ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ

(١) «التطور اللغوي» لرمضان عبد التواب (ص١٤).

(٢) «ملامح من تاريخ اللغة العربية» (ص٦٨).

عَلَىٰ مُرَادِ نَفْسِهِ وَمُقْتَضَىٰ فَهْمِهِ؛ فَيَكُونُ فِي ظَاهِرِ الأَمْرِ آخِذًا بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مُتَشَبِّثًا بِالنَّصِّ، وَهُوَ فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ مُجَافٍ لِلْكِتَابِ، مُجَانِبٌ لِلسُّنَّةِ، مُوغِلٌ فِي البُعْدِ عَنِ الصَّوَابِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ أَحْمَدُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَابُدَّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مُرَادِ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الأَلْفَاظِ، وَكَيْفَ يُفْهَمُ كَلَامُهُ، فَمَعْرِفَةُ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي خُوطِبْنَا بِهَا مِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ أَنْ نَفْقَهَ مُرَادَ اللهِ وَرَسُولِهِ بِكَلَامِهِ، وَكَذَلِكَ مَعْرِفَةُ دَلَالَةِ الأَلْفَاظِ عَلَىٰ الْمَعَانِي؛ فَإِنَّ عَامَّةَ ضَلَالِ أَهْلِ الْبِدَعِ كَانَ بِهَذَا السَّبَبِ؛ فَإِنَّهُمْ صَارُوا يَحْمِلُونَ كَلَامَ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَىٰ مَا يَدَّعُونَ أَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهِ، وَلَا يَكُونُ الأَمْرُ كَذَلِكَ»[(١)].

وَكُلَّمَا كَانَتْ مَعْرِفَةُ الْمُسْلِمِ بِأَلْفَاظِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَامَّةً، كَانَ فَهْمُهُ لِمُرَادِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَامًّا، وَإِلَّا كَانَ فِيهِ مِنَ الزَّيغِ عَنِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِقَدْرِ مَا صَرَفَ أَلْفَاظَهُمَا إِلَيْهِ مِنْ عَادَتِهِ وَاصْطِلَاحِهِ.

«وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لُغَةَ الصَّحَابَةِ الَّتِي كَانُوا يَتَخَاطَبُونَ بِهَا، وَيُخَاطِبُهُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَعَادَتَهُمْ فِي الْكَلَامِ، وَإِلَّا حَرَّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَنْشَأُ عَلَىٰ اصْطِلَاحِ قَوْمِهِ وَعَادَتِهِمْ فِي الأَلْفَاظِ، ثُمَّ يَجِدُ تِلْكَ الأَلْفَاظَ فِي كَلَامِ اللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوِ الصَّحَابَةِ، فَيَظُنُّ أَنَّ مُرَادَ اللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوِ الصَّحَابَةِ بِتِلْكَ الأَلْفَاظِ مَا يُرِيدُهُ بِذَلِكَ أَهْلُ عَادَتِهِ وَاصْطِلَاحِهِ، وَيَكُونُ مُرَادُ اللهِ وَرَسُولِهِ

(١) «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١١١).

وَالصَّحَابَةِ خِلَافَ ذَلِكَ»[١].

«إِنَّ اللُّغَةَ هِيَ الَّتِي تَبْعَثُ قُوَىٰ الخَوَاطِرِ وَالأَفْكَارِ، وَبِمِقْدَارِ تَمَكُّنِكَ مِنَ اللُّغَةِ تَكُونُ قُوَّةُ خَوَاطِرِكَ وَقُوَّةُ أَفْكَارِكَ، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ قُوَّةَ الفِكْرِ وَضَعْفَهُ: فِي اللُّغَةِ.

وَبِمِقْدَارِ تَمَكُّنِ الأُمَّةِ مِنْ لُغَتِهَا تَكُونُ قُوَّةُ خَوَاطِرِهَا وَأَفْكَارِهَا، وَبِمِقْدَارِ ضَعْفِ الأُمَّةِ وَتَهَافُتِهَا فِي لُغَتِهَا يَكُونُ ضَعْفُ خَوَاطِرِهَا وَتَهَافُتُ أَفْكَارِهَا.

النَّشَاطُ الفِكْرِيُّ فِي الأُمَّةِ هُوَ ابْنُ اللُّغَةِ، وَهُوَ مِنَ اللُّغَةِ، يَقْوَىٰ بِقُوَّتِهَا وَيَضْعُفُ بِضَعْفِهَا، وَاللُّغَةُ هِيَ الَّتِي تَضْمَنُ بَقَاءَ الإِدْرَاكِ الإِنْسَانِيِّ الحَيِّ، وَلَوْلَاهَا لَكَانَ الإِنْسَانُ فِي مَرْتَبَةِ الجَمَادِ، وَهَذَا أَقْوَىٰ مِنْ أَنْ نَقُولَ: اللُّغَةُ هِيَ الفِكْرُ؛ لِأَنَّهُ يَعْنِي أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الإِنْسَانُ، وَأَنَّ إِنْسَانِيَّةَ الإِنْسَانِ تَحْيَا بِحَيَاةِ اللُّغَةِ، وَتَمُوتُ بِمَوْتِهَا.

وَاللُّغَةُ هِيَ مَدْخَلُ تَغْيِيرِ الإِنْسَانِ، يَعْنِي: هِيَ بَوَّابَةُ هَذَا الإِنْسَانِ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ بِهَذَا الإِنْسَانِ، وَإِذَا كَانَتِ النَّهْضَةُ لَا تَقُومُ إِلَّا بِارْتِقَاءِ العِلْمِ وَالعَقْلِ وَالثَّقَافَةِ، فَمِنْ بَاطِلِ الأَبَاطِيلِ أَنْ تَدْخُلَهَا مِنْ غَيْرِ بَوَّابَةِ اللُّغَةِ.

وَالإِحْيَاءُ اللُّغَوِيُّ؛ بِمَعْنَىٰ حَيَاةِ اللُّغَةِ فِي نُفُوسِ بَنِيهَا: هُوَ مَشْرُوعُ النَّهْضَةِ، وَيُمْكِنُ لِلُّغَوِيِّينَ الَّذِينَ يَشْغَلُهُمْ هَمُّ النُّهُوضِ بِبِلَادِهِمْ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ مَشْرُوعَ

(١) «مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام» (١/ ٢٤٣).

النَّهْضَةِ يَبْدَأُ مِنَ اللُّغَةِ، وَأَنْ يُقَدِّمُوا الأَفْكَارَ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ الإِحْيَاءُ اللُّغَوِيُّ وَالإِصْلَاحُ اللُّغَوِيُّ»[1].

قَالَ الرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَزَلَ القُرْآنُ الكَرِيمُ بِهَذِهِ اللُّغَةِ عَلَىٰ نَمَطٍ يُعْجِزُ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ مَعًا، فَكَانَ أَشْبَهَ شَيءٍ بِالنُّورِ فِي جُمْلَةِ نَسَقِهِ، إِذِ النُّورُ جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِنَّمَا يَتَجَزَّأُ بِاعْتِبَارٍ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ، وَهُوَ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ، وَفِي أَجْزَائِهِ جُمْلَةً، لَا يُعَارَضُ بِشَيءٍ إِلَّا إِذَا خُلِقَتْ سَمَاءٌ غَيْرَ السَّمَاءِ، وَبُدِّلَتِ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ.

وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ صَفَّىٰ اللُّغَةَ مِنْ أَكْدَارِهَا، وَأَجْرَاهَا فِي ظَاهِرِهَا عَلَىٰ بَوَاطِنِ أَسْرَارِهِ، فَجَاءَ بِهَا فِي مَاءِ الجَمَالِ أَمْلَأَ مِنَ السَّحَابِ، وَفِي طَرَاءَةِ الحُسْنِ أَجْمَلَ مِنَ الشَّبَابِ.

ثُمَّ هُوَ بِمَا تَنَاوَلَ بِهَا مِنَ المَعَانِي الدَّقِيقَةِ الَّتِي أَبْرَزَهَا فِي جَلَالِ الإِعْجَازِ، وَمَا رَكَّبَهَا بِهِ مِنَ المُطَاوَعَةِ فِي تَقَلُّبِ الأَسَالِيبِ، وَتَحَوُّلِ التَّرَاكِيبِ إِلَىٰ التَّرَاكِيبِ، قَدْ أَظْهَرَهَا مَظْهَرًا لَا يُقْضَىٰ العَجَبُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ جَلَّاهَا عَلَىٰ التَّارِيخِ كُلِّهِ لَا عَلَىٰ جِيلِ العَرَبِ بِخَاصَّتِهِ، وَلِهَذَا بُهِتُوا لَهَا حَتَّىٰ لَمْ يَتَبَيَّنُوا أَكَانُوا يَسْمَعُونَ بِهَا صَوْتَ الحَاضِرِ، أَمْ صَوْتَ المُسْتَقْبَلِ، أَمْ صَوْتَ الخُلُودِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ لُغَتُهُمُ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا وَلَكِنْ فِي جَزَالَةٍ لَمْ يُمْضَغْ لَهَا شِيحٌ وَلَا قَيْصُومٌ،

(١) «مدخل إلىٰ كتابَيْ عبد القاهر الجرجاني» (ص٥٣).

وَرِقَّةٍ غَيْرِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِ الحَاضِرَةِ»[(١)].

«وَمِنَ المَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ القُرْآنَ قَدْ جَمَعَ أُولَئِكَ العَرَبَ عَلَىٰ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ، بِمَا اسْتَجْمَعَ فِيهَا مِنْ مَحَاسِنِ هَذِهِ الفِطْرَةِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْ أَهْلَ كُلِّ لِسَانٍ يَأْخُذُونَ بِهَا، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ عَنْهَا مَرْغَبًا، إِذْ يَرَوْنَهَا كَمَالًا لِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ أُصُولِ تِلْكَ الفِطْرَةِ البَيَانِيَّةِ، مِمَّا وَقَفُوا عَلَىٰ حَدِّ الرَّغْبَةِ فِيهِ مِنْ مَذَاهِبِهَا دُونَ أَنْ يَقِفُوا عَلَىٰ سَبِيلِ القُدْرَةِ عَلَيْهِ»[(٢)].

وَقَدْ بَيَّنَ الرَّافِعِيُّ أَنَّ القُرْآنَ حَفِظَ العَرَبِيَّةَ مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ حِينَمَا خَالَطَ العَرَبُ غَيْرَهُمْ مِنَ الأَجْنَاسِ، وَمَكَّنَهَا مِنَ الصُّمُودِ أَمَامَ الدَّخِيلِ مِنْ لُغَاتِ الأَعَاجِمِ، فَقَالَ: «فَقَدْ وَضَحَ لَكَ أَنَّهُ لَوْلَا القُرْآنُ وَأَسْرَارُهُ البَيَانِيَّةُ مَا اجْتَمَعَ العَرَبُ عَلَىٰ لُغَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَجْتَمِعُوا لَتَبَدَّلَتْ لُغَاتُهُمْ بِالاخْتِلَاطِ الَّذِي وَقَعَ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ، حَتَّىٰ تَنْتَقِضَ الفِطْرَةُ، وَتَخْتَبِلَ الطِّبَاعُ.

ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُ هَذِهِ اللُّغَاتِ إِلَىٰ العَفَاءِ لَا مَحَالَةَ، إِذْ لَا يَخْلُفُهُمْ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمُ اخْتِلَاطًا وَأَكْثَرُ فَسَادًا، وَهَكَذَا يَتَسَلْسَلُ الأَمْرُ حَتَّىٰ تَسْتَبْهِمَ العَرَبِيَّةُ فَلَا تَبِينُ -وَهِيَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ- إِلَّا بِضَرْبٍ مِنْ إِشَارَةِ الآثَارِ.

وَذَلِكَ مَعْنًىٰ مِنْ أَبْيَنِ مَعَانِي الإِعْجَازِ، إِذْ لَا تَجِدُهُ اتَّفَقَ فِي لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ

---

(١) «تاريخ آداب العرب» للرافعي (٢/ ٧٤).

(٢) «تاريخ آداب العرب» (٢/ ٧٨).

الأَرْضِ غَيْر العَرَبِيَّةِ، وَهُوَ لَمْ يَتَّفِقْ لَهَا إِلَّا بِالقُرْآنِ»[١].

فَهَذَا الَّذِي أَمْسَكَهُ القُرْآنُ الكَرِيمُ مِنَ العَرَبِيَّةِ لَمْ يَتَهَيَّأْ فِي لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ الأَرْضِ، وَلَنْ تَتَلَاحَقَ أَسْبَابُهُ فِي لُغَةٍ بَعْدَ العَرَبِيَّةِ.

«وَبَقَاءُ القُرْآنِ عَلَىٰ وَجْهِهِ العَرَبِيِّ، مِمَّا يَجْعَلُ المُسْلِمِينَ جَمِيعًا عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ، مِنَ الأَسْوَدِ، إِلَىٰ الأَحْمَرِ؛ كَأَنَّهُمْ فِي الاعْتِبَارِ الاجْتِمَاعِيِّ، وَفِي اعْتِبَارِ أَنْفُسِهِمْ جِسْمٌ وَاحِدٌ يَنْطِقُ فِي لُغَةِ التَّارِيخِ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ.

فَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ كُلُّ مَذْهَبٍ مِنْ مَذَاهِبِ الجِنْسِيَّةِ الوَطَنِيَّةِ فِيهِمْ قَدْ زَالَ عَنْ حَيِّزِهِ، وَانْتَفَىٰ مِنْ صِفَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ؛ لِأَنَّ الجِنْسِيَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي تُقَدَّرُ بِهَا فُرُوضُ الاجْتِمَاعِ وَنَوَافِلُهُ، إِنَّمَا هِيَ فِي الحَقِيقَةِ لَوْنُ القَلْبِ لَا سَحْنَةُ الوَجْهِ.

وَقَدْ وَرِثَ المُسْلِمُونَ عَنْ أَوَّلِيَّتِهِمْ هَذَا المَعْنَىٰ: فَلَا يُعْلَمُ فِي الأَرْضِ قَوْمٌ غَيْرُهُمْ يَعْتَصِمُونَ بِحَبْلِ دِينِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ فِي الأَغْلَالِ، وَيَجْنَحُونَ إِلَيْهِ بِأَعْنَاقِهِمْ وَهِيَ فِي رِبْقِ المُلُوكِ مِنَ الإِذْلَالِ، وَيَخُصُّونَهُ بِقُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ يَكُونَ أَمْلَكَ بِهَا وَأَغْلَبَ عَلَيْهَا، وَلَا يَحْتَمِلُونَ فِيهِ سَخْطَةً، وَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَيْهِ رِضًا، وَلَا يَعْدِلُونَ بِهِ عِدْلًا، وَيَتَبَرَّمُونَ بِكُلِّ ضِيقٍ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَجْلِهِ، وَيَرْضَوْنَ المِحْنَةَ فِي كُلِّ شَيءٍ إِلَّا فِيهِ، ثُمَّ هُمْ لَا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمُ المُؤْمِنَةَ فِي إِحْسَاسِ الفِطْرَةِ، إِلَّا أَنَّهَا بَقِيَّةٌ سَمَاوِيَّةٌ فِي الأَرْضِ تُبَايِنُ كُلَّ مَا فِيهَا -أَيِ: الأَرْض-، وَيُشْبِهُ بَعْضُهَا بَعْضًا بِالصِّفَةِ وَالخَاصَّةِ أَنَّىٰ وُجِدَتْ، وَكَيْفَ اتَّفَقَتْ، وَعَلَىٰ أَيِّ حَالَةٍ كَانَتْ.

---

(١) «تاريخ آداب العرب» (٢/ ٨٠).

وَهَذَا كُلُّهُ مُشَاهَدٌ فِيهِمْ عَلَىٰ أَتَمِّهِ وَأَبْلَغِهِ، بَعْدَ كُلِّ مَا رَهَقَهُمْ بِالعَجْزِ عَنْ مُدَاوَلَةِ الأَيَّامِ، وَصَدَمَهُمْ مِنْ أَهْلِ الاسْتِبْدَادِ بِكُلِّ مِحْنَةٍ مِنَ الآلَامِ»[1].

وَفِي بَيَانِ تَأْثِيرِ القُرْآنِ فِي اللُّغَةِ، يَقُولُ الرَّافِعِيُّ: «وَيَبْقَىٰ وَجْهٌ آخَرُ مِنْ تَأْثِيرِ القُرْآنِ فِي اللُّغَةِ، وَهُوَ إِقَامَةُ أَدَائِهَا عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي نَطَقُوا بِهِ، وَتَيْسِيرُ ذَلِكَ لِأَهْلِهَا فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَإِنْ ضَعُفَتِ الأُصُولُ، وَاضْطَرَبَتِ الفُرُوعُ، بِحَيْثُ لَوْلَا هَذَا الكِتَابُ الكَرِيمُ لَمَا وُجِدَ عَلَىٰ الأَرْضِ أَسْوَدُ وَلَا أَحْمَرُ يَعْرِفُ اليَوْمَ، وَلَا قَبْلَ اليَوْمِ، كَيْفَ كَانَتْ تَنْطِقُ العَرَبُ بِأَلْسِنَتِهَا، وَكَيْفَ تُقِيمُ أَحْرُفَهَا، وَتُحَقِّقُ مَخَارِجَهَا.

وَهَذَا أَمْرٌ يَكُونُ فِي ذَهَابِهِ ذَهَابُ البَيَانِ العَرَبِيِّ جُمْلَتِهِ أَوْ عَامَّتِهِ؛ لِأَنَّ مَبْنَاهُ عَلَىٰ أَجْرَاسِ الحُرُوفِ وَاتِّسَاقِهَا، وَمَدَارُهُ عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي تُؤَدَّىٰ بِهِ الأَلْفَاظُ، وَأَنْتَ قَدْ تَرَىٰ الضُّعَفَاءَ الَّذِينَ لَا يُحْكِمُونَ مَنْطِقَهُمْ وَمَا يَصْنَعُونَ بِالأَسَالِيبِ المُدْمَجَةِ، وَالفِقَرِ المُتَوَثِّقَةِ، إِذَا هُمْ تَعَاطَوْهَا فَنَطَقُوا بِهَا؛ حَتَّىٰ لَيَصِير مَعَهُمْ أَجْوَدُ الكَلَامِ فِي جَزَالَتِهِ وَقُوَّةِ أَسْرِهِ، وَصَلَابَةِ مُعْجَمِهِ، إِلَىٰ الفُسُولَةِ وَالضَّعْفِ، وَإِلَىٰ البَرْدِ وَالغَثَاثَةِ، كَأَنَّمَا يَمُوتُ فِي أَلْسِنَتِهِمْ مَوْتًا لَا رَحْمَةَ فِيهِ...

لَا جَرَمَ أَنَّ اللُّغَةَ الَّتِي يَذْهَبُ مِنْهَا ذَلِكَ لَا يُنْطَقُ بِهَا إِلَّا عَلَىٰ الحِكَايَةِ السَّقِيمَةِ، وَلَا جَرَمَ أَنَّ بَعْضَ السَّقَمِ يَدْفَعُ إِلَىٰ بَعْضِهِ، وَأَنَّ جُمْلَةَ ذَلِكَ تُفْضِي

(١) «تاريخ آداب العرب» (٢/ ٨٨).

إِلَىٰ المَوْتِ»[١].

وَتَحَدَّثَ الرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ضَيَاعِ الآدَابِ القُرْآنِيَّةِ مِنَ المُجْتَمَعَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ بِضَيَاعِ اللُّغَةِ فَهْمًا، وَإِدْرَاكًا، وَتَذَوُّقًا، فَقَالَ:

«وَمَا فَرَّطَ المُسْلِمُونَ فِي آدَابِ هَذَا القُرْآنِ الكَرِيمِ إِلَّا مُنْذُ فَرَّطُوا فِي لُغَتِهِ، فَأَصْبَحُوا لَا يَفْقَهُونَ كَلِمَهُ، وَلَا يُدْرِكُونَ حُكْمَهُ، وَلَا يَنْتَزِعُونَ أَخْلَاقَهُ وَشِيَمَهُ، وَصَارُوا إِلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَرَبِيَّةٍ كَانَتْ شَرًّا مِنَ العُجْمَةِ الخَالِصَةِ، وَاللُّكْنَةِ المَمْزُوجَةِ، فَلَا يَقْرَءُونَ مِنْ هَذَا الكِتَابِ إِلَّا أَحْرُفًا، وَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا أَصْوَاتًا، وَتَرَاهُمْ يَرْعَوْنَهُ آذَانَهُمْ، وَلَا يُحضِرُونَهُ أَذْهَانَهُمْ، وَهُمْ بَعْدُ لَا يَتَنَاوَلُونَ مَعَانِيَ كَلَامِ اللهِ إِلَّا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»[٢].

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لَكِنَّ العَرَبَ الَّذِينَ نَزَلَ القُرْآنُ فِي زَمَنِهِمْ، وَكَانُوا مِنَ الفَصَاحَةِ حَيْثُ ذَكَرْتَ، وَمِنَ الفَهْمِ لِلُغَةِ الكِتَابِ حَيْثُ ادَّعَيْتَ، لَمْ يُسْلِمُوا!! فَبِمَاذَا نَفَعَهُمْ فَهْمُهُمْ؟ وَبِمَاذَا أَفَادَتْهُمْ فَصَاحَتُهُمْ؟

أَمَّا نَحْنُ فَلَا نَفْهَمُ فِي كِتَابِ اللهِ شَيْئًا!! وَلَكِنَّا -وَالحَمْدُ للهِ- مُسْلِمُونَ؛ نُصَلِّي، وَنَحُجُّ البَيْتَ، وَنَصُومُ!!

وَالجَوَابُ: إِنَّ تَرَدِّي مَنْ لَمْ يُسْلِمْ مِنَ العَرَبِ الَّذِينَ نَزَلَ القُرْآنُ فِي زَمَانِهِمْ فِي هُوَّةِ الكُفْرِ، كَانَتْ لَهُ أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا: العِنَادُ، وَمِنْهَا: الكِبْرُ،

(١) «تاريخ آداب العرب» (٢/ ٨٠).
(٢) «تاريخ آداب العرب» (٢/ ١٧٤).

وَمِنْهَا: الحَسَدُ، وَأَمَّا القُرْآنُ فَكَانُوا فِي إِشْفَاقٍ مِنْهُ أَبَدًا، وَيَمْنَعُهُمُ الكِبْرُ أَنْ يُسَلِّمُوا لَهُ؛ لِنُزُولِهِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ ذَا مَالٍ، وَلَا طَالِبَ جَاهٍ، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

كَمَا كَانُوا يَتَوَاصونَ بِعَدَمِ سَمَاعِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وَهَكَذَا تَرَىٰ الحَسَدَ وَالكِبْرَ دَافِعَينِ مِنْ دَوَافِعِ الكُفْرِ وَعَدَمِ التَّسْلِيمِ.

ثُمَّ، مَا تَقُولُ فِي الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أُولَئِكَ العَرَبِ، فَأَصْبَحُوا مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ كَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرِ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَسَعْدٍ، وَسَعِيدٍ، وَأَضْرَابِهِمْ؟

هَلْ رَأَيْتَهُمْ مَرَّةً يَتَمَدَّحُونَ بِعَدَمِ فَهْمِهِمْ لِكِتَابِ اللهِ ﷻ، أَوْ يَتَفَاخَرُونَ بِجَهْلِهِمْ بِهِ، وَقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِم مَقَاصِدَهُ وَمَرَامِيَهُ؟!

«ثُمَّ لِيُخبِرنَا هَذَا القَائِلُ: أَيُّ الأَئِمَّةِ كَانَ خَالِيًا مِنْ هَذَا العِلْمِ؟

أَعَبْدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ الَّذِي كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ غَرِيبِ القُرْآنِ وَمُشْكِلَاتِهِ، أَنْشَدَ أَشْعَارَ العَرَبِ؟

أَمْ مَالِكٌ الأَصْبَحِيُّ؛ الَّذِي كَانَ عَالِمَ المَدِينَةِ، وَضُرِبَتْ إِلَيهِ أَكبَادُ الإِبلِ مِنَ الآفَاقِ؟

أَمْ مُحَمَّدُ بنُ إدرِيسَ الشَّافعيُّ، الَّذِي عَقَدَت فَصَاحَتُهُ عَلَىٰ الأَقطَارِ

أَلوِيَةً، وَضَرَبَتْ بَلَاغَتُهُ عَلَىٰ الآفَاقِ أَحْوِيَةً[١]، وَكَانَ يُعْجِبُ مَالِكًا قِرَاءَتُهُ لِفَصَاحَتِهِ؟

أَمِ الإِمَامُ أَحمَدُ بنُ حَنْبَلٍ؛ الَّذِي مَكَثَ مُدَّةَ أَيَّامِ المِحْنَةِ يُضْرَبُ بِالسِّيَاطِ، ويُفْرَطُ فِي أَذَاهُ غَايَةَ الإِفْرَاطِ، فِي مَوَاطِنَ تَنْقَلِبُ فِيهَا الأُسُودُ، وَتَشِيبُ فِيهَا الذَّوَائِبُ السُّودُ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ لَحْنٌ فِي مُنَاظَرَتِهِ، وَلَا تَمْتَمَةٌ فِي فَصَاحَتِهِ؟

أَمْ أَئِمَّةُ الكُوفَةِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالقُرَّاء، كَالكسَائيِّ وَالفرَّاءِ؟

أَمْ أَئِمَّةُ البَصْرَةِ الفَيحَاءِ، كَالخَلِيلِ بنِ أحمَدَ وَأَبِي عَمرِو بنِ العَلَاءِ؟

هَؤلَاءِ مِنَ الأَئِمَّةِ المُتَقَدِّمِينَ، وَالسَّلَفِ المَاضِينَ.

فَأَمَّا مِنَ المُتَأَخِّرِينَ عَنْ زَمَانِهِم، وَالمُصَلِّينَ عَنْ أَوَانِهِم، فَهُم عَلَىٰ اختِلَافِ المَلَوَيْنِ[٢]، وَتَعَاقُبِ الجَدِيدَينِ[٣]، لَا تَعْدَمُهُم الأَزْمِنَةُ، وَلَا تَخْلُو مِنْهُمُ الأَمْكِنَةُ، فَكُتُبُهم كُلُّهَا بَرَاعَةٌ وَفَصَاحَةٌ، وَمُنَاظَرَاتُهُم وَأَبْحَاثُهُم بَلَاغَةٌ وَرَجَاحَةٌ، أَفتَرَىٰ كَانَ أَحَدٌ مِنْهُم أَلْكَنَ عَيِيًّا، أَمْ كَانَ مِنَ العَرَبِيَّةِ عَاطِلًا خَلِيًّا؟

---

(١) **أحوية**: جمعُ حِواءٍ، وهو المكانُ الذي يحوي الشيءَ، وبيوتُ الناسِ من الوَبَرِ مجتمعةً علىٰ ماءٍ.

(٢) **المَلَوَانِ**: الليل والنهار، أو طرفا النهارِ، يقال: لا أفعله ما اختلف الملوانِ.

(٣) **الجديدان**: مثلُ الملوين؛ أي: الليلُ والنهارُ.

وَلَو أَخَذْنَا فِي تَعْدَادِ أَهْلِ الأَدَبِ مِنَ النَّاسِ لَنَفِدَ المِدَادُ وَالقِرْطَاسُ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَؤلَاءِ القَومَ مَعَ أَنَّ الغَالِبَ عَلَيهِم عُلومُ الشَّرِيعَةِ، وَاشتِهَارُهُم بِهَا، رَدًّا عَلَىٰ هَذَا القَائِلِ؛ لأَنَّهُ ادَّعَىٰ أَنَّ بَعْضَ عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ كَانَ خِلْوًا مِنْ هَذَا العِلْمِ»[1].

وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَتَحَوَّلَ الإِسْلَامُ إِلَىٰ طُقُوسٍ، وَشَعَائِرَ تُمَارَسُ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَنْهَجِهِ، وَعِلْمٍ بِمَقَاصِدِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَهُمَا مَا يَتَمَادَحُ المُتَمَادِحُونَ بِالجَهْلِ بِهِمَا وَالإِعْرَاضِ عَنْهُمَا؟!

لَقَدِ اسْتَطَاعَ أَعْدَاءُ الإِسْلَامِ أَنْ يُفَرِّغُوا أَجْيَالًا مِنْ مَضْمُونِهَا، وَأَنْ يَقْطَعُوا صِلَتَهَا بِتُرَاثِهَا.

«وَالجِيلُ الَّذِي يُعَدُّ لِلْغَدِ المُبْهَمِ المَمْلُوءِ بِالمَخَاطِرِ التِي غَرَسَهَا اليَهُودُ لَهُ فِي كُلِّ شَقٍّ، وَتَحْتَ مَوْضِعِ كُلِّ قَدَمٍ، فِي أَشَدِّ الحَاجَةِ إِلَىٰ أَنْ يَفْتَحَ صَفْحَاتِ المَعْرِفَةِ التِي تَدُلُّهُ عَلَىٰ طَرَائِقِ بِنَاءِ المَعْرِفَةِ، وَكَيفَ استَنْبَتَ العُلَمَاءُ عُلُومَهُم، وَكَيفَ استَخْرَجُوا مِنَ النَّوَاةِ المَطْرُوحَةِ نَخْلَةً سَامِقَةً، وَكَيفَ عَرَفُوا البُذُورَ الَّتِي تَطْوِي فِي ضَآلَتِهَا الشَّجَرَ الطَّيِّبَ.

لَابُدَّ أَنْ يَخْرُجَ عَقْلُ هَذَا الجِيلِ مِنَ السِّرْدَابِ الضَّيقِ العَفِنِ الَّذِي وَضَعَهُ فِيهِ رِجَالٌ لَمْ يَتَّقُوا اللهَ فِيهِ، حِينَ أَقْنَعُوهُ بِأَنَّ تَطَوُّرَهُ، وَتَقَدُّمَهُ، وَنُهُوضَهُ، وَتَنْوِيرَهُ، وَتَجدِيدَهُ، كُلُّ ذَلِكَ مَوقُوفٌ عَلَىٰ أَخْذِهِ عَنِ الآخَرِينَ، وَاصطِنَاعِهِ

(١) «الصعقة الغضبيةُ في الردِّ علىٰ منكري العربية» لنجم الدين الطوفي (ص٢٧٢).

عُلُومَهُم، وَمَنَاهِجَهُم، وَصَرَفُوهُ عَنِ استِنْبَاطِ المَعْرِفَةِ، وَأقنَعُوهُ بِأَنَّ عُلُومَهُ عُلُومٌ قَدِيمَةٌ، ومُفرَّغَةٌ، وَلَيس فِيهَا عَطَاءٌ.

لَقَدْ دَخَلَتْ تِلْكَ الأَجْيَالُ ذَلِكَ السِّرْدَابَ الخَانِقَ وَهِيَ مُغْتَبطَةٌ بِهِ، مُعْتَقِدَةٌ أَنَّهَا حِينَ تَنْقُلُ عُلُومَ الآخَرِينَ وَمَا تَيَسَّرَ لَهَا مِنْهَا، فَقَدْ تَطَوَّرتْ، وَتَنَوَّرَتْ، وَعَاشَتْ زَمَانَهَا، وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ ما عَاشَتْ إِلَّا الزَّمَانَ الذِي صَنَعَهُ غَيرُهَا.

وَهَكَذَا بَقِيَ العَقْلُ العَرَبِيُّ المُسْلِمُ مَكْفُوفًا عَنِ الجِدِّ، وَالكَدْحِ، وَالقَدْحِ، وَمَا عَلَيهِ إِلَّا أَنْ يَنْتَظِرَ رِيثَمَا يَفْرُغُ الآخَرُونَ مِنْ تَحرِيرِ أفكَارِهِم وَنَظَرِيَّاتِهِم، ثُمَّ يَقبِسُ مِنْ ذَلِكَ مَا يُطِيقُ قَبْسَهُ، وَيُسَمِّي هَذَا المُقتَبَسَ إِبْدَاعًا!»[١].

لَقَدْ غُيِّبَتْ عُلُومُنَا تَغْيِيبًا كَامِلًا فِي تَرْبِيَةِ الأَجْيَالِ وَإِعْدَادِ الرِّجَالِ، فَلَمْ يَتَحَمَّسْ أَحَدٌ لَهَا، وَأَغْفَلُوا مَا جَهِلُوا، وَتَغْيِيبُ عُلُومِنَا فِي تَرْبِيَةِ أَجْيَالِنَا لَمْ يَحْدُثْ فِي تَارِيخِ الأَمَمِ كُلِّهَا، وَقَدْ حَدَثَ عِنْدَنَا بِصُورَةٍ بَشِعَةٍ، حَتَّىٰ إِنَّكَ لَتَرَىٰ الرَّجُلَ مِنَّا يَطَّلِعُ عَلَىٰ عُلُومِ الأُمَمِ كُلِّهَا، إِلَّا عُلُومَ أُمَّتِهِ، وَكَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَهَا دُونَ الأُمَمِ بِلَا تُرَاثٍ، وَأَنْشَأَهَا بِعَقْلٍ مَمْسُوحٍ!!

لَقَدْ وَقَعَتِ القَطِيعَةُ العِلْمِيَّةُ بَينَ أَبنَاءِ الأُمَّةِ وَتُرَاثِهَا، وَالأُمَمُ كُلُّهَا عَلَىٰ غَيرِ هَذَا، وَالعَقْلُ الأُورُبِّيُّ، وَالفِكْرُ الغَرْبِيُّ مِنْ أَشَدِّ خَلْقِ اللهِ تَشَبُّثًا بِالقَدِيمِ فِي كُلِّ صُوَرِهِ؛ مِنْ عَادَاتٍ، وَأَفكَارٍ، وَعَقَائِدَ، وَدِيَانَاتٍ، وَفَلْسَفَاتٍ.

---

(١) انظر: «الإعجاز البلاغي» (ص١٢).

وَالمَذْهَبُ الخَطِرُ عَلَىٰ التُّرَاثِ الإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ، وَالقَائِلُ بِضَرُورَةِ التَّفْكِيرِ الحَدِيثِ وَالمُنْبَتِّ عَنْ كُلِّ قَدِيمٍ فِي كُلِّ شَأنٍ مِنْ شُئونِ الأَحْيَاءِ، يُحَاوِلُ أنْ يَجِدَ لَهُ أصُولًا فِي الفِكْرِ اليُونَانِيِّ؛ يَعنِي: يَرْتَكِزُ عَلَىٰ القَدِيمِ؛ لأنَّ دُعَاتَهُ مِنْ أبنَاءِ مَدَنِيَّةٍ لَهَا تَشَبُّثٌ بِالقَدِيمِ لَا تَقْبَلُ المُسَاوَمَةَ فِي شَأنِهِ[1].

❀ ❀ ❀

(١) انظر: «التصوير البياني» (ص١٦).

سَبِيلُ العِلْمِ الحَقِّ

العِلْمُ الشَّرْعِيُّ الحَقُّ دِينٌ يُعْبَدُ اللهُ ﷻ بِهِ، وَقُرْبَةٌ مِنْ أَجَلِّ القُرُبَاتِ لَهُ، وَقَدْ أَخْبَرَ العُلَمَاءُ أَنَّ هَذَا العِلْمَ دِينٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ الآخِذُ عَمَّنْ يَأْخُذُ دِينَهُ، وَإِلَّا كَانَ حَاطِبَ لَيْلٍ رُبَّمَا احْتَمَلَ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ تُكِنُّ ثُعْبَانًا يَحْمِلُ فِي سَمِّهِ هَلَاكَ حَامِلِهِ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «مُقَدِّمَة صَحِيحِه» بِسَنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِين رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا العِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ»[(١)].

وَقَدْ بَيَّنَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ سَبِيلَ العِلْمِ الصَّحِيحِ فِي كَلِمَةٍ جَامِعَةٍ، فَقَالَ: «العِلْمُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ نَقْلٍ مُصَدَّقٍ، وَنَظَرٍ مُحَقَّقٍ»[(٢)].

وَوَضَّحَ ذَلِكَ تَوْضِيحًا كَافِيًا، فَقَالَ: «المَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ وَالعُلَمَاءِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْرِفَةٍ بِثُبُوتِ لَفْظِهِ، وَمَعْرِفَةِ دَلَالَتِهِ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ ذَلِكَ المَنْقُولُ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ»[(٣)].

---

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم» (١/ ٨٤).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٢٤٦).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٢٤٦).

فَمَعْرِفَةُ دَلَالَةِ المَنْقُولِ الثَّابِتِ مَطْلُوبَةٌ، وَإِلَّا عُطِّلَ النَّصُّ عَنْ مَدْلُولِهِ، أَوْ فُهِمَ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِهِ، وَعُمِلَ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ غَيْرِ دَلَالَتِهِ.

«وَاللهُ ﷻ أَنْزَلَ القُرْآنَ عَرَبِيًّا لَا عُجْمَةَ فِيهِ، بِمَعْنَىٰ: أَنَّهُ جَارٍ فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَسَالِيبِهِ عَلَىٰ لِسَانِ العَرَبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر:٢٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وَكَانَ المُنْزَلُ عَلَيْهِ القُرْآنُ عَرَبِيًّا أَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ عَرَبًا أَيْضًا، فَجَرَىٰ الخِطَابُ بِهِ عَلَىٰ مُعْتَادِهِمْ فِي لِسَانِهِمْ؛ فَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الأَلْفَاظِ وَالمَعَانِي إِلَّا وَهُوَ جَارٍ عَلَىٰ مَا اعْتَادُوهُ، وَلَمْ يُدَاخِلْهُ غَيْرُهُ، بَلْ نَفَىٰ عَنْهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ أَعْجَمِيٌّ.

فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾ [فصلت:٤٤].

هَذَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ بُعِثَ لِلنَّاسِ كَافَّةً، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَامَّةَ

الأَلْسِنَةِ فِي هَذَا الأَمْرِ تَبَعًا لِلِسَانِ العَرَبِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَلَا يُفْهَمُ كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَّا مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ اعْتِبَارُ أَلْفَاظِهَا، وَمَعَانِيهَا، وَأَسَالِيبِهَا»(١).

فَمَعْرِفَةُ دَلَالَةِ المَنْقُولِ الثَّابِتِ مِنْ سَبِيلِ العِلْمِ الحَقِّ، وَلَا تُعْرَفُ تِلْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ، وَنُصُوصُ المَنْقُولِ الثَّابِتِ عَرَبِيَّةٌ، فَلَا تُفْهَمُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ العِلْمِ بِتِلْكَ اللُّغَةِ.

«وَالقَوْلُ فِي القُرْآنِ أَوِ السُّنَّةِ بِغَيْرِ عِلْمٍ تَكَلُّفٌ، وَقَدْ أَخْرَجَ البُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فَقَالَ: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ»(٢).

وَالقَوْلُ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ بِغَيْرِ عِلْمٍ دُخُولٌ تَحْتَ مَعْنَىٰ الحَدِيثِ، حَيْثُ قَالَ ﷺ: «**حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(٣).

لِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، رَجَعَ إِلَىٰ فَهْمِهِ الأَعْجَمِيِّ، وَعَقْلِهِ المُجَرَّدِ عَنِ التَّمَسُّكِ بِدَلِيلٍ، فَضَلَّ عَنِ الجَادَّةِ»(٤).

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٦٣)، موقوفًا علىٰ عمر ﷺ، وله حكم الرفع.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٤) انظر: «الاعتصام» للشاطبي (٣/ ٣٦٣).

وَقَدْ مَرَّ كَلَامُ شَيْخِ الإِسْلَامِ فِي هَذَا المَعْنَىٰ، وَمِنْهُ: «لَابُدَّ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مُرَادِ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الأَلْفَاظِ، وَكَيْفَ يُفْهَمُ كَلَامُهُ.

فَمَعْرِفَةُ العَرَبِيَّةِ الَّتِي خُوطِبْنَا بِهَا مِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ أَنْ نَفْقَهَ مُرَادَ اللهِ وَرَسُولِهِ بِكَلَامِهِ، وَكَذَلِكَ مَعْرِفَةُ دَلَالَةِ الأَلْفَاظِ عَلَىٰ المَعَانِي، فَإِنَّ عَامَّةَ ضَلَالِ أَهْلِ البِدَعِ كَانَ بِهَذَا السَّبَبِ، فَإِنَّهُمْ صَارُوا يَحْمِلُونَ كَلَامَ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَىٰ مَا يَدَّعُونَ أَنَّهُ دَالٌّ عَلَيْهِ، وَلَا يَكُونُ الأَمْرُ كَذَلِكَ»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «الإيمان» لابن تيمية (ص١١١).

نُهُوضُ الإِسْلَامِ بِالعَرَبِيَّةِ

ارْتَقَىٰ الإِسْلَامُ بِالعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ طَوْرِهَا الأَعْلَىٰ، وَطَلَعَ عَلَىٰ العَرَبِ مِنْ هِدَايَتِهِ بِمَعَانٍ لَمْ تَكُنْ مَعْلُومَةً لَهُمْ قَبْلُ، وَلَمْ تَفِ اللُّغَةُ يَوْمَئِذٍ بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهَا، فَعُبِّرَ عَنْ تِلْكَ المَعَانِي بِمَا ازْدَادَتْ بِهِ اللُّغَةُ نَمَاءً وَثَرَاءً.

وَقَدْ سَلَكَ القُرْآنُ المَجِيدُ، وَالحَدِيثُ الشَّرِيفُ فِي البَلَاغَةِ مَذَاهِبَ يَنْقَطِعُ دُونَهَا كُلُّ بَلِيغٍ، وَيُحْصَرُ لَدُنْهَا كُلُّ فَصِيحٍ.

وَتَكَادُ تَرْجِعُ الأَسْبَابُ الَّتِي ارْتَقَتْ بِهَا اللُّغَةُ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ إِلَىٰ ثَلَاثَةٍ؛ هِيَ:

أَوَّلًا: مَا جَاءَ بِهِ القُرْآنُ الحَكِيمُ مِنْ صُوَرِ النَّظْمِ البَدِيعِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي لِسَانِ العَرَبِ عَلَىٰ وَجْهٍ يَمْلِكُ العُقُولَ؛ فَإِنَّهُ جَرَىٰ فِي أُسْلُوبِهِ عَلَىٰ مِنْهَاجٍ يُخَالِفُ الأَسَالِيبَ المُعْتَادَةَ لِلْفُصَحَاءِ قَاطِبَةً، وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ عَمَّا تَقْتَضِيهِ اللُّغَةُ بِقَوَانِينِهَا.

وَلَقَدِ اتَّفَقَ كُبَرَاؤُهُمْ عَلَىٰ إِصَابَتِهِ فِي وَضْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ وَحَرْفٍ مَوْضِعَهُ اللَّائِقَ بِهِ، وَإِنْ تَفَاضَلَ النَّاسُ فِي الإِحْسَاسِ بِلُطْفِ بَيَانِهِ تَفَاضُلَهُمْ بِسَلَامَةِ الذَّوْقِ، وَجَوْدَةِ القَرِيحَةِ.

ثَانِيًا: مَا تَفَجَّرَ فِي أَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ يَنَابِيعِ الفَصَاحَةِ، وَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِهِ ﷺ مِنَ الرِّقَّةِ وَالمَتَانَةِ، وَالجَزَالَةِ وَالإِبَانَةِ عَنِ الغَرَضِ بِدُونِ تَكَلُّفٍ.

ثَالِثًا: مَا أَفَاضَهُ الإِسْلَامُ عَلَىٰ عُقُولِهِمْ بِوَاسِطَةِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ، مِنَ العُلُومِ السَّامِيَةِ، وَبِمَا نَتَجَ مِنْ تَعَارُفِ الشُّعُوبِ وَالقَبَائِلِ، وَتَلَاقُحِ الأَفْكَارِ، وَمُطَارَحَةِ الآرَاءِ[1].

لَقَدْ كَانَ لِلْإِسْلَامِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي النُّهُوضِ بِالعَرَبِيَّةِ، وَمِنْ مَظَاهِرِ نُهُوضِهِ بِهَا[2]:

أَوَّلًا: السُّمُوُّ بِالأَغْرَاضِ، وَتَهْذِيبُ الأَلْفَاظِ:

فَبَعْدَمَا كَانَ أَهْلُهَا عَاكِفِينَ عَلَىٰ تَصْوِيرِ حَيَاتِهِمُ السَّاذَجَةِ، وَوَصْفِ مَا يَدُورُ حَوْلَهُمْ مِنْ حُرُوبٍ وَمُنَازَعَاتٍ، وَمَا يُزَاوِلُونَ مِنْ صَيدٍ وَقَنْصٍ، وَمَا يُعَانُونَ مِنْ مَدِيحٍ وَهِجَاءٍ، وَغَزَلٍ وَتَشْبِيبٍ.

صَارُوا بِالإِسْلَامِ إِلَىٰ حَالٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ فَتَحَدَّدَتْ أَهْدَافُهُمْ، وَسَمَتْ أَلْفَاظُهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ طِبَاعُهُمْ، وَانْصَرَفُوا عَنِ الأَغْرَاضِ الجَاهِلِيَّةِ، وَالأَحْوَالِ المُسْتَهْجَنَةِ، وَتَرَكُوا الأَلْفَاظَ وَالتَّعْبِيرَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ الجَاهِلِيَّةِ وَحَيَاتِهَا، وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ المَعَانِي الشَّرِيفَةِ، وَالأُصُولِ المُنِيفَةِ.

(١) انظر: «حياة اللغة العربية» لمحمد الخضر حسين (ص١٨).

(٢) انظر: «فقه اللغة؛ مفهومه وموضوعاته وقضاياه» (ص١٢٧).

ثَانِيًا: نَقْلُ كَثِيرٍ مِنَ الأَلْفَاظِ عَنْ مَعَانِيهَا الأَصْلِيَّةِ:

فَأَصْبَحَ لِكَثِيرٍ مِنَ الأَلْفَاظِ مَعَانٍ شَرْعِيَّةٌ خَاصَّةٌ؛ كَالصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحَجِّ، وَالزَّكَاةِ، وَكَأَلْفَاظِ: المُؤْمِنِ، وَالمُسْلِمِ، وَالكَافِرِ، وَالفَاسِقِ، وَالمُنَافِقِ.

ثَالِثًا: ظُهُورُ كَثِيرٍ مِنَ الأَلْفَاظِ الإِدَارِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ:

فَمَعَ اسْتِقْرَارِ المُسْلِمِينَ، وَمَعْرِفَةِ الحَيَاةِ المُنَظَّمَةِ، عَرَفُوا أَلْفَاظًا تَدُلُّ عَلَىٰ الأَوْضَاعِ الإِدَارِيَّةِ، وَالأَحْوَالِ السِّيَاسِيَّةِ، كَالخِلَافَةِ، وَالوِلَايَةِ، وَالوِزَارَةِ، وَالقَضَاءِ، وَالحِجَابَةِ، وَالحِسْبَةِ وَغَيْرِهَا.

رَابِعًا: ظُهُورُ كَثِيرٍ مِنَ المُصْطَلَحَاتِ العِلْمِيَّةِ:

فَقَدِ اسْتُخْدِمَتْ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ فِي مَعَانٍ اصْطِلَاحِيَّةٍ، فَفِي النَّحْوِ -مَثَلًا-: الفَاعِلُ، وَالمَفْعُولُ، وَالعَامِلُ، وَالإِلْغَاءُ، وَالتَّعْلِيقُ، وَالمُضَافُ، وَالمُضَافُ إِلَيْهِ، وَالمَرْفُوعُ، وَالمَنْصُوبُ، وَالمَجْرُورُ، وَغَيْرُهَا.

وَفِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ: السَّنَدُ، وَالمَتْنُ، وَالعِلَّةُ، وَالمَرْفُوعُ، وَالمُرْسَلُ، وَالمُنْقَطِعُ، وَالمَأْثُورُ، وَالمُتَوَاتِرُ، وَغَيْرُهَا.

وَفِي الفِقْهِ وَأُصُولِهِ: الوَاجِبُ، وَالمُسْتَحَبُّ، وَالمُحَرَّمُ، وَالمَكْرُوهُ، وَالمُبَاحُ، وَغَيْرُهَا.

وَفِي البَلَاغَةِ: البَدِيعُ، وَالبَيَانُ، وَالمَعَانِي، وَالطِّبَاقُ، وَالجِنَاسُ، وَالتَّشْبِيهُ، وَالاسْتِعَارَةُ، وَالكِنَايَةُ، وَالمُسْنَدُ، وَالمُسْنَدُ إِلَيْهِ، وَغَيْرُهَا.

وَ**فِي العَرُوضِ**: البَحْرُ، وَالتَّفْعِيلَةُ، وَالقَافِيَةُ، وَالزِّحَافُ، وَالعِلَّةُ، وَغَيْرُهَا.

خَامِسًا: اسْتِيعَابُ العَرَبِيَّةِ لِكَثِيرٍ مِنَ المُصْطَلَحَاتِ الوَافِدَةِ:

فَقَدْ عَمَّتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ دِيَارَ الإِسْلَامِ كُلَّهَا، وَهِيَ لُغَةٌ حَيَّةٌ تُسَايِرُ الحَيَاةَ، وَتَسْتَوْعِبُ العُلُومَ، وَتُلْقِي عَلَىٰ الحَيَاةِ العِلْمِيَّةِ أَكْنَافَهَا.

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ فِي «الصَّاحِبِي»، فِي بَابِ الأَسْبَابِ الإِسْلَامِيَّةِ[(١)]: «كَانَتِ العَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا عَلَىٰ إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ آبَائِهِم فِي لُغَاتِهِم وَآدَابِهِم وَنَسَائِكِهِم وَقَرَابِينِهِمْ.

فَلَمَّا جَاءَ اللهُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- بِالإِسْلَامِ حَالَتْ أَحْوَالٌ، وَنُسِخَتْ دِيَانَاتٌ، وَأُبْطِلَتْ أُمُورٌ، وَنُقِلَتْ مِنَ اللُّغَةِ أَلْفَاظٌ مِنْ مَوَاضِعَ إِلَىٰ مَوَاضِعَ أُخَرَ بِزِيَادَاتٍ زِيدَتْ، وَشَرَائِعَ شُرِعَتْ، وَشَرَائِطَ شُرِطَتْ.

فَعَفَّىٰ الآخرُ الأَوَّلَ، وَشُغِلَ القَوْمُ -بَعْدَ المُغَاوَرَاتِ وَالتِّجَارَاتِ وَتَطَلُّبِ الأَرْبَاحِ وَالكَدْحِ لِلْمَعَاشِ فِي رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيفِ، وَبَعْدَ الإِغْرَامِ بِالصَّيْدِ وَالمُعَاقَرَةِ وَالمُيَاسَرَةِ- بِتِلَاوَةِ الكِتَابِ العَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، وَبِالتَّفَقُّهِ فِي دِينِ اللهِ ﷻ، وَحِفْظِ سُنَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَعَ اجْتِهَادِهِمْ فِي مُجَاهَدَةِ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ.

فَصَارَ الَّذِي نَشَأَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَنَشَئُوا -هُمْ- عَلَيْهِ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَحَتَّىٰ

(١) «الصاحبي» لابن فارس، تحقيق: سيد صقر (٧٨).

تَكَلَّمُوا فِي دَقَائِقِ الفِقْهِ، وَغَوَامِضِ أَبْوَابِ المَوَارِيثِ، وَغَيْرِهَا مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَتَأْوِيلِ الوَحْيِ بِمَا دُوِّنَ وَحُفِظَ حَتَّىٰ الآنَ.

فَصَارُوا -بَعْدَمَا ذَكَرْنَاهُ- إِلَىٰ أَنْ يُسْأَلَ إِمَامٌ مِنَ الأَئِمَّةِ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَىٰ مِنْبَرِهِ عَنْ فَرِيضَةٍ فَيُفْتِي وَيَحْسُبُ بِثَلَاثِ كَلِمَاتٍ...[1].

وَإِلَىٰ أَنْ يَتَكَلَّمَ هُوَ -يَعْنِي: عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ- وَغَيْرُهُ فِي دَقَائِقِ العُلُومِ بِالمَشْهُورِ مِنْ مَسَائِلِهِمْ فِي الفَرْضِ وَحْدَهُ...

فسُبْحَانَ مَنْ نَقَلَ أُولَئِكَ فِي الزَّمَنِ القَرِيبِ بِتَوْفِيقِهِ عَمَّا أَلِفُوهُ، وَنَشَئُوا عَلَيْهِ، وَغُذُوا بِهِ، إِلَىٰ مِثْلِ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

وَكُلُّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ حَقِّ الإِيمَانِ، وَصِحَّةِ نُبوَّةِ نَبِيِّنَا مُحمَدٍ ﷺ.

فكَانَ مِمَّا جَاءَ فِي الإِسْلَامِ: ذِكْرُ المُؤْمِنِ وَالمُسْلِمِ وَالكَافِرِ وَالمُنَافِقِ، وَأَنَّ العَرَبَ إِنَّمَا عَرَفَتِ المُؤْمِنَ مِنَ الأَمَانِ وَالإِيمَانِ، وَهُوَ التَّصْدِيقُ.

ثُمَّ زَادَتِ الشَّرِيعَةُ شَرَائِطَ وَأَوْصَافاً بِهَا سُمِّيَ المُؤْمِنُ بِالإِطْلَاقِ مُؤْمِنًا.

وَكَذَلكَ الإِسْلَامُ وَالمُسْلِمُ إِنَّمَا عَرَفَتْ مِنْهُ إِسْلَامَ الشَّيءِ، ثُمَّ جَاءَ فِي الشَّرْعِ مِن أَوْصَافِهِ مَا جَاءَ.

وَكذَلِكَ كَانَتْ لَا تَعْرِفُ مِنَ الكُفْرِ إِلَّا الغِطَاءَ وَالسِّتْرَ.

---

(١) أورد ابنُ فارسٍ قولَ أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه حين سُئلَ عن ابنتين وأبوين وامرأةٍ: «صار ثُمُنهَا تسعًا»، فسمِّيت: المنبرية.

فَأَمَّا المُنَافِقُ فَاسْمٌ جَاءَ بِهِ الإِسْلَامُ لِقَوْمٍ أَبْطَنُوا غَيْرَ مَا أَظْهَرُوهُ، وَكَانَ الأَصْلُ مِنْ نَافِقَاءِ اليَرْبُوعِ.

وَلَمْ يَعْرِفُوا فِي الفِسْقِ إِلَّا قَوْلَهُمْ: «فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ»، إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرِهَا، وَجَاءَ الشَّرْعُ بِأَنَّ الفِسْقَ: الإِفْحَاشُ فِي الخُرُوجِ عَنْ طَاعَةِ اللهِ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ-.

وَمِمَّا جَاءَ فِي الشَّرْعِ: الصَّلَاةُ، وَأَصْلُهُ فِي لُغَتِهِم: الدُّعَاءُ.

وَقَدْ كَانُوا عَرَفُوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ هَذِهِ الهَيْئَةِ، فَقَالُوا:

أَوْ دُرَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غَوَّاصُهَا ... بَهِجٌ، مَتَىٰ يَرَهَا يُهِلَّ وَيَسْجُدِ[1]

وَقَالَ الأَعْشَىٰ:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ المَلِيـ ... ـكِ طَوْرًا سُجُودًا، وَطَوْرًا جُؤَارَا[2]

وَالَّذِي عَرَفُوهُ مِنْهُ -أَيْضًا- مَا أَخْبَرَنَا بِهِ عَلِيٌّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَمْرٍو: «أَسْجَدَ الرَّجُلُ: طَأْطَأَ رَأْسَهُ وَانْحَنَىٰ».

قَالَ حُمَيدُ بْنُ ثَوْرٍ:

فُضُولُ أَزِمَّتِهَا أَسْجَدَتْ ... سُجُودَ النَّصَارَىٰ لِأَرْبَابِهَا[3]

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، في «ديوانه» (ص٣٦).

(٢) «ديوان الأعشىٰ» (ص٤١).

(٣) البيتُ لحميد في «مقاييس اللغة» (٣/ ١٣٣)، و«إصلاح المنطق» (٢٧٥)، و«الصحاح» (١/ ٤٨١).

وصواب إنشَادِه -كما قال ابن بَرِّي-: «لأَحبَارِهَا».

وَأَنْشَدَ:

فَقُلْنَ لَهُ: أَسْجِدْ لِلَيْلَىٰ، فَأَسْجَدَا

يَعْنِي: البَعِيرَ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ لِتَرْكَبَهُ.

وَهَذَا وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ العَرَبَ لَمْ تَعْرِفْهُ بِمِثْلِ مَا أَتَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِنَ الأَعْدَادِ وَالمَوَاقِيتِ، وَالتَّحْرِيمِ لِلصَّلَاةِ، وَالتَّحْلِيلِ مِنْهَا.

وَكَذَلِكَ الصِّيَامُ أَصْلُهُ عِنْدَهُمُ الإِمْسَاكُ، وَيَقُولُ شَاعِرُهُمْ:

خَيْلٌ صِيَامٌ، وَأُخْرَىٰ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ العَجَاجِ وَخَيْلٌ تَعْلُكُ اللُّجُمَا[1]

ثُمَّ زَادَتِ الشَّرِيعَةُ النِّيَّةَ، وَحَظَرَتِ الأَكْلَ وَالمُبَاشَرَةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الصَّوْمِ.

وَكَذَلِكَ الحَجُّ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ فِيهِ غَيْرُ القَصْدِ، وَسَبْرُ الجِرَاحِ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ:

وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولًا كَثِيرَةً يَحُجُّونَ سِبَّ الزِّبْرِقَانِ المُزَعْفَرَا[2]

ثُمَّ زَادَتِ الشَّرِيعَةُ مَا زَادَتْهُ مِنْ شَرَائِطِ الحَجِّ وَشَعَائِرِهِ.

وَكَذَلِكَ الزَّكَاةُ، لَمْ تَكُنِ العَرَبُ تَعْرِفُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ النَّمَاءِ، وَزَادَ الشَّرْعُ مَا زَادَهُ فِيهَا مِمَّا لَا وَجْهَ لِإِطَالَةِ البَابِ بِذِكْرِهِ.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في «ديوانه» (ص٩٥).

(٢) البيت للمخبَّل السعدي، كما في «إصلاح المنطق» (ص٤١١).

وَعَلَىٰ هَذَا سَائِرُ مَا تَرَكْنَا ذِكْرَهُ مِنَ العُمْرَةِ وَالجِهَادِ، وَسَائِرِ أَبْوَابِ الفِقْهِ.

فَالوَجْهُ فِي هَذَا إِذَا سُئِلَ الإِنْسَانُ عَنْهُ أَنْ يَقُولَ: فِي الصَّلَاةِ اسْمَانِ: لُغَوِيٌّ وَشَرْعِيٌّ، وَيَذْكُرُ مَا كَانَتِ العَرَبُ تَعْرِفُهُ، ثُمَّ مَا جَاءَ الإِسْلَامُ بِهِ.

وَهُوَ قِيَاسُ مَا تَرَكْنَا ذِكْرَهُ مِنْ سَائِرِ العُلُومِ، كَالنَّحْوِ وَالعَرُوضِ وَالشِّعْرِ: كُلُّ ذَلِكَ لَهُ اسْمَانِ لُغَوِيٌّ وَصِنَاعِيٌّ».

✽ ✽ ✽

تَعَلُّمُ العَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمُهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّ نَفْسَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنَ الدِّينِ، وَمَعْرِفَتُهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ، فَإِنَّ فَهْمَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرْضٌ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِفَهْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

ثُمَّ، مِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَىٰ الأَعْيَانِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَىٰ الكِفَايَةِ»[1].

«إِنَّ لِلْعَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ ظَرْفًا خَاصًّا، لَمْ يَتَوَفَّرْ لِأَيَّةِ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ العَالَمِ، ذَلِكَ أَنَّهَا ارْتَبَطَتْ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ، مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَدُوِّنَ بِهَا التُّرَاثُ العَرَبِيُّ الضَّخْمُ، الَّذِي كَانَ مِحْوَرُهُ هُوَ القُرْآنُ الكَرِيمُ، فِي كَثِيرٍ مِنْ مَظَاهِرِهِ»[2].

العَرَبِيَّةُ لُغَةُ القُرْآنِ، وَلُغَةُ الإِسْلَامِ، وَلَيْسَتْ كَأَيَّةِ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ العَالَمِ؛ لِأَنَّ زَوَالَ اللُّغَةِ فِي أَكْثَرِ الأُمَمِ يُبْقِيهَا بِجَمِيعِ مُقَوِّمَاتِهَا غَيْرَ أَلْفَاظِهَا، وَلَكِنَّ زَوَالَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لَا يُبْقِي لِلْعَرَبِيِّ، وَلَا لِلْمُسْلِمِ قوامًا يُمَيِّزُهُ مِنْ سَائِرِ الأَقْوَامِ، وَلَا يَعْصِمُهُ أَنْ يَذُوبَ فِي غِمَارِ الأُمَمِ؛ فَلَا تَبْقَىٰ لَهُ بَاقِيَةٌ مِنْ بَيَانٍ، وَلَا عُرْفٍ، وَلَا مَعْرِفَةٍ، وَلَا إِيمَانٍ.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٩).

(٢) «فصول في فقه العربية» (ص٤١٤).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْلُومٌ أَنَّ تَعَلُّمَ العَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمَهَا فَرْضٌ عَلَىٰ الكِفَايَةِ؛ وَكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَىٰ اللَّحْنِ.

فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ أَنْ نَحْفَظَ القَانُونَ العَرَبِيَّ، وَنُصْلِحَ الأَلْسُنَ المَائِلَةَ عنْهُ، فَيُحْفَظَ لَنَا طَرِيقَةُ فَهْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالاقْتِدَاءُ بِالعَرَبِ فِي خِطَابِهَا، فَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ عَلَىٰ لَحْنِهِمْ كَانَ نَقْصًا وَعَيْبًا»[1].

وَقَدْ مَرَّ قَوْلُ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ المُسْلِمَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ تَبَعًا فِيمَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ، وَنُدِبَ إِلَيهِ، لَا مَتْبُوعًا».

أَيْ: عَلَىٰ المُسْلِمِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لُغَةِ العَرَبِ مَا يَكُونُ بِهِ عَلَىٰ أَصْلِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، لَا أَنْ يَظَلَّ عَلَىٰ لُغَتِهِ هُوَ أَوْ عُرْفِ قَوْمِهِ وَاصْطِلَاحِهِم وَلَهْجَتِهِم، وَتَتْبَعُهُ لُغَةُ العَرَبِ، الَّتِي جَاءَ بِهَا القُرْآنُ، وَنَطَقَتْ بِهَا سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مَتْبُوعًا.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: **«اللِّسَانُ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ ﷻ لِسَانُ العَرَبِ، فَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ العَزِيزَ، وَجَعَلَهُ لِسَانَ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: يَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ يَقْدِرُ عَلَىٰ تَعَلُّمِ العَرَبِيَّةِ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا؛ لِأَنَّهَا اللِّسَانُ الأَوْلَىٰ بِأَنْ يَكُونَ مَرْغُوبًا فِيهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَرَّمَ عَلَىٰ أَحَدٍ أَنْ يَنْطِقَ بِأَعْجَمِيَّةٍ»**[2].

وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ بِسَنَدِهِ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ سَمِعَ

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٣٢/ ٢٥٢).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٤).

قَوْمًا يَتَكَلَّمُونَ بِالفَارِسِيَّةِ فَقَالَ: «مَا بَالُ المَجُوسِيَّةِ بَعْدَ الحَنِيفِيَّةِ؟!»[١].

وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: «لَا تَعَلَّمُوا رَطَانَةَ الأَعَاجِمِ، وَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِم كَنَائِسَهُم؛ فَإِنَّ السَّخَطَ يَنْزِلُ عَلَيْهِم»[٢].

وَقَدْ نَقَلَ شَيْخُ الإِسْلَامِ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ: كَرَاهَةَ الرِّطَانَةِ، وَتَسْمِيَةِ الشُّهُورِ بِالأَسْمَاءِ الأَعْجَمِيَّةِ.

وَالوَجْهُ عِنْدَ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي ذَلِكَ: «**كَرَاهَةَ أَنْ يَتَعَوَّدَ الرَّجُلُ النُّطْقَ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ**».

قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ رَحِمَهُ اللهُ: «الرَّطَانَةُ -بِفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا-، وَالتَّرَاطُنُ: كَلَامٌ لَا يَفْهَمُهُ الجُمْهُورُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُوَاضَعَةٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ أَوْ جَمَاعَةٍ، وَالعَرَبُ تَخُصُّ بِهِ غَالِبًا كَلَامَ العَجَمِ»[٣].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَام بَعْدَ أَنْ نَقَلَ كَلَامَ الإِمَامِ أَحْمَدَ: «لِأَنَّ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ شِعَارُ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَاللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ»[٤].

وَقَالَ فِي «الاقْتِضَاء» وَقَدْ ذَكَرَ أَعْيَادَ المُشْرِكِينَ: «وَأَمَّا عَلِيٌّ رضي الله عنه، فَكَرِهَ مُوَافَقَتَهُمْ فِي اسْمِ يَوْمِ العِيدِ الَّذِي يَنْفَرِدُونَ بِهِ، فَكَيْفَ بِمُوَافَقَتِهِمْ فِي العَمَلِ؟

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٨/ ٥٤٨/ ٢٦٧٩٢).
(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٨/ ٥٤٨/ ٢٦٧٩١).
(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٢/ ٢٢٣).
(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٢).

وَأَمَّا الرِّطَانَةُ، وَتَسْمِيَةُ شُهُورِهِمْ بِالأَسْمَاءِ الأَعْجَمِيَّةِ، فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الكِرْمَانِيُّ -المُسَمَّىٰ بِحَرْبٍ-: (بَابُ تَسْمِيَةِ الشُّهُورِ بِالفَارِسِيَّةِ)، قُلْتُ لِأَحْمَدَ: فَإِنَّ لِلْفُرْسِ أَيَّامًا وَشُهُورًا، يُسَمُّونَهَا بِأَسْمَاءٍ لَا تُعْرَفُ؟ فَكَرِهَ ذَلِكَ أَشَدَّ الكَرَاهَةِ.

قَالَ: وَسَأَلْتُ إِسْحَاقَ مَرَّةً، قُلْتُ: الرَّجُلُ يَتَعَلَّمُ شُهُورَ الرُّومِ وَالفُرْسِ؟

قَالَ: كُلُّ اسْمٍ مَعْرُوفٍ فِي كَلَامِهِمْ، فَلَا بَأْسَ.

فَمَا قَالَهُ أَحْمَدُ مِنْ كَرَاهَةِ هَذِهِ الأَسْمَاءِ لَهُ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: إِذَا لَمْ يَعْرِفْ مَعْنَىٰ الاسْمِ، جَازَ أَنْ يَكُونَ مُحَرَّمًا، فَلَا يَنْطِقُ المُسْلِمُ بِمَا لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ، وَلِهَذَا كُرِهَتِ الرُّقَىٰ الأَعْجَمِيَّةُ، كَالعِبْرَانِيَّةِ، أَوِ السِّرْيَانِيَّةِ، أَوْ غَيْرِهَا، خَوْفًا أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَعَانٍ لَا تَجُوزُ.

وَهَذَا المَعْنَىٰ هُوَ الَّذِي اعْتَبَرَهُ إِسْحَاقُ، لَكِن إِنْ عَلِمَ أَنَّ المَعْنَىٰ مَكرُوهٌ فَلَا رَيبَ فِي كَرَاهَتِهِ، وَإِنْ جَهِلَ مَعْنَاهُ فَأَحمَدُ كَرِهَهُ، وَكَلَامُ إِسْحَاقَ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ لَمْ يَكْرَهْهُ.

وَالوجْهُ الثَّانِي: كَرَاهَتُهُ أَنْ يَتَعَوَّدَ الرَّجُلُ النُّطقَ بِغيرِ العَرَبيةِ؛ فَإِنَّ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ شِعَارُ الإِسْلَامِ وَأَهلِهِ، وَاللُّغَاتُ مِن أَعْظَمِ شَعَائِرِ الأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ.

وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الفُقَهَاءِ أَوْ أَكْثَرُهُم يَكْرَهُونَ فِي الأَدْعِيَةِ الَّتِي فِي الصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ أَنْ يُدْعَىٰ اللهُ أَوْ يُذكَرَ بِغَيرِ العَرَبيةِ.

وَقَدِ اختَلَفَ الفُقَهَاءُ فِي أَذْكَارِ الصَّلَوَاتِ هَلْ تُقَالُ بِغَيرِ العَرَبِيَّةِ؟ وَهِيَ

ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ:

أَعْلَاهَا: القُرْآنُ، ثُمَّ الذِّكرُ الوَاجِبُ غير القُرآنِ كَالتَّحرِيمَةِ بالإجْمَاعِ وَكَالتَّحْلِيلِ، وَالتَّشَهُّدِ عِنْدَ مَنْ أَوْجَبَهُ، ثمَّ الذِّكْرُ غيرُ الوَاجِبِ مِنْ دُعَاءٍ أَوْ تَسبِيحٍ أَوْ تَكْبِيرٍ وَغَيرِ ذَلِكَ.

فأمَّا القُرْآنُ: فَلَا يَقْرَؤهُ بِغَيرِ العَرَبِيَّةِ، سَواءٌ قَدَرَ علَيهَا أَوْ لَم يَقْدِرْ عِنْدَ الجُمْهُورِ، وَهُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا رَيبَ فِيهِ، بَلْ قَدْ قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ: إِنَّهُ يَمتَنِعُ أَنْ يُتَرْجَمَ سُورةٌ أَوْ مَا يَقُومُ بِهِ الإعْجَازُ.

وَاخْتَلَفَ أَبُو حَنِيفَةَ وأَصْحَابُهُ فِي القَادِرِ علَىٰ العَرَبِيَّةِ.

وَأَمَّا الأَذْكَارُ الوَاجِبةُ: فاختُلِفَ فِي مَنعِ تَرجمةِ القُرْآنِ، هَلْ يُتَرجِمهَا العَاجزُ عَنِ العَرَبِيَّةِ وَعَنْ تعلُّمِهَا، وَفِيهِ لأَصْحَابِ أحمَدَ وَجْهَانِ:

أَشْبَهُهَا بكَلَامِ أَحْمَدَ: أَنَّهُ لَا يُتَرْجَمُ، وهُوَ قَولُ مَالِكٍ وَإِسْحَاقٍ.

وَالثَّانِي: يُتَرْجَمُ، وَهُوَ قَولُ أَبِي يُوسُفَ ومُحمَّدٍ وَالشَّافِعِيِّ.

وَأَمَّا سَائِرُ الأَذْكَارِ: فَالمَنْصُوصُ مِنَ الوَجْهَينِ: أَنَّهُ لَا يُترجمهَا، وَمَتَىٰ فَعَلَ بَطلَتْ صَلَاتُهُ، وَهُوَ قَولُ مَالِكٍ وَإسحَاقَ وبعضِ أصحَابِ الشَّافِعِيِّ.

وَالمنصُوصُ عَنِ الشَّافعيِّ: أَنَّهُ يُكرَهُ ذَلِكَ بِغَيرِ العَرَبِيَّةِ، وَلَا تَبطُلُ، وَمِن أَصحَابِنَا مَنْ قَالَ: لَهُ ذَلِكَ، إِذَا لَمْ يُحْسِنِ العَرَبِيَّةَ.

وأَمَّا الخِطَابُ بِهَا مِن غيرِ حَاجَةٍ فِي أَسماءِ النَّاسِ وَالشُّهورِ كالتَّوارِيخِ

وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، مَعَ الجَهْلِ بِالمَعْنَىٰ بِلَا رَيبٍ، وَأَمَّا مَعَ العِلْمِ بِهِ فَكَلَامُ أحمَدَ بَيِّنٌ فِي كَراهتِهِ أيضًا.

وقالَ الشَّافِعِيُّ فِيمَا رَوَاهُ السِّلَفِيُّ بِإسنَادٍ مَعْرُوفٍ إِلَىٰ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ الحَكَمِ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ: «سمَّىٰ اللهُ الطَّالِبِينَ مِنْ فَضْلِهِ فِي الشِّرَاءِ وَالبَيعِ تُجَّارًا، وَلَمْ تَزَلِ العَربُ تُسمِّيهِم التُّجَارَ، ثُمَّ سَمَّاهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا سَمَّىٰ اللهُ بِهِ مِنَ التِّجَارَةِ بِلِسَانِ العَرَبِ، وَالسَّمَاسِرَةُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ العَجَمِ، فَلَا نُحِبُّ أَنْ يُسمِّيَ رَجُلٌ يَعْرِفُ العَرَبِيَّةَ تَاجِرًا إِلَّا تَاجِرًا، وَلَا يَنْطِقُ بِالعَرَبِيَّةِ فَيُسَمِّي شَيئًا بِأَعْجَمِيَّةٍ»[1]. اهـ

قَالَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الفَتَاوَىٰ» (١/ ٣٦٢):

«كُلُّ اسْمٍ مَجْهُولٍ فَلَيسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَرْقِيَ بِهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَدْعُوَ بِهِ وَلَوْ عُرِفَ مَعْنَاهُ؛ لأَنَّه يُكرَهُ الدُّعَاءُ بِغَيرِ العَرَبِيَّةِ، وَإِنَّمَا يُرَخَّصُ لِمَنْ لا يُحْسِنُ العَرَبِيَّةَ، فَأَمَّا جَعْلُ الأَلفَاظِ العَجميَّةِ شِعَارًا، فَلَيسَ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ».

لَقَدْ كَانَ عُلَمَاءُ الأُمَّةِ فِي صَدْرِهَا الأَوَّلِ عَلَىٰ وَعْيٍ كَامِلٍ بِأَثَرِ اللُّغَةِ فِي تَكْوِينِ الأُمَّةِ، وَخَطَرِهَا فِي بِنَاءِ شَخْصِيَّةِ المُسْلِمِ، وَلِذَلِكَ حَرَصُوا حِرْصًا شَدِيدًا عَلَىٰ لُغَةِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَشَدَّدُوا النَّكِيرَ عَلَىٰ مَنْ حَادَ عنْهَا إِلَىٰ غَيرِهَا، وَاستَبْدَلَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذي هُوَ خَيرٌ.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٥٩-٤٦٤) بتصرفٍ وحذفٍ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: «وَذَلِكَ أَنَّ اللِّسَانَ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لِسَانُ العَرَبِ، فَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ العَزِيزَ، وَجَعَلَهُ لِسَانَ خَاتَمِ أنبيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلِهَذَا نَقُولُ: يَنْبَغِي لِكُلِّ أحَدٍ يَقْدِرُ عَلَىٰ تَعَلُّمِ العَرَبِيَّةِ أنْ يتعلَّمَهَا؛ لأنَّهَا اللِّسَانُ الأوْلَىٰ بِأنْ يَكُونَ مَرْغُوبًا فِيهِ، مِنْ غَيرِ أنْ يُحَرَّمَ عَلَىٰ أحَدٍ أنْ يَنْطِقَ بِأعْجَمِيَّةٍ».

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ مُعَلِّقًا عَلَىٰ كَلَامِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ: «فَقَدْ كَرِهَ الشَّافِعِيُّ لِمَنْ يَعْرِفُ العَرَبِيَّةَ أَنْ يُسَمِّيَ بِغَيْرِهَا، وَأَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا خَالِطًا لَهَا بِالعَجَمِيَّةِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الأَئِمَّةُ مَأْثُورٌ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ»[1].

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ:

«وَمَا زَالَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ تَغْيِيرَ شَعَائِرِ العَرَبِ حَتَّىٰ فِي الْمُعَامَلَاتِ، وَهُوَ «التَّكَلُّم بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ» إِلَّا لِحَاجَةٍ، كَمَا نَصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ، بَلْ قَالَ مَالِكٌ: مَنْ تَكَلَّمَ فِي مَسْجِدِنَا بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أُخْرِجَ مِنْهُ.

مَعَ أَنَّ سَائِرَ الْأَلْسُنِ يَجُوزُ النُّطْقُ بِهَا لِأَصْحَابِهَا؛ وَلَكِنْ سَوَّغُوهَا لِلْحَاجَةِ، وَكَرِهُوهَا لِغَيْرِ الْحَاجَةِ، وَلِحِفْظِ الْإِسْلَامِ.

فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَبَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ الْعَرَبِيَّ، وَجَعَلَ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ خَيْرَ الْأُمَمِ؛ فَصَارَ حِفْظُ شِعَارِهِمْ مِنْ تَمَامِ حِفْظِ الْإِسْلَامِ، فَكَيْفَ بِمَنْ تَقَدَّمَ عَلَىٰ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ -مُفْرَدِهِ وَمَنْظُومِهِ- يُغَيِّرُهُ وَيُبَدِّلُهُ، وَيُخْرِجُهُ عَنْ

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٤).

قَانُونِهِ، وَيُكَلِّفُ الِانْتِقَالَ عَنْهُ؟!»[(١)].

وَإِذَا كَانَتِ اللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ -كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ-.

فَإِنَّ الأُمَّةَ العَزِيزَةَ الظَّاهِرَةَ: تَعْتَزُّ بِلُغَتِهَا، وَتَحْرِصُ عَلَىٰ اسْتِقْلَالِهَا اللُّغَوِيِّ، كَمَا تَحْرِصُ عَلَىٰ اسْتِقْلَالِهَا العَسْكَرِيِّ وَالاقْتِصَادِيِّ سَوَاءً، وَتَحْتَرِمُ قَوَانِينَهَا اللُّغَوِيَّةَ وَتَتَمَسَّكُ بِهَا.

وَالأُمَّةُ الذَّلِيلَةُ: تُفَرِّطُ فِي لُغَتِهَا، حَتَّىٰ تُصْبِحَ أَجْنَبِيَّةً عَنْهَا، وَهِيَ مَنْسُوبَةٌ إِلَيهَا، وَيُنتَهَكُ عِرْضُهَا اللُّغَوِيُّ بِرِضًا مِنْهَا أَوْ بِسَعْيٍ.

وَإِلَىٰ مِثْلِ هَذَا أَشَارَ الرَّافِعِيُّ -غَفَرَ اللهُ لَهُ- فِي قَوْلِهِ:

«هَلْ أَعْجَبُ مِنْ أَنَّ المَجْمَعَ العِلْمِيَّ الفَرَنْسِيَّ يُؤَذِّنُ فِي قَوْمِهِ بِإِبْطَالِ كَلِمَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ، كَانَتْ فِي الأَلْسِنَةِ مِنْ أَثَرِ الحَرْبِ الكُبْرَىٰ، وَيُوجِبُ إِسْقَاطَهَا مِنَ اللُّغَةِ جُمْلَةً، وَهِيَ كَلِمَةُ: «نِظَامُ الحَصْرِ البَحرِيِّ»، وَكَانَتْ مِمَّا جَاءَتْ مَعَ نَكَبَاتِ فَرَنْسَا فِي الحَرْبِ العُظْمَىٰ، فَلَمَّا ذَهَبَتْ تِلْكَ النَّكَبَاتُ رَأَىٰ المَجْمَعُ العِلْمِيُّ أَنَّ

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٣٢/ ٢٥٥).

ووصفُه ينطبقُ علىٰ كثيرٍ من أهلِ عصرِنَا، ومن بني جلدتِنَا، ممَّن طمسَ اللهُ أعينَ بصائرِهم، وأصمَّهم، وأعمَىٰ عن الحقِّ أبصارَهم، وصاروا أعدىٰ أعداءِ الأمةِ، يحاولون سَلْخَهَا من دينهَا وهُويتِها، بصرفِها عنْ لغةِ كتابِ ربِّها، ويبغونَهَا عِوجًا بتزيينِ اللغاتِ الأعجميةِ، وتقريبِ تناولها، ورمي العربيةِ الشريفةِ الفصحىٰ بكلِّ عظيمةٍ، من الصعوبةِ والجفافِ، والحوشيةِ، وعدمِ الملائمةِ للعصرِ، فاللهُ حسيبُهم.

الكَلِمَةَ وَحْدَهَا نَكْبَةٌ عَلَىٰ اللُّغَةِ؛ كَأَنَّهَا جُنْدِيٌّ دَوْلَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ فِي أَرْضِ دَوْلَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، بِشَارَتِهِ وَسِلَاحِهِ وَعَلَمِهِ، يُعْلِنُ عَنْ قَهْرٍ أَوْ غَلَبَةٍ أَوْ اسْتِعْبَادٍ!

وَهَلْ فَعَلُوا ذَلِكَ؛ إِلَّا أَنَّ التَّهَاوُنَ يَدْعُو بَعْضُهُ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَأَنَّ الغَفْلَةَ تَبعَثُ عَلَىٰ ضَعْفِ الحِفْظِ وَالتَّصَوُّنِ، وَأَنَّ الاختِلَاطَ وَالاضطِرَابَ يَجِيءُ مِنَ الغَفْلَةِ، وَالفَسَادَ يَجتَمِعُ مِنَ الاختِلَاطِ وَالاضطِرَابِ؟

إِنَّمَا الأُمُورُ بمَقَادِيرِهَا فِي مِيزَانِ الاصطِلَاحِ، لَا بِأَوزَانِهَا فِي نَفسِهَا، فَأَلفُ جُنْدِيٍّ أَجنَبِيٍّ بِأَسلِحَتِهِم وَذَخِيرَتِهِم فِي أَرْضٍ هَالِكَةٍ بِأَهلِيهَا رُبَّمَا كَانُوا غَوْثًا تَفَتَّحَتْ بِهِ السَّمَاءُ، وَلَكِنَّ جُندِيًّا وَاحِدًا مِن هَؤُلَاءِ فِي أُمَّةٍ قَوِيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، تَنْشَقُّ لَهُ الأَرْضُ، وَتَكَادُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ»[١].

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ -غَفَرَ اللهُ لَهُ-:

«اللُّغَةُ هِيَ صُورَةُ وُجُودِ الأُمَّةِ بِأَفْكَارِهَا وَمَعَانِيهَا وَحَقَائِقِ نُفُوسِهَا، وُجُودًا مُتَمَيِّزًا قَائِمًا بِخَصَائِصِهِ، تَتَّحِدُ بِهَا الأُمَّةُ فِي صُوَرِ التَّفْكِيرِ، وَأَسَالِيبِ أَخْذِ المَعْنَىٰ مِنَ المَادَّةِ.

وَالدِّقَّةُ فِي تَرْكِيبِ اللُّغَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ دِقَّةِ المَلَكَاتِ فِي أَهْلِهَا، وَعُمْقُهَا هُوَ عُمْقُ الرُّوحِ، وَدَلِيلُ الحِسِّ عَلَىٰ مَيْلِ الأُمَّةِ إِلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي الأَسْبَابِ وَالعِلَلِ.

وَكَثْرَةُ مُشْتَقَّاتِهَا بُرْهَانٌ عَلَىٰ نَزْعَةِ الحُرِّيَّةِ وَطِمَاحِهَا؛ فَإِنَّ رُوحَ الاسْتِعْبَادِ

---

(١) «تحت راية القرآن» (ص٢٥).

ضَيِّقٌ لَا يَتَّسِعُ، وَدَأْبُهُ لُزُومُ الكَلِمَةِ وَالكَلِمَاتِ القَلِيلَةِ.

وَإِذَا كَانَتِ اللُّغَةُ بِهَذِهِ المَنْزِلَةِ، وَكَانَتْ أُمَّتُهَا حَرِيصَةً عَلَيْهَا، نَاهِضَةً بِهَا، مُتَّسِعَةً فِيهَا، مُكْبِرَةً شَأْنَهَا، فَمَا يَأْتِي ذَلِكَ إِلَّا مِنْ رُوحِ التَّسَلُّطِ فِي شَعْبِهَا، وَالمُطَابَقَةِ بَيْنَ طَبِيعَتِهِ وَعَمَلِ طَبِيعَتِهِ، وَكَوْنِهِ سَيِّدَ أَمْرِهِ، وَمُحَقِّقَ وُجُودِهِ، وَمُسْتَعْمِلَ قُوَّتِهِ، وَالآخِذَ بِحَقِّهِ.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ مِنْهُ التَّرَاخِي وَالإِهْمَالُ وَتَرْكُ اللُّغَةِ لِلطَّبِيعَةِ السُّوقِيَّةِ، وَإِصْغَارُ أَمْرِهَا، وَتَهْوِينُ خَطَرِهَا، وَإِيثَارُ غَيْرِهَا بِالحُبِّ وَالإِكْبَارِ، فَهَذَا شَعْبٌ خَادِمٌ لَا مَخْدُومٌ، تَابِعٌ لَا مَتْبُوعٌ، ضَعِيفٌ عَنْ تَكَالِيفِ السِّيَادَةِ، لَا يُطِيقُ أَنْ يَحْمِلَ عَظَمَةَ مِيرَاثِهِ، مُجْتَزِئٌ بِبَعْضِ حَقِّهِ، مُكْتَفٍ بِضَرُورَاتِ العَيْشِ، وَيُوضَعُ لِحُكْمِهِ القَانُونُ الَّذِي أَكْثَرُهُ لِلْحِرْمَانِ وَأَقَلُّهُ لِلْفَائِدَةِ الَّتِي هِيَ كَالحِرْمَانِ.

لَا جَرَمَ كَانَت لُغَةُ الأُمَّةِ هِيَ الهَدَفَ الأَوَّلَ للمُستَعْمِرِينَ؛ فَلَن يَتَحَوَّلَ الشَّعْبُ أَوَّلَ مَا يَتَحَوَّلُ إِلَّا مِن لُغَتِهِ، إِذْ يَكُونُ مَنْشَأُ التَّحَوُّلِ مِن أَفْكَارِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَآمَالِهِ، وَهُو إِذَا انقَطَعَ مِن نَسَبِ لُغَتِهِ انقَطَعَ مِن نَسَبِ مَاضِيهِ، وَرَجَعَتْ هُوِيَّتُهُ صُورَةً مَحفُوظَةً فِي التَّارِيخِ، لَا صُورَةً مُحَقَّقَةً فِي وُجُودِهِ، فَلَيْسَ كَاللُّغَةِ نَسَبٌ للعَاطِفَةِ وَالفِكْرِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَبْنَاءَ الأَبِ الوَاحِدِ لَو اختَلَفَتْ أَلسِنَتُهُم فَنَشَأَ مِنهُم نَاشِئٌ عَلَىٰ لُغَةٍ، وَنَشَأَ الثَّانِي عَلَىٰ أُخرَىٰ، وَالثَّالِثُ عَلَىٰ لُغَةٍ ثَالِثَةٍ؛ لَكَانُوا فِي العَاطِفَةِ كَأَبنَاءِ ثَلَاثَةِ آبَاءٍ.

وَمَا ذَلَّتْ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذَلَّ، وَلَا انْحَطَّتْ إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ وَإِدْبَارٍ.

وَمِنْ هَذَا يَفْرِضُ الأَجْنَبِيُّ المُسْتَعْمِرُ لُغَتَهُ فَرْضًا عَلَىٰ الأُمَّةِ المُسْتَعْمَرَةِ، وَيَرْكَبُهُمْ بِهَا، وَيُشْعِرُهُمْ عَظَمَتَهُ فِيهَا، وَيَسْتَلْحِقُهُم مِنْ نَاحِيَتِهَا؛ فَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ أَحْكَامًا ثَلَاثَةً فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ:

أَمَّا الأَوَّلُ: فَحَبْسُ لُغَتِهِمْ فِي لُغَتِهِ سِجْنًا مُؤَبَّدًا.

وَأَمَّا الثَّانِي: فَالحُكْمُ عَلَىٰ مَاضِيهِمْ بِالقَتْلِ مَحْوًا وَنِسْيَانًا.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَتَقْيِيدُ مُسْتَقْبَلِهِمْ فِي الأَغْلَالِ الَّتِي يَصْنَعُهَا، فَأَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لِأَمْرِهِ تَبَعٌ.

فَاللُّغَاتُ تَتَنَازَعُ الهُوِيَّةَ، وَلَهِيَ -وَاللهِ- احْتِلَالٌ عَقْلِيٌّ فِي الشُّعُوبِ الَّتِي ضَعُفَتْ عَصَبِيَّتُهَا، وَإِذَا هَانَتِ اللُّغَةُ الأَصْلِيَّةُ عَلَىٰ أَهْلِهَا، أَثَّرَتِ اللُّغَةُ الأَجْنَبِيَّةُ فِي الخُلُقِ الأَصْلِيِّ مَا يُؤَثِّرُ الجَوُّ الأَجْنَبِيُّ فِي الجِسْمِ الَّذِي انْتَقَلَ إِلَيْهِ، وَأَقَامَ فِيهِ.

أَمَّا إِذَا قَوِيَتِ العَصَبِيَّةُ، وَعَزَّتِ اللُّغَةُ، وَثَارَتْ لَهَا الحَمِيَّةُ، فَلَنْ تَكُونَ اللُّغَاتُ الأَجْنَبِيَّةُ إِلَّا خَادِمَةً يُرْتَفَقُ بِهَا، وَيُرْجَعُ شِبْرُ الأَجْنَبِيِّ شِبْرًا لَا مِتْرًا...»[١].

وَاعْلَمْ أَنَّ شَخْصِيَّةَ الأُمَّةِ تَبْدُو جَلِيَّةً عِنْدَ اعْتِيَادِهَا الأَخْذَ بِلُغَةِ الكِتَابِ العَزِيزِ، وَأَنَّ تَرْكَ اللُّغَةِ مَضْيَعَةٌ لِشَخْصِيَّةِ الأُمَّةِ وَامِّحَاءٌ لَهَا، وَذَوَبَانٌ لِتِلْكَ الشَّخْصِيَّةِ فِي كِيَانِ الأُمَمِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ الأُمَّةُ لُغَاتِهَا، فَإِنْ تَرَكَتِ الأُمَّةُ لُغَةَ كِتَابِ رَبِّهَا إِلَىٰ لُغَةِ أَعْدَائِهَا الَّذِينَ يُبَيِّتُونَ وَيُظْهِرُونَ عَدَاءَهَا، تَعْتَدُّ بِلُغَتِهِمْ وَتَحْفِلُ،

(١) «وحي القلم» (٣/ ٣٢).

فَاعْلَمْ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ أُمَّةً لا شَخْصِيَّةَ لَهَا، وَعُدَّ شَخْصِيَّتَهَا فِي المَوْتَىٰ، وَكَبِّرْ عَلَيْهَا أَرْبَعًا.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «اعْلَمَ أَنَّ اعْتِيَادَ اللُّغَةِ يُؤَثِّرُ فِي العَقْلِ وَالخُلُقِ وَالدِّينِ، تَأْثِيرًا قَوِيًّا بَيِّنًا، وَيُؤَثِّرُ أَيْضًا فِي مُشَابَهَةِ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمُشَابَهَتُهُمْ تَزِيدُ العَقْلَ وَالدِّينَ وَالخُلُقَ»[1].

وَلَمْ يَكُنِ العَرَبُ عِنْدَ فَتْحِ بَلَدٍ مِنَ البُلْدَانِ يَتْرُكُونَ لِسَانَهُمْ وَلِسَانَ كِتَابِ رَبِّهِمْ مِنْ أَجْلِ لِسَانِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا تَغْلِبُ العَرَبِيَّةُ عَلَىٰ أَهْلِ المَصْرِ المَفْتُوحِ حَتَّىٰ تُطْبِقَ عَلَيْهِ، وَيَكْرَهُ المُسْلِمُونَ أَشَدَّ الكُرْهِ أَنْ تَتَفَشَّىٰ فِيهِمُ العُجْمَةُ وَالرِّطَانَةُ البَعِيدَتَانِ كُلَّ البُعْدِ عَنْ لُغَةِ الكِتَابِ العَزِيزِ وَلُغَةِ أَهْلِهِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ: «وَاعْتِيَادُ الخِطَابِ بِغَيرِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ شِعَارُ الإِسْلَامِ وَلُغَةُ القُرْآنِ حَتَّىٰ يَصِيرَ ذَلِكَ عَادَةً لِلمِصْرِ وَأَهْلِهِ، وَلِأَهْلِ الدَّارِ، وَلِلرجُلِ مَعَ صَاحِبِهِ، وَلِأَهْلِ السُّوقِ، أَوْ لِلأُمَرَاءِ، أَوْ لأَهْلِ الدِّيوانِ، أَوْ لِأَهْلِ الفِقْهِ: فَلا رَيبَ أَنَّ هَذَا مَكْرُوهٌ؛ فَإِنَّهُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِالأَعَاجِمِ.

وَلِهَذَا كَانَ المُسْلِمُونَ المُتَقَدِّمُونَ لمَّا سَكنُوا أَرْضَ الشَّامِ وَمِصْرَ، وَلُغَةُ أَهْلِهِمَا رُومِيَّةٌ، وَأَرْضَ العِرَاقِ وَخُرَاسَانَ، وَلُغَةُ أَهْلِهِمَا فَارِسيَّةٌ، وَأَرضَ المَغْرِبِ وَلُغَةُ أَهْلِهَا بَرْبَرِيَّةٌ؛ عَوَّدُوا أَهْلَ هَذِهِ البِلَادِ العَرَبِيَّةَ، حَتَّىٰ غَلَبَتْ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الأَمْصَارِ مُسْلِمِهِم وَكَافِرِهِم.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٩).

وَهَكَذَا كَانَتْ خُرَاسَانُ قَدِيمًا ثُمَّ إِنَّهُم -يعني: المسْلِمِينَ- تَسَاهَلُوا فِي أَمْرِ اللُّغَةِ، وَاعتَادُوا الخِطَابَ بِالفَارِسِيَّةِ، حَتَّىٰ غَلَبَتْ عَلَيهِم، وَصَارَتِ العَرَبِيَّةُ مَهْجُورَةً عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُم، وَلَا رَيبَ أَنَّ هَذَا مَكْرُوهٌ.

وَلَا رَيبَ أَنَّ الطَّرِيقَ الحَسَنَ: اعتِيَادُ الخِطَابِ بِالعَرَبِيَّةِ، حَتَّىٰ يَتَلَقَّنَهَا الصِّغَارُ فِي الدُّورِ وَالمَكَاتِبِ؛ فَيَظْهَرُ شِعَارُ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْهَلَ عَلَىٰ أَهْلِ الإِسْلَامِ فِي فِقْهِ مَعَانِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ، بِخِلَافِ مَنِ اعْتَادَ لُغَةً ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَىٰ أُخْرَىٰ فَإِنَّهُ يَصْعُبُ»[(١)].

وَيَدُلُّ عَلَىٰ اكْتِسَاحِ العَرَبِيَّةِ لُغَاتِ البِلَادِ المَفْتُوحَةِ -سِوَىٰ مَا ذَكَرَهُ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِيمَا تَقَدَّمَ- تِلْكَ الأَنَّةُ الشَّاكِيَةُ الَّتِي كَتَبَهَا «أَلْفَارُو» مطْرَانُ[(٢)] قُرْطُبَةَ إِلَىٰ أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَثَمَانِمِئَةٍ مِنَ المِيلَادِ، يَصِفُ فِيهَا حَالَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَ لُغَةِ كِتَابِهِ «المُقَدَّسِ»! -زَعَمَ- وَكَيْفَ تَحَوَّلَ أَتْبَاعُهُ، وَأَتْبَاعُ كِتَابِهِ بِالأَمْسِ، إِلَىٰ لُغَةِ القُرْآنِ المَجِيدِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ مَضَىٰ عَلَىٰ فَتْحِ الأَنْدَلُسِ غَيْرُ مِئَةٍ وَأَرْبَعِينَ عَامًا، عِنْدَمَا كَتَبَ تِلْكَ الرِّسَالَةَ الشَّاكِيَةَ.

كَتَبَ «أَلْفَارُو» مَطْرَانُ «قُرْطُبَةَ» سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَثَمَانِمِئَةٍ لِلْمِيلَادِ إِلَىٰ أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ يَقُولُ: مَنِ الَّذِي يَعْكُفُ اليَوْمَ بَيْنَ أَتْبَاعِنَا مِنَ المُؤْمِنِينَ عَلَىٰ

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٨).

(٢) مَطْرَانُ النصارىٰ -بفتح الميم وكسرها-: رئيسٌ دينيٌّ عندهم، وهو دون البطريرك وفوق الأُسقف. «المعجم الوسيط» (٢/ ٨٧٥).

دِرَاسَةِ الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ، أَوْ يَرْجِعُ إِلَىٰ كِتَابِ أَيِّ عَالِمٍ مِنْ عُلَمَائِهَا، مِمَّنْ كَتَبُوا فِي اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ؟ مَنْ مِنْهُمْ يَدْرُسُ الإِنْجِيلَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ أَوِ الرُّسُلَ؟

إِنَّنَا لَا نَرَىٰ غَيْرَ شُبَّانٍ مَسِيحِيِّينَ -كَذَا- هَامُوا حُبًّا بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، يَبْحَثُونَ عَنْ كُتُبِهَا وَيَقْتَنُونَهَا، وَيَدْرُسُونَهَا فِي شَغَفٍ، وَيُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا، وَيَتَحَدَّثُونَ بِهَا فِي طَلَاقَةٍ، وَيَكْتُبُونَ بِهَا فِي جَمَالٍ وَبَلَاغَةٍ، وَيَقُولُونَ فِيهَا الشِّعْرَ فِي رِقَّةٍ وَأَنَاقَةٍ، يَا لَلْحُزْنِ! مَسِيحِيُّونَ -كَذَا- يَجْهَلُونَ كِتَابَهُمْ وَقَانُونَهُمْ وَلَاتِينِيَّتَهُمْ، وَيَنْسَوْنَ لُغَتَهُمْ نَفْسَهَا، وَلَا يَكَادُ الوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتُبَ رِسَالَةً مَعْقُولَةً لِأَخِيهِ مُسَلِّمًا عَلَيْهِ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ جَمْعًا لَا يُحْصَىٰ يُظْهِرُ تَفَوُّقَهُ وَتَمَكُّنَهُ مِنَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ».

وَلَا تَحْسَبَنَّ قَوْلَ هَذَا «الْفَارُو» دَالًّا عَلَىٰ فَرْضِ العَرَبِ المُسْلِمِينَ لُغَتَهُمْ عَلَىٰ الشُّعُوبِ المَفْتُوحَةِ، بَلْ كَلَامُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ ضِدِّ هَذَا الحِسْبَانِ، حَيْثُ ذَكَرَ أَنَّ الشُّبَّانَ الَّذِينَ انْصَرَفُوا إِلَىٰ العَرَبِيَّةِ -شِعْرًا وَنَثْرًا- ظَلُّوا عَلَىٰ دِينِهِمْ وَلَمْ يُفَارِقُوهُ، وَهَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ أُمَّ النَّقَائِصِ فِيهِمْ، إِلَّا أَنَّهَا تَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَىٰ أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ إِذَا خُلِّيَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّاسِ، اكْتَسَحَتْ جَمِيعَ مَا يَعْتَرِضُ طَرِيقَهَا مِنْ لُغَاتٍ.

وَأَمَّا عَدَمُ إِسْلَامِ أُولَئِكَ الشُّبَّانِ المَذْكُورِينَ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ، فَلَهُ أَسْبَابٌ تُطْلَبُ مِنْ مَظَانِّهَا فِي تَارِيخِ انْتِشَارِ الإِسْلَامِ فِي الأَنْدَلُسِ، ثُمَّ انْحِسَارِ مَدِّ مَوْجِ المُسْلِمِينَ عَنْ ذَلِكَ القُطْرِ الضَّائِعِ السَّلِيبِ.

وَلَقَدْ وَضَعَ الأُصُولِيُّونَ لِلْمُجْتَهِدِ شُرُوطًا -بَعْضُهَا مَثَارُ خِلَافٍ، وَسَائِرُهَا لَا خِلَافَ عَلَيْهِ- جَعَلُوا مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِلُغَةِ الكِتَابِ العَزِيزِ.

قَالَ فِي «الإِبْهَاج» فِي بَيَانِ شُرُوطِ المُجْتَهِدِ: «عِلْمُ العَرَبِيَّةِ لُغَةً وَنَحْوًا وَتَصْرِيفًا، فَلْيَعْرِف القَدْرَ الَّذِي يَفْهَمُ بِهِ خِطَابَ العَرَبِ، وَعَادَاتِهِمْ فِي الاسْتِعْمَالِ، إِلَىٰ حَدٍّ يُمَيِّزُ بِهِ مِنْ صَرِيحِ الكَلَامِ، وَظَاهِرِهِ، وَمُجمَلِهِ، وَمُبَيَّنِهِ، وَحَقِيقَتِهِ، وَمَجَازِهِ، وَعَامِّهِ، وَخَاصِّهِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْلُغَ مَبْلَغَ الخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ»[١].

وَقَالَ الشِّيرَازِيُّ فِي «صِفَةِ المُفْتِي»: «وَيَعْرِفُ الطُّرُقَ الَّتِي يَعْرِفُ بِهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ أَحْكَامِ الخِطَابِ، وَمَوَارِدِ الكَلَامِ وَمَصَادِرِهِ مِنَ الحَقِيقَةِ وَالمَجَازِ، وَالعَامِّ وَالخَاصِّ، وَالمُجْمَلِ وَالمُفَصَّلِ، وَالمُطْلَقِ وَالمُقَيَّدِ، وَالمَنْطُوقِ، وَالمَفْهُومِ، وَيَعْرِفُ مِنَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مَا يَعْرِفُ بِهِ مُرَادَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمُرَادَ رَسُولِهِ ﷺ فِي خِطَابِهِمَا»[٢].

وَفِي «الوَجِيز» فِي بَيَانِ أَوَّلِ شَرْطٍ مِنْ شُرُوطِ الاجْتِهَادِ: «عَلَىٰ المُجْتَهِدِ أَنْ يَعْرِفَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ عَلَىٰ وَجْهٍ يَتَمَكَّنُ بِهِ مِنْ فَهْمِ خِطَابِ العَرَبِ، وَمَعَانِي مُفْرَدَاتِ كَلَامِهِمْ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي التَّعْبِيرِ، إِمَّا بِالسَّلِيقَةِ[٣]، وَإِمَّا بِالتَّعَلُّمِ بِأَنْ يَتَعَلَّمَ

(١) «الإبهاج في شرح المنهاج» لعلي بن عبد الكافي السبكي، وولده عبد الوهاب (٣/ ٢٥٥).

(٢) «اللمع في أصول الفقه» لأبي إسحاق الشيرازي (ص١٢٧).

(٣) لا تكونُ السَّليقة اللغوية في هذا الزمَان بغيرِ التعلُّم؛ لأنَّ أحدًا لا يُعاشِر أعرابًا أقحَاحًا يَتَلَقَّىٰ عنهم اللغةَ من صِغَره، بل لابُدَّ من التعلُّم في كلِّ حالٍ.

عُلُومَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ نَحْوٍ وَصَرْفٍ وَبَلَاغَةٍ وَأَدَبٍ وَمَعَانٍ وَبَيَانٍ، وَإِنَّمَا كَانَ تَعَلُّمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَىٰ هَذَا الوَجْهِ ضَرُورِيًّا لِلْمُجْتَهِدِ؛ لِأَنَّ نُصُوصَ الشَّرِيعَةِ وَرَدَتْ بِلِسَانِ العَرَبِ فَلَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا وَاسْتِفَادَةُ الأَحْكَامِ مِنْهَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ عَلَىٰ نَحْوٍ جَيِّدٍ، لَاسِيَّمَا وَأَنَّ نُصُوصَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَرَدَتْ فِي غَايَةِ البَلَاغَةِ وَالفَصَاحَةِ وَالبَيَانِ.

فَلَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا حَقَّ الفَهْمِ، وَتَذَوُّقُ مَعَانِيهَا وَإِدْرَاكُ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَالإِحَاطَةِ بِأَسَالِيبِهَا فِي التَّعْبِيرِ وَأَسْرَارِهَا البَلَاغِيَّةِ وَالبَيَانِيَّةِ، وَمَا تُومِئُ إِلَيْهِ كَلِمَاتُهَا وَعِبَارَاتُهَا، وَبِقَدْرِ تَضَلُّعِ المُجْتَهِدِ فِي مَعْرِفَةِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ تَكُونُ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ فَهْمِ النُّصُوصِ وَإِدْرَاكِ مَعَانِيهَا القَرِيبَةِ وَالبَعِيدَةِ، وَلَكِنْ لَا يُشْتَرَطُ فِي المُجْتَهِدِ أَنْ يَعْرِفَ اللُّغَةَ مَعْرِفَةَ أَئِمَّتِهَا وَالمَشْهُورِينَ فِيهَا، وَإِنَّمَا يَكْفِيهِ مِنْهَا القَدْرُ اللَّازِمُ لِفَهْمِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ فَهْمًا سَلِيمًا، يُمَكِّنُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ المُرَادِ مِنْهَا»[1].

وَلَوْ تَتَبَّعْنَا الشُّرُوطَ الَّتِي ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ فِي كُتُبِ الأُصُولِ عَامَّةً، لَوَجَدْنَا شَرْطَ اللُّغَةِ قَائِمًا لَا يَرِيمُ، وَهَذَا الأَمْرُ مِنَ الوُضُوحِ بِحَيْثُ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ الحَدِيثِ عَنْهُ، وَمَا كَانَ مِنْ بَحْثِنَا أَنْ نُطِيلَ النَّفَسَ حَتَّىٰ نَنْتَهِيَ إِلَىٰ أَنَّ اللُّغَةَ شَرْطٌ فِي المُجْتَهِدِ لَا مَنَاصَ لَهُ مِنْهُ.

إِنَّمَا الكَلَامُ -فِي هَذَا البَحْثِ- عَنِ المُسْلِمِينَ عَامَّةً عَرَبًا وَعَجَمًا، وَعَنِ

(١) «الوجيز في أصول الفقه» (ص٤٠٢).

العُلَمَاءِ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ مَرْتَبَةَ الاجْتِهَادِ، وَعَنِ الخُطَبَاءِ وَالدُّعَاةِ وَمُعَلِّمِي الدِّينِ، هَلْ هَؤُلَاءِ يَلْزَمُهُمْ أَنْ يَتَعَلَّمُوا مِنَ العَرَبِيَّةِ مَا يَفْهَمُونَ بِهِ كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ أَمْ يَكْفِي أَنْ يَظَلُّوا عَلَىٰ أَعْجَمِيَّتِهِمْ فِي العَرَبِيَّةِ، أَوْ عَجَمِيَّتِهِمْ فِي غَيْرِهَا، لَا يُحْسِنُونَ جَمِيعًا مِنَ العَرَبِيَّةِ شَيْئًا؟!

والشَّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ شَرطَ اللُّغَةِ فِي المُجْتَهِدِ، ذَكَرَ قَولَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِوجُوبِ أَنْ يَتَعَلَّمَ المُسْلِمُ مِن لِسَانِ العَرَبِ مَا يَبْلُغُهُ جَهْدُهُ فِي أَدَاءِ فَرضِهِ، وَذَكَرَ قَولَ المَاوَردِيِّ: إِنَّ مَعرِفَةَ لِسَانِ العَرَبِ فَرضٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ مِن مُجْتَهِدٍ وَغَيْرِهِ.

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشَّرْطُ الثَّالِثُ -أَيْ: مِنْ شُرُوطِ المُجْتَهِدِ-: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِلِسَانِ العَرَبِ، بِحَيْثُ يُمْكِنُهُ تَفْسِيرُ مَا وَرَدَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الغَرِيبِ وَنَحْوِهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لَهَا عَنْ -كَذَا- ظَهْرِ قَلْبٍ.

بَلِ المُعْتَبَرُ أَنْ يَكُونَ مُتَمَكِّنًا مِنَ اسْتِخْرَاجِهَا مِنْ مُؤَلَّفَاتِ الأَئِمَّةِ المُشْتَغِلِينَ بِذَلِكَ، وَقَدْ قَرَّبُوهَا أَحْسَنَ تَقْرِيبٍ، وَهَذَّبُوهَا أَبْلَغَ تَهْذِيبٍ، وَرَتَّبُوهَا عَلَىٰ حُرُوفِ المُعْجَمِ تَرْتِيبًا لَا يَصْعُبُ الكَشْفُ عَنْهُ، وَلَا يَبْعُدُ الاطِّلَاعُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهَا، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطَائِفِ المَزَايَا؛ مَنْ كَانَ عَالِمًا بِعِلْمِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالمَعَانِي وَالبَيَانِ، حَتَّىٰ يَثْبُتَ لَهُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ هَذِهِ مَلَكَةٌ يَسْتَحْضِرُ بِهَا كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عِنْدَ وُرُودِهِ، فَإِنَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُ فِي الدَّلِيلِ نَظَرًا صَحِيحًا، وَيَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الأَحْكَامَ اسْتِخْرَاجًا قَوِيًّا.

وَمَنْ جَعَلَ المِقْدَارَ المُحْتَاجَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الفُنُونِ مَعْرِفَةَ مُخْتَصَرَاتِهَا أَوْ كِتَابٍ مُتَوَسِّطٍ مِنَ المُؤَلَّفَاتِ المَوْضُوعَةِ فِيهَا، فَقَدْ أَبْعَدَ، بَلِ الاسْتِكْثَارُ مِنَ المُمَارَسَةِ لَهَا، وَالتَّوَسُّعُ فِي الاطِّلَاعِ عَلَىٰ مُطَوَّلَاتِهَا مِمَّا يَزِيدُ المُجْتَهِدَ قُوَّةً فِي البَحْثِ، وَبَصَرًا فِي الاسْتِخْرَاجِ، وَبَصِيرَةً فِي حُصُولِ مَطْلُوبِهِ.

وَالحَاصِلُ: أَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ تَثْبُتَ لَهُ المَلَكَةُ[١] القَوِيَّةُ فِي هَذِهِ العُلُومِ، وَإِنَّمَا تَثْبُتُ هَذِهِ المَلَكَةُ بِطُولِ المُمَارَسَةِ، وَكَثْرَةِ المُلَازَمَةِ لِشُيُوخِ هَذَا الفَنِّ.

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ: يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ العَرَبِ مَا يَبْلُغُهُ جُهْدُهُ فِي أَدَاءِ فَرْضِهِ.

قَالَ المَاوَرْدِيُّ: وَمَعْرِفَةُ لِسَانِ العَرَبِ فَرْضٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ مُجْتَهِدٍ وَغَيْرِهِ»[٢].

فَانظُرْ -رَحِمَكَ اللهُ- كَيفَ عَقَّبَ هَذَا الإِمَامُ المُحَقِّقُ شَرْطَ اللُّغَةِ فِي المُجْتَهِدِ بِقَولِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَبِقَولِ المَاوَردِيِّ، حَتَّىٰ يَفْصِلَ بَيْنَ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المُجْتَهِدِ مِنَ الإِلْمَامِ باللُّغَةِ إِلْمَامًا مُستَفِيْضًا، وَمَا يَجِبُ عَلَىٰ المُسْلِمِ لِفَهْمِ كِتَابِ رَبِّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ.

وَالَّذِي دَفَعَنِي إِلَىٰ ذِكْرِ المُجْتَهِدِينَ فِي هَذَا المَبحَثِ، الخَلْطُ الوَاقِعُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي مَعْنَىٰ الاجتِهَادِ، فَهُمْ يَصْرِفُونَهُ إِلَىٰ المُجْتَهِدِ المُطْلَقِ،

(١) انظر في تفصيل هذه الملكة: «مقدمة ابن خلدون» (ص٥٢٢ وما حولها).

(٢) «إرشاد الفحول» للشوكاني (٢/ ٧١٩).

وَيَستَحضِرُونَ صُوَرًا ذِهنِيَّةً لَا تَنْطَبِقُ إِلَّا عَلَىٰ مِثْلِ الأئمَّةِ الأربَعَةِ، وَيَجْعَلُونَ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مُعَطَّلَيْنِ عَنِ الفَهْمِ فِيهِمَا، والاستِنْبَاطِ مِنْهُمَا؛ لأَنَّهُ قَلَّ أَنْ تَجِدَ أَحَدًا يَصِلُ إِلَىٰ رُتبَةِ الاجتِهَادِ المُطْلَقِ الَّتِي وَضَعَ لَهَا بَعْضُ الأُصُولِيِّينَ شُرُوطًا رُبَّمَا لَم تَتَوَفَّرْ فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ! وَهَكَذَا يَخلِطُ النَّاسُ.

وَقَد ذَكَرَ الآمدِيُّ شَرْطَ المُجْتَهِدِ المُطْلَقِ، ثُمَّ قَالَ: «وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يُشتَرَطُ فِي حَقِّ المُجتَهِدِ المُطْلَقِ المُتَصَدِّي للحُكْمِ وَالفَتْوَىٰ فِي جَمِيعِ مَسَائِلِ الفِقْهِ.

وَأَمَّا الاجتِهَادُ فِي حُكْمِ بَعْضِ المَسَائِلِ؛ فَيَكْفِي فِيهِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِتِلْكَ المَسْأَلَةِ، وَمَا لَابُدَّ مِنْهُ فِيهَا، وَلَا يَضُرُّهُ فِي ذَلِكَ جَهْلُهُ بِمَا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِهَا، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِبَاقِي المَسَائِلِ الفِقهِيَّةِ، كَمَا أَنَّ المُجتَهِدَ المُطْلَقَ قَد يَكُونُ مُجْتَهِدًا فِي المَسَائِلِ الكَثِيرةِ، بَالِغًا رُتْبَةَ الاجتِهَادِ فِيهَا، وَإِن كَانَ جَاهِلًا بِبَعضِ المَسَائِلِ الخَارِجَةِ عَنْهَا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِن شَرْطِ المُفتِي أَن يَكُونَ عَالِمًا بِجَمِيعِ أَحْكَامِ المَسَائِلِ وَمَدَارِكِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ وُسْعِ البَشَرِ.

وَلِهَذَا نُقِلَ عَن مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَن أَرْبَعِينَ مَسأَلَةً، فَقَالَ فِي سِتٍّ وَثَلَاثِينَ مِنْهَا: «لَا أَدرِي»»[1].

إِذَا نَظَرْتَ فِي كَلَامِ الشَّوكَانِيِّ وَالآمدِيِّ -السَّابِقِ- ثُمَّ نَظَرْتَ فِي كَلَامِ الشَّاطِبِيِّ الآتِي بَعْدُ -إِنْ شَاءَ اللهُ- عَلِمْتَ أَنَّ كَلِمَةَ «النَّاظِرِ» فِي كَلَامِ الشَّاطِبِيِّ

(١) «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (٤/ ٢٢١).

تَتوجَّه إِلَىٰ مُطْلَقِ النَّاظِرِ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، ثُمَّ يَكُونُ الأَخْذُ مِنَ اللُّغَةِ عَلَىٰ قَدْرِ الوُسْعِ وَالطَّاقَةِ.

قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَلَىٰ «النَّاظِرِ» فِي الشَّرِيعَةِ وَالمُتَكَلِّمِ فِيهَا أُصُولًا وَفُرُوعًا أَمْرَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِي شَيءٍ مِن ذَلِكَ حَتَّىٰ يَكُونَ عَرَبِيًّا، أَو كَالعَرَبِيِّ فِي كَوْنِهِ عَارِفًا بِلِسَانِ العَرَبِ، بَالِغًا فِيهِ مَبَالِغَ العَرَبِ، أَو مَبَالِغَ الأَئِمَّةِ المُتَقَدِّمِينَ؛ كَالخَلِيلِ، وَسيبويهِ، وَالكسَائِيِّ، وَالفَرَّاءِ، وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ وَدَانَاهُم، وَلَيْسَ المُرَادُ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا كَحِفْظِهِم، وَجَامِعًا كَجَمْعِهِم، وَإِنَّمَا المُرَادُ أَن يَصِيرَ فَهْمُهُ عَرَبيًّا فِي الجُمْلَةِ، وَبِذَلِكَ امْتَازَ المُتَقَدِّمُونَ مِنْ عُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ عَنِ المُتَأَخِّرِينَ؛ إِذْ بِهَذَا المَعنَىٰ أَخَذُوا أَنْفُسَهُم حَتَّىٰ صَارُوا أَئِمَّةً؛ فَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ؛ فَحسْبُهُ فِي فَهْمِ مَعَانِي القُرْآنِ التَّقْلِيدُ وَأَلَّا يُحسِّنَ ظَنَّهُ بِفَهْمِهِ دُونَ أَنْ يَسْأَلَ فِيهِ أَهْلَ العِلْمِ بِهِ...

وَقَدْ خَرَّجَ ابنُ وَهْبٍ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: أَرَأيتَ الرَّجُلَ يَتَعَلَّمُ العَرَبِيَّةَ لِيُقِيمَ بِهَا لِسَانَهُ وَيُصْلِحَ بِهَا منطِقَهُ؟

قَالَ: نَعَمْ، فَلْيَتَعَلَّمْهَا؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَقْرَأُ الآيَةَ فَيَعْيَا بِوَجْهِهَا فَيَهْلِك.

وَعَنِ الحَسَنِ قَالَ: أَهْلَكَتْهُمُ العُجْمَةُ؛ يَتَأَوَّلُونَ القُرْآنَ عَلَىٰ غَيرِ تَأْوِيلِهِ.

وَالأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيهِ فِي الكِتَابِ أَوْ فِي السُّنَّةِ لَفْظٌ أَو مَعْنًىٰ؛ فَلَا يُقْدِمُ عَلَىٰ القَولِ فِيهِ دُونَ أَنْ يَسْتَظْهِرَ بِغَيرِهِ مِمَّنْ لَهُ عِلْمٌ بِالعَرَبِيَّةِ.

فَقَدْ يَكُونُ إِمَامًا فِيهَا، وَلَكِنَّهُ يَخْفَىٰ عَلَيهِ الأَمْرُ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ؛ فَالأَوْلَىٰ فِي حَقِّهِ الاحتِيَاطُ، إِذْ قَدْ يَذْهَبُ عَلَىٰ العَرَبِيِّ المَحْضِ بَعْضُ المَعَانِي الخَاصَّةِ، حتَّىٰ يَسْأَلَ عَنْهَا»[١].

نَقَلَ السّيُوطِيُّ عَنِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فِي «صَونِ المَنْطِقِ» قَوْلَهُ: «مَا جَهِلَ النَّاسُ وَلَا اختَلَفُوا إِلَّا لِتَرْكِهِم لِسَانَ العَرَبِ، وَمَيْلِهِم إِلَىٰ لِسَانِ أرسطَاطَالِيس»[٢].

وَقَالَ السّيُوطِيُّ: «وَقَدْ وَجَدْتُ السَّلَفَ قَبْلَ الشَّافِعِيِّ أَشَارُوا إِلَىٰ مَا أَشَارَ إِلَيهِ مِنْ أَنَّ سَبَبَ الابتِدَاعِ: الجَهْلُ بِلِسَانِ العَرَبِ»[٣].

قَالَ الشَّاطِبِيُّ فِي «المُوَافَقَاتِ»: «إِنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ المُبَارَكَةَ عَرَبِيَّةٌ، لَا مَدْخَلَ فِيهَا للأَلْسِنَةِ الأَعْجَمِيَّةِ...

والقُرآنُ نَزَلَ بِلِسَانِ العَرَبِ، فَطَلَبُ فَهْمِهِ إِنَّمَا يَكُونُ مِن هَذَا الطَّرِيقِ خَاصَّةً، فمَنْ أَرَادَ تَفَهُّمَهُ، فَمِنْ جِهَةِ لِسَانِ العَرَبِ يُفهَمُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ تَطَلُّبِ فَهْمِهِ مِن غَيْرِ هَذِهِ الجِهَةِ.

فَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ العَرَبِ، وَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا عُجْمَةَ فِيهِ، فَبِمَعْنَىٰ أَنَّهُ أُنزِلَ عَلَىٰ لِسَانِ مَعهُودِ العَرَبِ فِي أَلفَاظِهَا الخَاصَّةِ، وَأَسَالِيبِ مَعَانِيهَا...

---

(١) «الاعتصام» (٣/ ٣٦١).

(٢) «صون المنطق» للسيوطي (ص١٥).

(٣) «صون المنطق» (ص٢٢).

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَالقُرآنُ فِي مَعَانِيهِ وَأَسَالِيبِهِ عَلَىٰ هَذَا التَّرْتِيبِ، فَكَمَا أَنَّ لِسَانَ بَعْضِ الأَعَاجِمِ لَا يُمْكِنُ أَن يُفْهَمَ مِن جِهَةِ لِسَانِ العَرَبِ، كَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَن يُفْهَمَ لِسَانُ العَرَبِ مِن جِهَةِ فَهْمِ لِسَانِ العَجَمِ، لاختِلَافِ الأَوْضَاعِ وَالأَسَالِيبِ»(١).

لَقَد كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم لِتَمَامِ وَعْيِهِم، وَكَمَالِ عِلْمِهِم: شَدِيدِي الحِرْصِ عَلَىٰ لُغَةِ الكِتَابِ العَزِيزِ وَالسُّنَّةِ المُشَرَّفَةِ، فَأَمَرُوا بِالحِفَاظِ عَلَيهَا، وَعَاقَبُوا لِمُخَالَفَتِهَا، وَكَذَلِكَ فَعَلَ مَنْ بَعْدَهُم مِمَّن نَهَجَ نَهْجَهُم، وَسَارَ عَلَىٰ دَرْبِهِم.

أَخْرَجَ ابنَ أَبِي شَيْبَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَن نَافِعٍ، عَن ابنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ وَلَدَهُ عَلَىٰ اللَّحْنِ(٢).

وَأَخْرَجَ عَن يَحيَىٰ بن يَعْمُرَ عَن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: «تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ كَمَا تَعَلَّمُونَ حِفْظَ القُرآنِ»(٣).

وَحَدَّثَ أَبُو دَاود الطَّيَالِسِيُّ، عَن شُعْبَةَ، عَن أَبِي رَجَاءٍ، قَالَ: سَأَلْتُ مُحَمَّدًا عَن نَقْطِ المَصَاحِفِ فَقَالَ: «أَخَافُ أَن تَزِيدُوا فِي الحُرُوفِ أَو تُنْقِصُوا مِنْهَا، وَسَأَلْتُ الحَسَنَ فَقَالَ: مَا بَلَغَكَ مَا كَتَبَ بِهِ عُمَرُ أَن تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ، وَحُسْنَ العِبَارَةِ، وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»(٤).

---

(١) «الموافقات» للشاطبي (٢/ ١٠١).
(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٠/ ٨/ ٣٠٥٢١).
(٣) «المصنف» (١٠/ ٧/ ٣٠٥١٧)، ويحيىٰ رَحِمَهُ اللهُ لم يدرك أُبيًّا رضي الله عنه.
(٤) «المصنف» (١٠/ ٨/ ٣٠٥٢٤)

وَأَخْرَجَ الدَّارِميُّ فِي السُّنَنِ بِسَنَدِهِ عَن عُمَرَ ﷺ قَالَ: «تَعَلَّمُوا الفَرَائِضَ واللَّحْنَ، وَالسُّنَنَ، كَمَا تَعَلَّمُونَ القُرْآنَ»[١].

وَأَخْرَجَ ابنُ عَبد البرِّ حَدِيثَ عُمَرَ بِسَنَدِهِ عَن مورقٍ العجلِيِّ، قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ: «تَعَلَّمُوا الفَرَائِضَ، وَالسُّنَّةَ، وَاللَّحْنَ، كَمَا تَعَلَّمُونَ القُرْآنَ»[٢].

قَالَ ابنُ عَبد البرِّ: «قَالُوا: اللَّحْنُ: مَعرفَةُ وُجُوهِ الكَلَامِ وَتَصرُّفِهِ، وَالحُجَّةِ بِهِ».

وَرَوَىٰ ابنُ أَبِي شَيبَةَ عَن عبدِ الله ﷺ قَالَ: «أَعْرِبُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ»[٣].

وَرَوَىٰ عَن عُمَرَ ﷺ قَالَ: «تَعَلَّمُوا اللَّحْنَ وَالفَرَائِضَ؛ فَإِنَّهُ مِن دِينِكُمْ»[٤].

وَرَوَىٰ عَن أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ: «مِن فِقْهِ الرَّجُلِ عِرفَانُهُ اللَّحْنَ»[٥].

وَقَد عَقَدَ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الجَامِعِ لأخلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ»، بَابًا فِي القَوْلِ فِي رَدِّ الحَدِيثِ إِلَىٰ الصَّوَابِ إِذَا كَانَ رَاوِيهِ قَدْ خَالَفَ مُوجَبَ الإِعرَابِ، قَالَ رَحِمَهُ اللهُ فِيهِ: «وَالَّذِي نَذْهَبُ إِلَيهِ: رِوَايَةُ الحَدِيثِ عَلَىٰ الصَّوَابِ، وَتَرْكُ اللَّحْنِ فِيهِ وَإِنْ كَانَ قَد سُمِعَ مَلحُونًا؛ **لأَنَّ مِنَ اللَّحْنِ مَا يُحِيلُ**

(١) «سنن الدارمي» (٢/ ٢٣١/ ٢٨٥٠)، وهو صحيحٌ موقوفٌ.
(٢) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ١٠٠٩).
(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٠/ ٨/ ٣٠٥١٨).
(٤) «المصنف» (١٠/ ٩/ ٣٠٥٢٨).
(٥) «المصنف» (١٠/ ٩/ ٣٠٥٢٩).

الأَحْكَامَ، وَيُصَيِّرُ الحَرَامَ حَلَالًا، وَالحَلَالَ حَرَامًا، فَلَا يَلْزَمُ اتِّبَاعُ السَّمَاعِ فِيمَا هَذِهِ سَبِيلُهُ.

وَالَّذِي ذَهَبْنَا إِلَيهِ قَوْلُ المُحَصِّلِينَ، وَالعُلَمَاءِ مِنَ المُحَدِّثِينَ»[١].

وَقَالَ: «**فَيَنبَغِي للمُحَدِّثِ أَن يَتَّقِيَ اللَّحْنَ فِي رِوَايَتِهِ، للعِلَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَلَن يَقْدِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ دَرْسِهِ النَّحوَ، وَمُطَالَعَتِهِ العَرَبِيَّةَ**»[٢].

وَذَكَرَ الخَطِيبُ آثَارًا فِي «الجَامِع» تَحْتَ عنوَان: «التَّرْغِيبُ فِي تَعَلُّمِ النَّحْوِ وَالعَرَبِيَّةِ لأَدَاءِ الحَدِيثِ بِالعِبَارَةِ السَّوِيَّةِ».

رَوَىٰ الخَطِيبُ بِسَنَدِهِ عَن عَبدِ الوَارِثِ بنِ سَعِيدٍ العَنبَرِيِّ، قَالَ: «حَدَّثَنِي أَبُو مُسْلِمٍ مُنذُ خَمسِينَ سَنَةً: أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ قَالَ: تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ، فَإِنَّهَا تَزِيدُ فِي المُرُوءَةِ»[٣].

وَرَوَىٰ عَن سَالِمِ بنِ قُتَيبَةَ قَالَ: «**كُنْتُ عِنْدَ ابنِ هُبَيرَةَ الأَكبَرِ، فَجَرَىٰ الحَدِيثُ حَتَّىٰ جَرَىٰ ذِكْرُ العَرَبِيَّةِ، فَقَالَ: وَاللهِ، مَا اسْتَوَىٰ رَجُلَانِ دِينُهُمَا وَاحِدٌ، وَحَسَبُهُمَا وَاحِدٌ، وَمُرُوءَتُهُمَا وَاحِدَةٌ، أَحَدُهُمَا يَلْحَنُ، وَالآخَرُ لَا يَلْحَنُ، إِنَّ أَفْضَلَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ الَّذِي لَا يَلْحَنُ.**

قُلْتُ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ، هَذَا أَفْضَلُ فِي الدُّنْيَا لِفَضْلِ فَصَاحَتِهِ وَعَرَبِيَّتِهِ،

(١) «الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (٢/ ٢٣).

(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٤).

(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٥).

أَرَأَيتَ الآخِرَةَ، مَا بَالُهُ فُضِّلَ فِيهَا؟

قَالَ: إِنَّهُ يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ عَلَىٰ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ، وَإِنَّ الَّذِي يَلْحَنُ يَحْمِلُهُ لَحْنُهُ عَلَىٰ أَنْ يُدْخِلَ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَيْسَ فِيهِ، وَيُخرِج مِنْهُ مَا هُوَ فِيهِ.

قَالَ: قُلْتُ: صَدَقَ الأَمِيرُ وَبَرَّ»[(١)].

وَرَوَىٰ الخَطِيبُ عَن شُعْبَةَ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الحَدِيثَ فَلَمْ يُبصِرِ العَرَبِيَّةَ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ عَلَيهِ بُرْنُسٌ وَلَيْسَ لَهُ رَأْسٌ»[(٢)].

وَعَن حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَطْلُبُ الحَدِيثَ وَلَا يَعْرِفُ النَّحْوَ، مَثَلُ الحِمَارِ عَلَيهِ مِخْلَاةٌ لَا شَعِيرَ فِيهَا»[(٣)].

وَرَوَىٰ ابنُ الصَّلَاحِ بِسَنَدِهِ عَن الأصمعِيِّ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ إِذَا لَم يَعْرِفِ النَّحْوَ أَن يَدخُلَ فِي جُمْلَةِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[(٤)]؛ لأنَّه ﷺ لَم يَكُنْ يَلْحَنُ، فَمَهْمَا رَوَيتَ عَنْهُ حَدِيثًا وَلَحَنْتَ فِيهِ، كَذَبْتَ عَلَيهِ»[(٥)].

وَرَوَىٰ الخَطِيبُ فِي «الكِفَايَة» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ أَنَّهُ قِيلَ للأَعْمَشِ: «إِنْ كَانَ

---

(١) «الجامع» (٢/ ٢٥)، و«روضة العقلاء» لابن حبان (ص٢٢٠).

(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٦)، و«مقدمة ابن الصلاح» (ص٤٠٠)، والبُرْنُسُ: كلُّ ثوبٍ رأسُهُ منه ملتزِقٌ به.

(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٦)، و«مقدمة ابن الصلاح» (ص٤٠٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٠٧)، ومسلم في المقدمة (٢).

(٥) «مقدمة ابن الصلاح» (ص٤٠٠)، و«روضة العقلاء» لابن حبان (ص٢٢٣).

ابنُ سِيرِينَ لَيَسْمَعُ الحَدِيثَ فِيهِ اللَّحْنُ، فَيُحَدِّثُ بِهِ عَلَىٰ لَحْنِهِ، فَقَالَ الأَعْمَشُ: إِنْ كَانَ ابنُ سِيرِينَ يَلْحَنُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَلْحَنْ، يَقُولُ: قَوِّمْهُ»[١].

وَرَوَىٰ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ الأَوْزَاعِيِّ قَالَ: «أَعْرِبُوا الحَدِيثَ، فَإِنَّ القَوْمَ كَانُوا عَرَبًا»[٢].

وَبِسَنَدٍ حَسَنٍ عَن عَفَّانَ قَالَ: «قَالَ لِي حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ: «مَنْ لَحَنَ فِي حَدِيثِي، فَلَيْسَ يُحَدِّثُ عَنِّي»[٣].

وَرَوَىٰ الخَطِيبُ فِي «الجَامِع» عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: «النَّحْوُ فِي العِلْمِ كَالْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، لَا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ»[٤].

وَرَوَىٰ عَن أَبِي إِسْحَاقَ الطَّلْحِيِّ: «أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَانَ يَضْرِبُ الحَسَنَ وَالحُسَينَ عَلَىٰ اللَّحْنِ»[٥].

وَعَن عَمْرِو بنِ دِينَارٍ: «أَنَّ ابنَ عُمَرَ وَابْنَ عَبَّاسٍ كَانَا يَضْرِبَانِ أَوْلَادَهُمَا عَلَىٰ اللَّحْنِ»[٦].

وَرَوَىٰ الخَطِيبُ عَنِ المُغِيرَةِ بنِ عَبْد الرَّحْمَنِ قَالَ: «جَاءَ الدَّرَاوَرْدِيُّ

---

(١) «الكفاية في معرفة أصول علم الرواية» للخطيب البغدادي (١/ ٥٦٩).

(٢) «الكفاية» (١/ ٥٧١).

(٣) «الكفاية» (١/ ٥٧١).

(٤) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٨).

(٥) «الجامع» (٢/ ٢٨).

(٦) «الجامع» (٢/ ٢٩).

-يَعْنِي: عَبدَ العَزِيز بنَ مُحَمَّدٍ- إِلَىٰ أَبِي يَعْرِضُ عَلَيهِ الحَدِيثَ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَلْحَنُ لَحْنًا مُنْكَرًا، فَقَالَ لَهُ أَبِي: وَيْحَكَ! يَا دَرَاوَرْدِيُّ، أَنْتَ كُنْتَ بِإِقَامَةِ لِسَانِكَ قَبْلَ هَذَا الشَّأْنِ أَحْرَىٰ»[١].

وَعَن أَبِي زَيْدٍ النَّحويِّ قَالَ: «كَانَ الَّذِي حَدَانِي عَلَىٰ طَلَبِ الأَدَبِ وَالنَّحْوِ أَنِّي دَخَلْتُ عَلَىٰ جَعْفَرِ بنِ سُلَيمَانَ، فَقَالَ: اُدْنُهْ. فَقُلْتُ: أَنَا دَنِيٌّ. فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، لَا تَقُلْ: أَنَا دَنِيٌّ، وَلَكِنْ قُلْ: أَنَا دَانٍ»[٢].

وَرَوَىٰ ابنُ حِبَّانَ فِي «رَوْضَة العُقَلَاء»، عَنْ عَبدِ الرَّحْمَنِ بنِ مَهْدِيٍّ، قَالَ: «مَا نَدِمْتُ عَلَىٰ شَيءٍ نَدَامَتِي أَنِّي لَمْ أَنْظُرْ فِي العَرَبِيَّةِ»[٣].

وَعَنِ الأَصْمَعِيِّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا النَّحْوَ؛ فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَفَروا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، كَانَتْ مُشَدَّدَةً فَخَفَّفوهَا، قَالَ اللهُ: (يَا عِيسَىٰ إِنِّي وَلَّدْتُكَ)، فَقَرَءوا: يَا عِيسَىٰ إِنِّي وَلَدْتُك. مُخَفَّفًا، فَكَفَروا»[٤].

وَذَكَرَ ابنُ حِبَّانَ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي زَيدٍ النَّحْوِيِّ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ الحَسَنِ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ تَرَكَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ؟

فَقَالَ الحَسَنُ: تَرَكَ أَبَاهُ وَأَخَاهُ.

---

(١) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٦)

(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٧)

(٣) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبان البستي (ص٢٢١).

(٤) «روضة العقلاء» (ص٢٢٢).

قَالَ الرَّجُلُ: فَمَا لِأَبَاهُ وَلأَخَاهُ؟

فَقَالَ الحَسَنُ: فَمَا لأَبِيهِ وَأَخِيهِ؟

فَقَالَ الرَّجُلُ: كُلَّمَا تَابَعْتُكَ خَالَفْتَ!»[١].

وَقالَ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكَلَامُ مِثْلُ اللُّؤْلُؤِ الأَزْهَرِ، وَالزَّبَرْجَدِ الأَخْضَرِ، وَاليَاقُوتِ الأَحْمَرِ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مِثْلَ الخَزَفِ وَالحَجَرِ وَالتُّرَابِ وَالمَدَرِ.

وَأَحْوَجُ النَّاسِ إِلَىٰ لزُومِ الأَدَبِ وَتَعَلُّمِ الفَصَاحَةِ: أَهْلُ العِلْمِ؛ لِكَثْرَةِ قَرَاءَتِهِمُ الأَحَادِيثَ، وَخَوْضِهِم أَنْوَاعَ العُلُومِ»[٢].

وَذَكَرَ الزَّجَّاجِيُّ فِي «أَمَالِيه» بِسَنَدِهِ عَنْ شُعْبَةَ، قَالَ: «تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ فَإِنَّهَا تَزِيدُ فِي العَقْلِ»[٣].

«وَفِي إِنْزَالِ القُرْآنِ عَرَبِيًّا مِنْ أَعْلَىٰ المَرَاتِبِ: أَسْنَىٰ المَنَاقِبِ لِعِلْمِ العَرَبِيَّةِ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ المُدَّعَىٰ هُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ عَرَبِيًّا فِي سِيَاقِ التَّمَدُّحِ وَالثَّنَاءِ عَلَىٰ الكِتَابِ بِأَنَّهُ مُبِينٌ لَمْ يَتَضَمَّنْ لَبْسًا، عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَينِ يَدَيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٢٢٢).

(٢) «روضة العقلاء» (ص٢٢٣).

(٣) «أمالي الزجاجي» (ص١٨٥).

وَذَلِكَ يَدُلُّ دَلَالَةً ظَاهِرَةً عَلَىٰ شَرَفِ اللُّغَةِ التِي أُنزِلَ عَلَيْهَا، وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ.

وَحِينَئِذٍ لَو ادَّعَىٰ مُدَّعٍ أَنَّ تَعَلُّمَ هَذَا العِلْمِ وَاجِبٌ -فَضْلًا عَنْ أنْ يَدَّعِيَهُ مُسْتَحبًّا وَفَضِيلَةً وَمَنْقَبَةً- مِنْ حَيثُ إنَّ امتِثَالَ أَحْكَامِ اللهِ فِي كِتَابِهِ وَاجِبٌ، وَذَلِكَ مَوقُوفٌ عَلَىٰ فَهْمِ مَضْمُونِ الكِتَابِ، وَفَهْمُ مَضْمُونِ الكتَابِ مُتوقِّفٌ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ التِي أُنزِلَ الكِتَابُ بِهَا، وَمَأخَذُ ذَلِكَ مِنْ فَنِّ العَرَبيَّةِ بِالإجْمَاعِ، لَكَانَ[1] ذَلِكَ دَلِيلًا لَا جَوَابَ عِنْهُ، وَبِهِ احتَجَّ الأُصُولِيُّونَ عَلَىٰ وجُوبِهِ عَلىٰ الكِفَايَةِ.

فَالعَجَبُ مِمَّنْ يُنْكِرُ فَضْلَ هَذَا العِلْمِ: كَيفَ يُعَدُّ مِنَ النَّاسِ؟!

لَكِنْ، لَا جَرَمَ، لَمْ نَرَ أَحَدًا أَنْكَرَ فَضْلَهُ إِلَّا جَاهِلًا بِهِ، وَهُوَ معْذُورٌ، فَإِنَّ القَائِلَ يَقُولُ:

يَا نَفْسُ فَاستَيقِنِي عِلْمًا وَمَعْرِفَةً ... بِأَنَّ مَنْ جَهِلَ الأَشْيَا يُعادِيهَا

وَيُقَالُ فِي المَثَلِ: المَرءُ عَدُوٌّ مَا جَهِلَ.

وَقَولُه تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢]، نَفَىٰ أَنْ يَأتِيَهُ البَاطِلُ نَفْيًا عَامًّا، وَاللَّحْنُ بَاطِلٌ، فَيَجِبُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ الكِتَابِ، وَيَسْتَلزِمُ ذَلِكَ وجُوبَ صِنَاعَةِ الإعْرَابِ.

---

(١) هذا جوابُ «لو»، التي سبق ذكرها في الكلامِ.

أَمَّا بَيَانُ كَوْنِ اللَّحْنِ بَاطِلًا فَبِالإِجْمَاعِ.

وَقَوْلُه تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١-٢]؛ **أي: أَنْزَلَهُ مُسْتَقِيمًا لَا عِوَجَ فِيهِ.**

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر:٢٨]، **وَالعِوَجُ: هُوَ النَّقْصُ وَعَدَمُ الاستِقَامَةِ، وَاللَّحْنُ فِيهِ نَقْصٌ.**

فَمَنْ لَحَنَ فِيهِ فَقَدْ قَرَأَهُ عَلَىٰ عِوَجٍ، وَذَلِكَ تَرْكُ وَاجِبٍ، وَتَحْصِيلُ الوَاجِبِ وَاجِبٌ مَهْمَا أَمْكَنَ، كَسَائِرِ الوَاجِبَاتِ»[1].

«وَلَا شَكَّ وَلَا مِرْيَةَ عِنْدَ كُلِّ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ، وَطَبْعٍ مُسْتَقِيمٍ أَنَّ الصَّلَاحَ خَيرٌ مِنَ الفَسَادِ، وَالصِّحَّةَ خَيرٌ مِنَ السَّقَمِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ اللَّحْنَ فَسَادٌ لَهُ وَسَقَمٌ فِيهِ، وَإِعْرَابَهُ صَلَاحٌ لَهُ وَصِحَّةٌ فِيهِ.

وَهَاتَانِ مُقَدِّمَتَانِ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ إِنْكَارِهِمَا، وَحِينَئِذٍ يَلْزَمُ أَنَّ فَضْلَ عِلْمِ العَرَبِيَّةِ ثَابِتٌ بَدِيهَةً.

وَالحُجَّةُ الثَّانِيَةُ: إِجْمَاعُ العَالَمِ عَلَىٰ اسْتِحْسَانِ هَذَا العِلْمِ، وَالحَثِّ عَلَيهِ، وَالنَّدْبِ إِلَيهِ، سَلَفًا وَخَلَفًا، مُسْلِمًا وَكَافِرًا، عَرَبًا وَعَجَمًا، مِنْ لَدُنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وتَابِعِيهِم إِلَىٰ عَصْرِنَا هَذَا، عَلَىٰ مُرورِ الأَعْصَارِ، فِي جَمِيعِ الأَمْصَارِ، وَكُرورِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ، حَتَّىٰ إِنَّا لَنَرَىٰ الكُفَّارَ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ

(١) «الصعقة الغضبية» (ص٢٣٦).

يُكَافِحُونَ عَلَىٰ عِلْمِهِ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، عيَانًا وَسَمَاعًا.

فَكَتَبَ الحَرِيرِيُّ فِي كِتَابِ «**دُرَّةِ الغوَّاصِ فِي أوهامِ الخَوَاصِّ**»: أَنَّ يَهُودِيًّا سَأَلَ أَبَا عُثْمَانَ المَازِنِيَّ أَنْ يُقرِئَهُ كِتَابَ سِيبَوِيهِ، وَدَفَعَ إِلَيهِ مِئَةَ دِينَارٍ، فَرَدَّهَا، وَلَمْ يَفْعَلْ، وَكَانَ مُحْتَاجًا.

فَقَالَ لَهُ أَبُو العَبَّاسِ المُبَرِّدُ: لِمَ لَمْ تُقْرِئْهُ؟

فَقَالَ: إِنَّ فِي كِتَابِ سِيبَوِيهِ آيَاتٍ مِنَ القُرْآنِ، فَلَا أُقرِؤهَا يَهُودِيًّا.

فَلْيَرَ المُنكِرُ لِفَضْلِ هَذَا العِلْمِ عَلَامَ يَعْتَمِدُ بَعدَ مُخَالَفَةِ الإِجْمَاعِ؟

وَأَيُّ عَيبٍ يُرِيدُ لِنَفْسِهِ أَعْظَمُ مِنْ مُخَالَفَةِ إِجْمَاعِ العَالَمِ، فَهَلْ هُوَ إِلَّا فِي عِدَادِ البَهَائِمِ؟!

وَالحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَلَّفَ عِبَادَهُ بِمَا ضَمَّنَ كِتَابَهُ مِنَ الأَحْكَامِ، وَشَرَعَ لَهُمْ فِيهِ مِنْ بَيَانِ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ بِبَيَانِهِ، فَبَيَّنَه بِالسُّنَّةِ، وَهُمَا -أَعْنِي: الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ- عَرَبِيَّانِ، وَهُمَا أَصْلُ الشَّرِيعَةِ وَمُعتَمَدُهَا وَمَصْدَرُهَا وَمَوْرِدُهَا وَعِمَادُهَا وَمُسْتَنَدُهَا.

إِذِ الإِجْمَاعُ وَالقِيَاسُ ثَابِتَانِ بِهِمَا، فَهُمَا فَرْعٌ عَلَيهِمَا، نَازِعَانِ فِي الحَقِيقَةِ إِلَيهِمَا، وَلَا يُمْكِنُ امتِثَالُ مَأمُورِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ، وَرَسُولِهِ ﷺ فِي سُنَّتِه، إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ مُقْتَضَاهُمَا، وَلَا يُمْكِنُ فَهْمُ مُقْتَضَاهُمَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللُّغَةِ الَّتِي وَرَدَا بِهَا، وَهِيَ العَرَبِيَّةُ.

وَحِينَئِذٍ: امتِثَالُ التَّكَالِيفِ الوَاجِبَةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ العَرَبِيَّةِ، وَمَا تَوَقَّفَ عَلَيهِ الوَاجِبُ، وَلَم يَتِمَّ إِلَّا بِهِ، وَكَانَ مَقْدُورًا، فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ: أَنَّ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لَوْ كَانَا أَعْجَمِيَّيْنِ لَوَجَبَ عَلَىٰ الأُمَّةِ تَعَلُّمُ اللُّغَةِ الأَعْجَمِيَّةِ؛ لِيَفْهَمُوا بِهَا مُقْتَضَىٰ الخِطَابِ.

وَأَقْرَبُ مِنْ هَذَا: أَنَّ الأَعَاجِمَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَجِبُ عَلَيهِم مَعْرِفَةُ القَدْرِ الَّذِي يَفْهَمُونَ بِهِ مَا يَجِبُ عَلَيهِم مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ مِنَ اللُّغَةِ؛ لِكَوْنِهِ شَرْطًا فِي إِمْكَانِ الامتِثَالِ لِلأَوَامِرِ.

الحُجَّةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الَّذِي يُنْكِرُ فَضْلَ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ، إِمَّا: أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِهَا، أَوْ لَا.

فَإِنْ كَانَ عَارِفًا بِهَا فَقَدْ طَعَنَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَسَفَّه نَفسَهُ، وَسَخَّفَ رأيَهُ، حَيثُ قَطَعَ نُبْذَةً مِنَ الزَّمَانِ فِي صِنَاعَةٍ لَا فَضْلَ فِيهَا.

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِهَا فَلَا التِفَاتَ إِلَىٰ إِنْكَارِهِ، وَلَا تَعْرِيجَ عَلَىٰ قَوْلِهِ؛ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ بِمَا تُعتبَرُ مَعْرِفَتُهُ فِي المَصِيرِ إِلَىٰ قَولِهِ.

ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي مَعْرِفَتِهَا، فَإِذَا عَرَفَهَا: فَإِنْ رَجَعَ عَنْ مَقَالَتِهِ، وَسَلَّمَ المُدَّعَىٰ، فَهُو المَطْلُوبُ، وَإِنْ لَمْ يَرْجِعْ فَاجْتِمَاعُ العُقَلَاءِ خَصْمُهُ، وَكَفَىٰ بِهِ حَجِيجًا، وَيَعُودُ الكَلَامُ المُقَدَّمُ، وَيَكُونُ حِينَئِذٍ مَجْنُونًا، حَيثُ لَمْ يُفرِّقْ بينَ صِفَةِ الكَمَالِ وَالنَّقْصِ»[1].

---

(١) «الصعقة الغضبية» (ص٢٦١).

إِنَّ مَعْرِفَةَ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ مِنَ الدِّينِ، وَضَبْطُهُ ضَبْطٌ للدِّينِ، وَإِمرَاضُ اللُّغَةِ مَرَضٌ فِي الدِّينِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ اللهَ لمَّا أَنْزَلَ كِتَابَهُ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَجَعَلَ رَسُولَهُ مُبَلِّغًا عَنْهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ بِلِسَانِهِ العَرَبِيِّ، وَجَعَلَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ هَذَا الدِّينِ مُتَكَلِّمِينَ بِهِ؛ لَمْ يَكُنْ سَبِيلٌ إِلَىٰ ضَبْطِ الدِّينِ وَمَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِضَبْطِ اللِّسَانِ، وَصَارَتْ مَعْرِفَتُهُ مِنَ الدِّينِ، وَصَارَ اعتِيَادُ التَّكَلُّمِ بِهِ أَسْهَلَ عَلَىٰ أَهْلِ الدِّينِ فِي مَعْرِفَةِ دِينِ اللهِ، وَأَقرَبَ إِلَىٰ إِقَامَةِ شَعَائِرِ الدِّينِ، وَأَقرَبَ إِلَىٰ مُشَابَهَتِهِم لِلسَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِم.

وَاللِّسَانُ تُقَارِنُهُ أُمُورٌ أُخْرَىٰ؛ مِنَ العُلُومِ وَالأَخْلَاقِ، فَإِنَّ العَادَاتِ لَهَا تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِيمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَفِيمَا يَكْرَهُهُ؛ فَلِهَذَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِلُزُومِ عَادَاتِ السَّابِقِينَ فِي أَقْوَالِهِم وَأَعْمَالِهِم، وَكَرَاهةِ الخُروجِ عَنْهَا إِلَىٰ غَيرِهَا مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ»[1].

وَذَكَرَ شَيخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللُّغَةِ فَرْضٌ وَاجِبٌ؛ لأَنَّ فَهْمَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرْضٌ وَاجِبٌ، وَلَا سَبِيلَ إِلَيهِ إِلَّا بِفَهْمِ العَرَبيَّةِ، فَكَانَ تَعَلُّمُهَا فَرْضًا وَاجِبًا.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ نَفْسَ اللُّغَةِ مِنَ الدِّينِ، وَمَعْرِفَتُهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ، فَإِنَّ فَهْمَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرْضٌ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِفَهْمِ العَرَبيَّةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٠٢).

ثُمَّ مِنْهَا مَا هُو وَاجِبٌ عَلَىٰ الأعْيَانِ، وَمِنْهَا مَا هُو وَاجِبٌ عَلَىٰ الكِفَايَةِ»(١).

وَقَالَ ابنُ فَارِسٍ فِي «الصَّاحِبي»، فِي بَابِ: «القَوْلُ فِي حَاجَةِ أَهْلِ الفِقْهِ وَالفُتْيَا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ»: «إِنَّ العِلْمَ بِلُغَةِ العَرَبِ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مُتَعَلِّقٍ مِنَ العِلْمِ بِالقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالفُتْيَا بِسَبَبٍ، حَتَّىٰ لا غَنَاءَ بِأَحَدٍ مِنْهُم عَنْهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ القُرْآنَ نَازِلٌ بِلُغَةِ العَرَبِ، وَرَسولُ اللهِ ﷺ عَرَبِيٌّ.

فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ مَا فِي كِتَابِ اللهِ -جَلَّ وَعَزَّ-، وَمَا فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ غَرِيبَةٍ أَوْ نَظْمٍ عَجِيبٍ، لَمْ يَجِدْ مِنَ العِلْمِ بِاللُّغَةِ بُدًّا.

وَلَسْنَا نَقُولُ: إِنَّ الذِي يَلْزَمُهُ مِنْ ذَلِكَ الإحَاطَةُ بِكُلِّ مَا قَالَتْهُ العَرَبُ؛ لأنَّ ذَلِكَ غَيرُ مَقْدُورٍ عَلَيهِ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا لِلْنَبِيِّ.

بَلْ الوَاجِبُ عِلمُ أُصُولِ اللُّغَةِ وَالسُّنَنِ التِي بِأكثرِهَا نَزَلَ القُرْآنُ وَجَاءَتِ السُّنَّةُ، فَأَمَّا أَنْ يُكَلَّفَ القَارِئُ أَوِ الفَقِيهُ أَوِ المُحَدِّثُ مَعْرِفَةَ أَوْصَافِ الإبِلِ وَأَسْمَاءِ السِّبَاعِ، وَنُعُوتِ الأَسْلِحَةِ، وَمَا قَالَتهُ العَرَبُ فِي الفَلَوَاتِ وَالفَيَافِي، وَمَا جَاءَ عَنْهُم مِن شَوَاذِّ الأبْنِيَةِ وَغَرَائِبِ التَّصْرِيفِ؛ فَلَا ...

وسَاقَ أَمْثِلَةً ثُمَّ قَالَ:

فَلِذَلِكَ قُلْنَا: إِنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ كَالْوَاجِبِ عَلَىٰ أَهْلِ العِلْمِ، لِئَلَّا يَحِيدُوا فِي تَأْلِيفِهِم أَوْ فُتْيَاهُم عَنْ سَنَنِ الاستِوَاءِ.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٩).

وَكَذَلِكَ الحَاجَةُ إِلَىٰ عِلْمِ العَرَبِيَّةِ، فَإِنَّ الإِعْرَابَ هو الفَارِقُ بَيْنَ المَعَانِي.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّ القَائِلَ إِذَا قَالَ: «ما أحسن زيد»، لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ التَّعَجُّبِ والاستِفْهَامِ وَالذَّمِّ إِلَّا بِالإِعْرَابِ؟

وَقَدْ كَانَ النَّاسُ قَدِيمًا يَجْتَنِبُونَ اللَّحْنَ فِيمَا يَكْتُبُونَهُ أَوْ يَقْرَءُونَهُ اجتِنَابَهم بَعضَ الذُّنُوبِ.

فَأَمَّا الآنَ فَقَدْ تَجَوَّزوا حَتَّىٰ إِنَّ المُحَدِّثَ يُحَدِّثُ فَيَلْحَنُ، وَالفَقِيهَ يُؤَلِّفُ فَيَلْحَنُ، فَإِذَا نُبِّهَا قَالَا: مَا نَدْرِي مَا الإِعْرَابُ، وَإِنَّمَا نَحْنُ مُحَدِّثُونَ وَفُقَهَاءُ!!

فَهُمَا يُسَرَّانِ بِمَا يُسَاءُ بِهِ اللَّبِيبُ!!

وَقَدْ كَلَّمْتُ بَعْضَ مَنْ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ ويَرَاهَا مِنْ فِقْهِ الشَّافِعِيِّ بِالرُّتْبَةِ العُلْيَا فِي القِيَاسِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا حَقِيقَةُ القِيَاسِ وَمَعْنَاهُ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيءٍ هُوَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيَّ هَذَا وَإِنَّمَا عَلَيَّ إِقَامَةُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ.

فَقُل الآنَ فِي رَجُلٍ يَرومُ إِقَامَةَ الدَّلِيلِ عَلَىٰ صِحَّةِ شَيءٍ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ، وَلَا يَدْرِي مَا هُوَ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُوءِ الاختِيَارِ»[1].

وَقَد قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي كِتَابِهِ «إبطَال الاستِحْسَان»: «وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُفْتِي أَنْ يُفْتِيَ أَحَدًا إِلَّا مَتَىٰ يَجمَعُ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا عِلْمَ الْكِتَابِ، وَعِلْمَ نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ، وخَاصِّهِ وَعَامِّهِ وَأَدَبِهِ، وَعَالِمًا بِسُنَنِ رسول اللهِ** ﷺ**، وَأَقَاوِيلِ**

(١) «الصاحبي» لابن فارس (ص٥٠).

أَهْلِ الْعِلْمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَعَالِمًا بِلِسَانِ الْعَرَبِ، عَاقِلًا يُمَيِّزُ بين الْمُشْتبَهِ، وَيَعْقِلُ الْقِيَاسَ»[١].

وَقَالَ ابنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَمَّا مَنْ وَسَمَ نَفْسَهُ بِاسْمِ العِلْمِ وَالفِقْهِ، وَهُوَ جَاهِلٌ لِلنَّحْوِ وَاللُّغَةِ، فَحَرَامٌ عَلَيهِ أَنْ يُفْتِيَ فِي دِينِ اللهِ بِكَلِمَةٍ، وَحَرَامٌ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَفْتُوه؛ لأَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِاللِّسَانِ الَّذِي خَاطَبَنَا اللهُ بِهِ»[٢].

وَخُلَاصَةُ القَوْلِ: أَنَّ العَرَبِيَّةَ مِنَ الدِّينِ، وَأَنَّ تَعَلُّمَهَا لِفَهْمِ مَقَاصِدِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ قُرْبَةٌ مِن أَجَلِّ القُرُبَاتِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**، وَأَنَّ مَعْرِفَةَ مَا يُقِيمُ بِهِ المُسْلِمُ فَرْضَهُ؛ فَرْضٌ وَاجِبٌ عَلَيهِ.**

وَقَد تَقَدَّمَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ: «يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ العَرَبِ مَا يَبْلغه جَهْدُهُ فِي أَدَاءِ فَرْضِهِ».

وَقَوْلُ المَاوَرْدِيِّ: «وَمَعْرِفَةُ لِسَانِ العَرَبِ فَرْضٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ مِن مُجْتَهِدٍ وَغَيْرِهِ».

وَقَوْلُ شَيخِ الإِسْلَامِ: «اللُّغَةُ مِنَ الدِّينِ، وَمَعْرِفَتُهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ، فَإِنَّ فَهْمَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرْضٌ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِفَهْمِ العَرَبِيَّةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ».

---

(١) «الأم» للشافعي (٨/ ٣٠١-٣٠٢).

(٢) «رسائل ابن حزم» (٣/ ١٦٢).

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ سَيِّدَةُ اللُّغَاتِ

أَمَّا سِيَادَةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لِلُغَاتِ العَالَمِ كُلِّهِ، فَذَلِكَ لِأَنَّ الكِتَابَ الخَاتَمَ نَزَلَ بِهَا، وَتَكَفَّلَ اللهُ ﷻ بِحِفْظِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، فَالعَرَبِيَّةُ لُغَةٌ مَحْفُوظَةٌ.

وَقَدْ قَرَّرَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ المُحْدَثُونَ أَنَّ اللُّغَاتِ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا السِّيَادَةَ اليَوْمَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا عَادِيَةَ التَّغَيُّرِ حَتَّىٰ تَصِيرَ كَأَنَّهَا لُغَةٌ جَدِيدَةٌ، وَأَنَّ أَقْصَىٰ عُمُرٍ لِأَيِّ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الحَيَّةِ المُعَاصِرَةِ هُوَ قَرْنَانِ مِنَ الزَّمَانِ.

أَمَّا العَرَبِيَّةُ فَارْتِبَاطُهَا بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ جَعَلَ لَهَا ظَرْفًا خَاصًّا لَمْ يُتَحْ لِأَيَّةِ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ العَالَمِ كُلِّهَا.

وَقَدْ كَفَلَ اللهُ لَهَا الحِفْظَ مَا دَامَ يَحْفَظُ دِينَهُ، فَقَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

وَلَوْلَا أَنْ شَرَّفَهَا اللهُ ﷻ ، فَأَنْزَلَ بِهَا كِتَابَهُ، وَقَيَّضَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يَتْلُوهُ صَبَاحَ مَسَاءَ، وَوَعَدَ بِحِفْظِهِ عَلَىٰ تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ.

وَلَوْلَا كُلُّ هَذَا لَأَمْسَتِ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ لُغَةً أَثَرِيَّةً، تُشْبِهُ اللَّاتِينِيَّةَ أَوِ السِّنسِكرِيتِيَّةَ، وَلَسَادَتِ اللَّهَجَاتُ العَرَبِيَّةُ المُخْتَلِفَةُ فِي نَوَاحِي الأَرْضِ العَرَبِيَّةِ،

وَازْدَادَتْ عَلَىٰ مَرِّ الزَّمَانِ بُعْدًا عَنِ الأَصْلِ الَّذِي انْسَلَخَتْ مِنْهُ.

هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي يَجْعَلُنَا لَا نَقِيسُ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَىٰ، بِمَا يَحْدُثُ فِي اللُّغَاتِ الحَيَّةِ المُعَاصِرَةِ، فَإِنَّ أَقْصَىٰ عُمُرِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، فِي شَكْلِهَا الحَاضِرِ، لَا يَتَعَدَّىٰ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ، فَهِيَ دَائِمَةُ التَّطَوُّرِ وَالتَّغَيُّرِ، وَعُرْضَةٌ لِلتَّفَاعُلِ مَعَ اللُّغَاتِ المُجَاوِرَةِ، تَأْخُذُ مِنْهَا وَتُعْطِي، وَلَا تَجِدُ فِي كُلِّ ذَلِكَ حَرَجًا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَرْتَبِطْ فِي فَتْرَةٍ مِنْ فَتَرَاتِ حَيَاتِهَا بِكِتَابٍ كَرِيمٍ، كَمَا هِيَ الحَالُ فِي العَرَبِيَّةِ[1].

قَالَ الرَّافِعِيُّ -غَفَرَ اللهُ لَهُ-: **«إِنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ بُنِيَتْ عَلَىٰ أَصْلٍ يَجْعَلُ شَبَابَهَا خَالِدًا عَلَيْهَا فَلَا تَهْرَمُ وَلَا تَمُوتُ؛ لِأَنَّهَا أُعِدَّتْ مِنَ الأَزَلِ فَلَكًا دَائِرًا لِلنَّيِّرَيْنِ العَظِيمَيْنِ: كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.**

وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ فِيهَا قُوَّةٌ عَجِيبَةٌ مِنَ الاسْتِهْوَاءِ كَأَنَّهَا أُخْذَةُ السِّحْرِ؛ لَا يَمْلِكُ مَعَهَا البَلِيغُ أَنْ يَأْخُذَ أَوْ يَدَعَ»[2].

لَقَدْ نَبَّهَت الرَّافِعِيَّ إِحْدَىٰ الصُّحُفِ بِقَوْلٍ جَاءَ فِي بَعْضِ مَعَانِيهِ أَنَّهُ لَوْ تَرَكَ الجُمْلَةَ القُرْآنِيَّةَ، وَالحَدِيثَ الشَّرِيفَ، وَنَزَعَ إِلَىٰ غَيْرِهِمَا، لَكَانَ ذَلِكَ أَجْدَىٰ عَلَيْهِ...

فَقَالَ: «وَلَقَدْ وَقَفْتُ طَوِيلًا عِنْدَ قَوْلِهَا: (الجُمْلَةُ القُرْآنِيَّةُ)، فَظَهَرَ لِي فِي نُورِ هَذِهِ الكَلِمَةِ مَا لَمْ أَكُنْ أَرَاهُ مِنْ قَبْلُ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّهَا المِجْهَرُ، وَمَا يَجْهَرُ بِهِ مِنَ

(١) راجع: «فصول في فقه العربية» (ص٤١٤).

(٢) «تحت راية القرآن» (ص٣١).

الجَرَاثِيمِ مِمَّا يَكُونُ خَفِيًّا فَيَسْتَعْلِنُ، وَدَقِيقًا فَيَسْتَعْظِمُ، وَمَا يَكُونُ كَأَنَّهُ لَا شَيءَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا تُعْرَفُ العِلَلُ الكُبْرَىٰ إِلَّا بِهِ.

وَإِذَا أَنَا تَرَكْتُ الجُمْلَةَ القُرْآنِيَّةَ وَعَرَبِيَّتَهَا وَفَصَاحَتَهَا وَسُمُوَّهَا، وَقِيَامَهَا فِي تَرْبِيَةِ المَلَكَةِ، وَإِرْهَافِ المَنْطِقِ، وَحَلِّ الذَّوْقِ مَقَامَ نَشْأَةٍ خَالِصَةٍ فِي أَفْصَحِ قَبَائِلِ العَرَبِ، وَرَدِّهَا تَارِيخَنَا القَدِيمَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ كَأَنَّنَا فِيهِ، وَصِلَتِنَا بِهِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ فِينَا.

وَحِفْظِهَا لَنَا مَنْطِقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَنْطِقَ الفُصَحَاءِ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّىٰ لَكَأَنَّ أَلْسِنَتَهُمْ عِنْدَ التِّلَاوَةِ هِيَ تَدُورُ فِي أَفْوَاهِنَا، وَسَلَائِقَهُمْ هِيَ تُقِيمُنَا عَلَىٰ أَوْزَانِهَا.

إِذَا أَنَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَرَضِيتُهُ، أَفَتَرَانِي أَتَّبِعُ أُسْلُوبَ التَّرْجَمَةِ فِي الجُمْلَةِ الإنجِيلِيَّةِ، وَأَسِفُّ إِلَىٰ هَذِهِ الرَّطَانَةِ الأَعْجَمِيَّةِ المُعَرَّبَةِ، وَأَرْتَضِخُ تِلْكَ اللُّكْنَةَ المُعْوَجَّةَ، وَأُعِينُ بِنَفْسِي عَلَىٰ لُغَتِي وَهُوِيَّتِي، وَأَكْتُبُ كِتَابَةً تُمِيتُ أَجْدَادِي فِي الإِسْلَام مِيتَةً جَدِيدَةً فَتَنْقَلِبُ كَلِمَاتِي عَلَىٰ تَارِيخِهِمْ كَالدُّودِ يَخْرُجُ مِنَ المَيِّتِ وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا المَيِّتَ، وَأُنْشِئُ عَلَىٰ سُنَّتِي المَرِيضَةِ نَشْأَةً مِنَ النَّاسِ يَكُونُ أَبْغَضُ الأَشْيَاءِ عِنْدَهَا هُوَ الصَّحِيحَ الَّذِي كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِلَيْهَا؟

كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ اليَازِجِيَّ لَمَّا أَرَادُوهُ عَلَىٰ تَصْحِيحِ تَرْجَمَةِ الإِنْجِيلِ رَغِبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُصَرِّفَ قَلَمَهُ فِي التَّرْجَمَةِ فَيُنْزِلَهَا مَنْزِلَتَهَا مِنَ اللِّسَانِ، وَيَتَخَيَّرَ أَلْفَاظَهَا، وَيُزِيلَ عُجْمَتَهَا وَيُخَلِّصَهَا مِنْ فَسَادِ التَّرْكِيبِ وَسُوءِ التَّأْلِيفِ، وَيُفْرِغَ عَلَيْهَا جَزَالَةً وَيَجْعَلَ لَهَا حَلَاوَةً، فَأَبَوْا عَلَيْهِ كُلَّ ذَلِكَ، وَمَنَعُوهُ مِنْهُ، وَأَقَامُوهُ فِيهَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُعْرِبُ آخِرَ الكَلِمَةِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الكَلِمَةَ إِلَّا آخِرَهَا.

كُنْتُ أَعْرِفُ ذَلِكَ، وَمَا فَطِنْتُ يَوْمًا إِلَىٰ سَبَبِهِ حَتَّىٰ جاءت قَوْلَةُ: (الجُمْلَةُ القُرْآنِيَّةُ)، كَالمُنَبِّهَةِ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُ القَوْمَ قَدْ أَثْمَرَتْ شَجَرَتُهُمْ ثَمَرَهَا المُرَّ، وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا العَرَبِيَّةَ بِعَرَبِيَّتِهِمْ، وَأَفْسَدُوا اللُّغَةَ بِلُغَتِهِمْ، وَدَفَعُوا الأَقْلَامَ فِي أُسْلُوبٍ مَا أَدْرِي أَهُوَ عِبْرَانِيٌّ إِلَىٰ العَرَبِيَّةِ، أَمْ عَرَبِيٌّ إِلَىٰ العِبْرَانِيَّةِ، لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَهُ، وَلَا يُطِيقُونَ سِوَاهُ.

وَمَرْجِعُ هَذَا البَلَاءِ كُلِّهِ أَنَّ عَرَبِيَّةَ الجُمْلَةِ الإِنْجِيلِيَّةِ تَغْزُو عَرَبِيَّةَ الجُمْلَةِ القُرْآنِيَّةِ مِنْ حَيْثُ يَدْرِي أُولَئِكَ أَوْ لا يَدْرُونَ، فَمَا أَشْبَهُ هَذِهِ الأَسَالِيبَ الرَّكِيكَةَ فِي مَقَرِّهَا مِنَ الآدَابِ العَرَبِيَّةِ بِالمَرَضِ المَوْرُوثِ الكَامِنِ فِي الجِسْمِ الصَّحِيحِ يَتَرَبَّصُ غَفْلَةً أَوْ عِلَّةً أَوْ تَهَاوُنًا، فَيَظْهَرُ فَإِذَا هُوَ مَشْغَلَةٌ لِلصِّحَّةِ، ثُمَّ يَسْتَشْرِي فَإِذَا هُوَ مَفْسَدَةٌ لَهَا، ثُمَّ يَضْرِبُ فَيَتَمَكَّنُ فَإِذَا هُوَ مِزَاجٌ جَدِيدٌ، ثُمَّ إِذَا هُوَ المَوْتُ بَعْدُ!»[١].

غَفَرَ اللهُ لِلرَّافِعِيِّ وَعَفَا عَنْهُ، لَقَدِ الْتَفَتَ الْتِفَاتَةً بَارِعَةً صَادِقَةً إِلَىٰ مَوْطِنِ الدَّاءِ الَّذِي تَفَجَّرَ قَيْحُهُ وَصَدِيدُهُ بَعْدُ، فَإِنَّ الشِّعْرَ، وَالأَدَبَ، وَالتَّجْدِيدَ، وَمَا دَعَا إِلَيْهِ القَوْمُ، صَدَرَ مِنْ تِلْكَ الحَمْأَةِ المُنْتِنَةِ الَّتِي عَرَفَ الرَّافِعِيُّ خَبِيئَهَا، وَهِيَ: (الجُمْلَةُ الإِنْجِيلِيَّةُ)، وَهِيَ مَا يَحْتَذِيهَا المُجَدِّدُونَ، وَالحَدَاثِيُّونَ، وَغَيْرُهُمْ، فِيمَا يُسَمُّونَهُ شِعْرًا، وَيَزْعُمُونَهُ أَدَبًا، وَمَا هُوَ إِلَّا الحِقْدُ الدَّفِينُ عَلَىٰ الجُمْلَةِ القُرْآنِيَّةِ، وَكِتَابِهَا الخَالِدِ العَتِيدِ.

---

(١) «تحت راية القرآن» (ص٢٦).

وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ لِلْبِيئَةِ أَثَرًا غَيْرَ مَنْكُورٍ فِي لِسَانِ أَهْلِهَا، كَمَا أَنَّ لَهَا أَثَرًا فِي طَبَائِعِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ، وَلَقَدْ لَحَظَ ذَلِكَ قُدَامَىٰ نُقَّادِ العَرَبِ، فَقَالَ القَاضِي الجُرْجَانِيُّ:

«سَلَامَةُ اللَّفْظِ تَتْبَعُ سَلَامَةَ الطَّبْعِ، وَدَمَاثَةُ الكَلَامِ بِقَدْرِ دَمَاثَةِ الخِلْقَةِ، وَأَنْتَ تَجِدُ ذَلِكَ ظَاهِرًا فِي أَهْلِ عَصْرِكَ وَأَبْنَاءِ زَمَانِكَ، وَتَرَىٰ الجَافِيَ الجِلْفَ مِنْهُمْ كَزَّ الأَلْفَاظِ، مُعَقَّدَ الكَلَامِ، وَعْرَ الخِطَابِ؛ حَتَّىٰ إِنَّكَ رُبَّمَا وَجَدْتَ أَلْفَاظَهُ فِي صَوْتِهِ وَنَغَمَتِهِ، وَفِي جَرْسِهِ وَلَهْجَتِهِ، وَمِنْ شَأْنِ البَدَاوَةِ أَنْ تُحْدِثَ بَعْضَ ذَلِكَ؛ وَلِأَجْلِهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ بَدَا جَفَا**»[1].

وَلِذَلِكَ تَجِدُ شِعْرَ عَدِيٍّ -وَهُوَ جَاهِلِيٌّ- أَسْلَسَ مِنْ شِعْرِ الفَرَزْدَقِ، وَرَجَزِ رُؤْبَةَ وَهُمَا آهِلَانِ، لِمُلَازَمَةِ عَدِيٍّ الحَاضِرَةَ وَإِيطَانِهِ الرِّيفَ، وَبُعْدِهِ عَنْ جَلَافَةِ البَدْوِ، وَجَفَاءِ الأَعْرَابِ»[2].

وَقَدْ خَصَّ اللهُ ﷻ أُولَئِكَ العَرَبَ الَّذِينَ حَفُّوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ بِالحُرِّيَّةِ التَّامَّةِ الخَالِصَةِ، فَلَمْ يَعْرِفُوا عُبُودِيَّةً لِبَشَرٍ، وَقَدْ شَهِدَ بِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ يَدِينُ بِغَيْرِ دِينِهِمُ الحَقِّ.

قَالَ هِرْدِر: «يَظْهَرُ أَنَّ جَزِيرَةَ العَرَبِ، وَهِيَ مِنْ بِقَاعِ الدُّنْيَا المُمْتَازَةِ، قَدْ

(١) أخرجه أحمد عن البراء (١٨٦١٩)، وعن أبي هريرة (٨٨٣٦، ٩٦٨٣)، بأسانيدَ لا تخلو من مقالٍ، وقد حسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٧٢)، ولفظه: «**مَنْ بدَا جفَا ومَن اتَّبعَ الصَّيدَ غفَلَ، ومَنْ أتىٰ أبوابَ السلطانِ افْتتَنَ، وما ازداد أحدٌ من السلطانِ قربًا إلا ازداد من اللهِ بُعدًا**».

(٢) «الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الجرجاني (ص١٨).

أَعَدَّتْهَا الطَّبِيعَةُ -كَذَا- لِتَهَبَ لِشُعُوبِهَا خُلُقًا خَاصًّا، فَكَأَنَّ البَادِيَةَ الكُبْرَىٰ الَّتِي تَمْتَدُّ بَيْنَ مِصْرَ وَسُورِيَّةَ، وَمِنْ حَلَبٍ إِلَىٰ الفُرَاتِ: قُطْرٌ تَتَرِيٌّ جَنُوبِيٌّ، فَمَا فَتِئَ هَذَا القُطْرُ، الَّذِي هُوَ مَجَالٌ وَاسِعٌ لِقَبَائِلَ مِنَ الأَعْرَابِ وَالرُّعَاةِ الرُّحَّلِ، يَكُونُ قَبْضَةَ عَرَبٍ مُتَنَقِّلِينَ مُنْذُ أَحْقَابٍ، فَطِرَازُ حَيَاةِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ، الَّذِينَ يَعُدُّونَ المِصْرَ سِجْنًا، يَقْضِي بِقِيَامِ فَخْرِهِمْ عَلَىٰ قِدَمِ عِرْقِهِمْ وَبِاعْتِمَادِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَعَلَىٰ غِنَىٰ لُغَتِهِمْ وَشِعْرِهِمْ، وَعَلَىٰ رَشَاقَةِ خُيُولِهِمْ، وَعَلَىٰ لَمَعَانِ سُيُوفِهِمْ، وَعَلَىٰ حِرَابِهِمُ الَّتِي يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا أَمَانَةٌ فِي أَيْدِيهِمْ، فَيُمْكِنُكُمْ أَنْ تَقُولُوا، وَالحَالَةُ هَذِهِ: إِنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الأُمُورِ قَدْ هَيَّأَتْهُمْ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ لِلدَّوْرِ الَّذِي يُمَثِّلُونَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَجْزَاءِ العَالَمِ الثَّلَاثَةِ، وَلَكِنْ عَلَىٰ وَجْهٍ يُخَالِفُ شَأْنَ تَتَرِ الشَّمَالِ مُخَالَفَةً تَامَّةً»[١].

هَذِهِ الحُرِّيَّةُ الَّتِي عَاشَهَا العَرَبُ، الَّذِينَ نَزَلَ القُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ، حَوْلَ البَيْتِ العَتِيقِ، كَانَ لَهَا أَثَرٌ فِي لُغَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، حَتَّىٰ لَيُمْكِنَ القَوْلُ إِنَّ **لُغَتَهُمْ هِيَ لُغَةُ الحُرِّيَّةِ**، وَقَدْ مَرَّ قَوْلُ الرَّافِعِيِّ: «وَكَثْرَةُ مُشْتَقَّاتِهَا -أَيِ: اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ- بُرْهَانٌ عَلَىٰ نَزْعَةِ الحُرِّيَّةِ وَطِمَاحِهَا، فَإِنَّ رُوحَ الاسْتِعْبَادِ ضَيِّقٌ لَا يَتَّسِعُ، وَدَأْبُهُ لُزُومُ الكَلِمَةِ وَالكَلِمَاتِ القَلِيلَةِ».

وَهُنَا قَوْلُ مَحْمُود شَاكِر:

«إِنِّي أَرَىٰ اللُّجُوءَ إِلَىٰ الرَّمْزِ، ضَرْبًا مِنَ الجُبْنِ اللُّغَوِيِّ!! فَاللُّغَةُ إِذَا اتَّسَمَتْ بِسِمَةِ الجُبْنِ كَثُرَ فِيهَا الرَّمْزُ، وَقَلَّ فِيهَا الإِقْدَامُ عَلَىٰ التَّعْبِيرِ الوَاضِحِ المُفْصِحِ.

(١) «تاريخ العرب العامُّ» لسيديُّو، ترجمة عادل زعيتر (ص٢٦).

وَلَا تَقُلْ إِنَّ الكِنَايَةَ شَبِيهَةٌ بِالرَّمْزِ، فَهَذَا بَاطِلٌ مِنْ قِبَلِ الدِّرَاسَةِ الصَّحِيحَةِ لِطَبِيعَةِ الرَّمْزِ، وَطَبِيعَةِ الكِنَايَةِ وَالمَجَازِ.

وَأَنَا أَسْتَنْكِفُ مِنَ الرَّمْزِ فِي العَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّ لِلْعَرَبِيَّةِ شَجَاعَةً صَادِقَةً فِي تَعْبِيرِهَا، وَفِي اشْتِقَاقِهَا، وَفِي تَكْوِينِ أَحْرُفِهَا، لَيْسَتْ لِلُغَةٍ أُخْرَىٰ»[١].

وَقَدْ خَصَّ اللهُ ﷻ أُولَئِكَ العَرَبَ بِالفَضْلِ، «**وَسَبَبُ مَا اخْتَصُّوا بِهِ مِنَ الفَضْلِ -وَاللهُ أَعْلَمُ- مَا جَعَلَ اللهُ لَهُمْ مِنَ العُقُولِ وَالأَلْسِنَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ.**

وَذَلِكَ أَنَّ الفَضْلَ إِمَّا بِالعِلْمِ النَّافِعِ أَوِ العَمَلِ الصَّالِحِ، وَالعِلْمُ لَهُ مَبْدَأٌ: وَهُوَ قُوَّةُ العَقْلِ الَّذِي هُوَ الفَهْمُ وَالحِفْظُ، وَتَمَامٌ: وَهُوَ قُوَّةُ المَنْطِقِ الَّذِي هُوَ البَيَانُ وَالعِبَارَةُ.

فَالعَرَبُ هُمْ أَفْهَمُ وَأَحْفَظُ، وَأَقْدَرُ عَلَىٰ البَيَانِ وَالعِبَارَةِ، وَلِسَانُهُمْ أَتَمُّ الأَلْسِنَةِ بَيَانًا وَتَمْيِيزًا لِلْمَعَانِي.

وَأَمَّا العَمَلُ فَإِنَّ مَبْنَاهُ عَلَىٰ الأَخْلَاقِ، وَهِيَ الغَرَائِزُ المَخْلُوقَةُ فِي النَّفْسِ، فَغَرَائِزُهُمْ أَطْوَعُ مِنْ غَرَائِزِ غَيْرِهِمْ، فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَىٰ السَّخَاءِ وَالحِلْمِ وَالشَّجَاعَةِ وَالوَفَاءِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَكِنْ حَازُوا قَبْلَ الإِسْلَامِ طَبِيعَةً قَابِلَةً لِلْخَيْرِ، مُعَطَّلَةً عَنْ فِعْلِهِ، لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ مُنَزَّلٌ، وَلَا شَرِيعَةٌ مَأْثُورَةٌ، وَلَا اشْتَغَلُوا بِبَعْضِ العُلُومِ، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَانَتْ بَيْنَ أَظْهُرِهِم الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ، وَأَقْوَالُ الأَنْبِيَاءِ،

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود شاكر (ص٤٣٥).

فَضَلُّوا لِضَعْفِ عُقُولِهِمْ وَخُبْثِ غَرَائِزِهِمْ.

وَإِنَّمَا كَانَ عِلْمُ العَرَبِ مَا سَمَحَتْ بِهِ قَرَائِحُهُمْ مِنَ الشِّعْرِ وَالخُطَبِ، أَوْ مَا حَفِظُوهُ مِنْ أَنْسَابِهِمْ وَأَيَّامِهِمْ، أَوْ مَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الأَنْوَاءِ وَالنُّجُومِ وَالحُرُوبِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالهُدَىٰ تَلَقَّفُوهُ عَنْهُ بَعْدَ مُجَاهَدَةٍ شَدِيدَةٍ، وَنَقَلَهُمُ اللهُ عَنْ تِلْكَ العَادَاتِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ أَحَالَتْ قُلُوبَهُمْ عَنْ فِطْرَتِهَا.

فَلَمَّا تَلَقَّوْا عَنْهُ ذَلِكَ الهُدَىٰ زَالَتْ تِلْكَ الرُّيُونُ عَنْ قُلُوبِهِمْ، فَقَبِلُوا هَذَا الهُدَىٰ العَظِيمَ، وَأَخَذُوهُ بِتِلْكَ الفِطْرَةِ الجَدِيدَةِ، فَاجْتَمَعَ لَهُمُ الكَمَالُ بِالقُوَّةِ المَخْلُوقَةِ فِيهِمْ، وَالكَمَالُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ؛ بِمَنْزِلَةِ أَرْضٍ طَيِّبَةٍ فِي نَفْسِهَا، لَكِنْ هِيَ مُعَطَّلَةٌ عَنِ الحَرْثِ، أَوْ قَدْ نَبَتَ فِيهَا شَجَرُ العضَاهِ وَالعَوْسَجِ، وَصَارَتْ مَأْوَىٰ الخَنَازِيرِ وَالسِّبَاعِ.

فَإِذَا طَهُرَتْ عَنْ ذَلِكَ المُؤْذِي مِنَ الشَّجَرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الدَّوَابِّ وَازْدُرِعَ فِيهَا أَفْضَلُ الحُبُوبِ أَوِ الثِّمَارِ، جَاءَ فِيهَا مِنَ الحَبِّ وَالثَّمَرِ مَا لَا يُوصَفُ مِثْلُهُ.

فَصَارَ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ أَفْضَلَ خَلْقِ اللهِ سِوَىٰ الأَنْبِيَاءِ، وَصَارَ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَهُمْ مَنِ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ مِنَ العَرَبِ وَالعَجَمِ»[١].

(١) «جامع الرسائل والمسائل» لابن تيمية، تحقيق رشاد سالم، المجموعة الأولىٰ (ص٢٨٩).

وَلَمَّا كَانَ:

«(البَيَانُ) هُوَ نِعْمَةُ اللهِ الكُبْرَىٰ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَلَوْنٍ، وَكَذَلِكَ عَلَّمَنَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ إِذْ قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

فَمَنِ اسْتَهَانَ بِالكَلِمَةِ، فَقَدِ اسْتَهَانَ بِأَفْضَلِ آلَاءِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَبِالنِّعْمَةِ الكُبْرَىٰ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ مِنْ حَدِّ البَهِيمَةِ العَجْمَاءِ إِلَىٰ حَدِّ الإِنْسَانِ النَّاطِقِ»[١].

لَمَّا كَانَ البَيَانُ بِهَذِهِ المَثَابَةِ، فَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ بِخَاصَّةِ الإِبَانَةِ، أَوْ بِخَاصَّةِ «التَّعْبِيرِ»، أَجَلَّ مَا يَكُونُ الإِنْعَام، **فَهِيَ اللُّغَةُ المُعَبِّرَةُ.**

«وَلَيْسَ مِنَ الغُلُوِّ فِي وَصْفِ اللُّغَةِ المُعَبِّرَةِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ تَضَعُ مُعْجَمَهَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَكَأَنَّمَا قَدْ وَضَعْتَ أَمَامَكَ قَوَاعِدَ تَارِيخِهَا وَمَعَالِمَ بِيئَتِهَا، وَلَمْ تَدَعْ لِمَرَاجِعِ التَّارِيخِ وَالجُغْرَافِيَا غَيْرَ تَفْصِيلَاتِ الأَسْمَاءِ وَالأَيَّامِ.

وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ فِي طَلِيعَةِ اللُّغَاتِ المُعَبِّرَةِ بَيْنَ لُغَاتِ العَالَمِ الشَّرْقِيَّةِ أَوِ الغَرْبِيَّةِ، فَلَا يَعْرِفُ عُلَمَاءُ اللُّغَاتِ لُغَةَ قَوْمٍ تَتَرَاءَىٰ لَنَا صِفَاتُهُمْ وَصِفَاتُ أَوْطَانِهِمْ مِنْ كَلِمَاتِهِمْ وَأَلْفَاظِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَىٰ أَطْوَارُ المُجْتَمَعِ العَرَبِيِّ مِنْ مَادَّةِ أَلْفَاظِهِ وَمُفْرَدَاتِهِ فِي أُسْلُوبِ الوَاقِعِ وَأُسْلُوبِ المَجَازِ»[٢].

---

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود محمد شاكر (ص٥٦٢).

(٢) «اللغة الشاعرة» (ص٧١).

اللُّغَةُ المُجَاهِدَةُ

أَصْبَحَ مِنَ المُسَلَّمِ بِهِ عِنْدَ اللُّغَوِيِّينَ: أَنَّ احْتِكَاكَ اللُّغَاتِ ضَرُورَةٌ تَارِيخِيَّةٌ، وَهَذَا الاحْتِكَاكُ يُؤَدِّي إِلَىٰ تَدَاخُلِهَا إِنْ قَلِيلًا وَإِنْ كَثِيرًا، وَيَكَادُونَ يَقْطَعُونَ بِأَنَّ التَّطَوُّرَ الدَّائِمَ لِلُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ وَهِيَ فِي مَعْزِلٍ مِنْ كُلِّ احْتِكَاكٍ وَتَأَثُّرٍ خَارِجِيٍّ، يُعَدُّ أَمْرًا مِثَالِيًّا، لَا يَكَادُ يَتَحَقَّقُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الأَثَرَ البَالِغَ، الَّذِي يَقَعُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ اللُّغَاتِ مِنْ لُغَاتٍ مُجَاوِرَةٍ لَهَا، كَثِيرًا مَا يَلْعَبُ دَوْرًا هَامًّا فِي التَّطَوُّرِ اللُّغَوِيِّ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ نَتَائِجُ بَعِيدَةُ المَدَىٰ.

عَلَىٰ أَنَّ الاحْتِكَاكَ بَيْنَ لُغَتَيْنِ مُتَجَاوِرَتَيْنِ، لَا يَحْدُثُ دَائِمًا عَلَىٰ وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، فِي كُلِّ الحَالَاتِ، ذَلِكَ لِأَنَّ قُوَّةَ اللُّغَاتِ لَيْسَتْ وَاحِدَةً، وَمِنْ ثَمَّ اخْتَلَفَتْ قُدْرَتُهَا عَلَىٰ المُقَاوَمَةِ.

وَهُنَاكَ عَوَامِلُ كَثِيرَةٌ تَحْكُمُ الصِّرَاعَ بَيْنَ اللُّغَاتِ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مُسْتَمَدًّا مِنَ القِيمَةِ الذَّاتِيَّةِ لِلُّغَةِ؛ فَاللُّغَةُ التُّرْكِيَّةُ لَمْ تَسْتَطِعْ خِلَالَ فَتْرَةِ السَّيْطَرَةِ التُّرْكِيَّةِ عَلَىٰ الشَّرْقِ مِنَ القَضَاءِ عَلَىٰ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّ التُّرْكِيَّةَ لَيْسَتْ -بِأَيَّةِ حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ- مِنْ لُغَاتِ الحَضَارَاتِ الكُبْرَىٰ، بِخِلَافِ العَرَبِيَّةِ.

فَالصِّرَاعُ اللُّغَوِيُّ قَدْ يُؤَدِّي إِلَىٰ القَضَاءِ عَلَىٰ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ، أَوْ لَهْجَةٍ

مِنَ اللَّهْجَاتِ، وَلَا يُمْكِنُ تَحْدِيدُ زَمَنِ هَذَا الصِّرَاعِ تَحْدِيدًا تَامًّا، إِلَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ الظُّرُوفِ الَّتِي تُحِيطُ بِاللُّغَةِ المَقْهُورَةِ، وَإِلَىٰ مِقْدَارِ مَا فِيهَا مِنْ حَيَوِيَّةٍ، وَقُوَّةِ مُقَاوَمَةٍ.

وَيَضَعُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ لِلصِّرَاعِ اللُّغَوِيِّ مَرَاحِلَ، تَظْهَرُ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْهَا عَوَامِلُ تُسَاعِدُ عَلَىٰ انْحِلَالِ اللُّغَةِ المَقْهُورَةِ، وَتُؤَدِّي إِلَىٰ القَضَاءِ عَلَيْهَا:

فَفِي المَرْحَلَةِ الأُولَىٰ: تَطْغَىٰ مُفْرَدَاتُ اللُّغَةِ المُنْتَصِرَةِ، وَتَحُلُّ مَحَلَّ اللُّغَةِ المَقْهُورَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَتَكْثُرُ هَذِهِ الكَلِمَاتُ أَوْ تَقِلُّ تبعًا لِلْمُقَاوَمَةِ الَّتِي تُبْدِيهَا اللُّغَةُ المَهْزُومَةُ، فَاللُّغَاتُ القِبْطِيَّةُ وَالبَرْبَرِيَّةُ لَمْ تَتْرُكْ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ المُنْتَصِرَةِ إِلَّا كَلِمَاتٍ قَلِيلَةً.

أَمَّا إِذَا كَانَ الصِّرَاعُ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ شَدِيدًا، وَطَوِيلَ الأَمَدِ، فَإِنَّ اللُّغَةَ المَقْهُورَةَ، قَدْ تَحْتَفِظُ بِمُفْرَدَاتٍ كَثِيرَةٍ، تَدْخُلُ فِي اللُّغَةِ الغَالِبَةِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَا حَدَثَ بَيْنَ لُغَةِ الإِنْجِلِيزِ السكسون بِإنجلترَا، وَلُغَةِ الفَاتِحِينَ مِنَ الفَرَنْسِيِّينَ النُّورمَانديِّينَ، إِذْ خَرَجَتِ الإِنْجِلِيزِيَّةُ المُنْتَصِرَةُ فِي هَذَا الصِّرَاعِ، وَقَدْ فَقَدَتْ مَا يَقْرُبُ مِنْ نِصْفِ مُفْرَدَاتِهَا الأَصْلِيَّةِ، وَاسْتَبْدَلَتْ بِهِ كَلِمَاتٍ مِنَ اللُّغَةِ النُّورمَاندِيَّةِ المَغْلُوبَةِ.

وَفِي المَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ: تَتَغَيَّرُ مَخَارِجُ الأَصْوَاتِ، وَيَقْتَرِبُ النُّطْقُ بِهَا مِنَ النُّطْقِ بِأَصْوَاتِ اللُّغَةِ الجَدِيدَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّىٰ تُصْبِحَ عَلَىٰ صُورَةٍ تُطَابِقُ أَوْ تُقَارِبُ الصُّورَةَ الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا فِي اللُّغَةِ المُنْتَصِرَةِ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَصَرَّفَ

المَغْلُوبُ تَصَرُّفَ الغَالِبِ فِي النُّطْقِ بِالأَصْوَاتِ، فَتَتَسَرَّبُ بِذَلِكَ أَصْوَاتُ اللُّغَةِ الغَالِبَةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ المَغْلُوبَةِ، فِي طَرِيقَةِ نُطْقِهَا، وَنَبرِهَا، وَمَخَارِجِهَا.

فَيَنْطِقُ أَهْلُ اللُّغَةِ المَغْلُوبَةِ أَلْفَاظَهُمُ الأَصِيلَةَ، وَمَا انْتَقَلَ إِلَىٰ لُغَتِهِمْ مِنْ كَلِمَاتٍ دَخِيلَةٍ، مُتَّخِذِينَ نَفْسَ المَخَارِجِ، وَنَفْسَ الطَّرِيقَةِ، الَّتِي يَسِيرُ عَلَيْهَا النُّطْقُ فِي اللُّغَةِ الغَالِبَةِ.

وَهَذِهِ المَرْحَلَةُ تُعَدُّ أَخْطَرَ مَرَاحِلِ الصِّرَاعِ اللُّغَوِيِّ، إِذْ يَزْدَادُ فِيهَا انْحِلَالُ اللُّغَةِ المَغْلُوبَةِ، وَيَشْتَدُّ قُرْبُهَا مِنَ اللُّغَةِ الغَالِبَةِ.

وَفِي المَرْحَلَةِ الثَّالِثَةِ: تَفْرِضُ اللُّغَةُ المُنْتَصِرَةُ قَوَاعِدَهَا وَقَوَانِينَهَا اللُّغَوِيَّةَ الخَاصَّةَ بِالجُمَلِ وَالتَّرَاكِيبِ، وَبِهَذَا تَزُولُ مَعَالِمُ اللُّغَةِ المَقْهُورَةِ، وَحِينَئِذٍ تَبْدَأُ اللُّغَةُ المُنْتَصِرَةُ فِي إِحْلَالِ أَخْيِلَتِهَا وَاسْتِعَارَاتِهَا، وَمَعَانِيهَا المَجَازِيَّةِ، مَحَلَّ الأَخْيِلَةِ وَالاسْتِعَارَاتِ وَالمَعَانِي، لِلُّغَةِ القَدِيمَةِ، الَّتِي تَمُوتُ شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَّا أَنَّ النَّصْرَ لَا يَتِمُّ لِلُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ إِلَّا بَعْدَ أَمَدٍ طَوِيلٍ.

وَفِي كُلِّ صِرَاعٍ لُغَوِيٍّ، لَا تَتِمُّ هَذِهِ المَرْحَلَةُ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَلَا تَخْتَفِي لَهْجَةٌ أَوْ لُغَةٌ إِلَّا وَقَدْ تَرَكَتْ بَعْضَ مُفْرَدَاتِهَا أَوْ تَرَاكِيبِهَا أَوْ قَوَاعِدِهَا، أَوْ أَثَّرَتْ بِأَيَّةِ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ، فِي مَعَانِي المُفْرَدَاتِ للُّغَةِ الجَدِيدَةِ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَت اللُّغَتَانِ مِن فَصِيلَةٍ لُغَوِيَّةٍ وَاحِدَةٍ.

وَالخُلَاصَةُ: أَنَّهُ مَتَىٰ اجْتَمَعَتْ لُغَتَانِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ؛ فَإِنَّهُ لَا مَفَرَّ إِطْلَاقًا مِنْ أَنْ تَتَأَثَّرَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِالأُخْرَىٰ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أَتَغَلَّبَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ

الأُخْرَىٰ، أَمْ بَقِيَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِجِوَارِ أُختِهَا.

عَلَىٰ أَنَّ هَذَا التَّأَثُّرَ يَخْتَلِفُ فِي كَمِّهِ وَكَيْفِهِ، وَنَوَاحِي ظُهُورِهِ، وَنَتَائِجِهِ، فِي حَالَةِ تَغَلُّبِ لُغَةٍ عَلَىٰ أُخْرَىٰ، عَنْهُ فِي حَالَةِ بَقَائِهِمَا مَعًا؛ ذَلِكَ أَنَّنَا نَرَىٰ اللُّغَةَ الغَالِبَةَ تَسْتَسِيغُ وَتَتَمَثَّلُ كُلَّ مَا تَأْخُذُهُ مِنَ الأُخْرَىٰ المَغْلُوبَةِ، مَهْمَا كَثُرَ مِقْدَارُهُ.

وَفِي هَذِهِ الحَالَةِ يَتَحَوَّلُ المُسْتَعَارُ إِلَىٰ عَنَاصِرَ مِنْ نَوعِ عَنَاصِرِهَا هِيَ، وَيَدْخُلُ فِيهَا، فَتَزْدَادُ بِهِ قُوَّةً وَتَجَدُّدًا وَنَشَاطًا، دُونَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُ أَيَّ مَجَالٍ لِلتَّأْثِيرِ فِي بِنْيَتِهَا، أَوْ تُتِيحَ لَهُ فِعْلَ أَيِّ تَغْيِيرٍ فِي تَكْوِينِهَا الأَصْلِيِّ.

أَمَّا اللُّغَةُ المَغْلُوبَةُ، فَإِنَّهَا عَلَىٰ العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، لَا تَسْتَطِيعُ إِطْلَاقًا أَنْ تَقْضِيَ عَلَىٰ مُقَاوَمَةِ مَا تَقْذِفُهَا بِهِ اللُّغَةُ الغَالِبَةُ مِنْ مُفْرَدَاتٍ وَقَوَاعِدَ وَأَسَالِيبَ، وَلَا تَكَادُ تُسِيغُهُ، فَتَفْقِدُ وَحْدَتَهَا وَطَابَعَهَا، وَبِذَلِكَ تَضْعُفُ بِنْيَتُهَا، ثُمَّ تَزُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَقَدْ كَانَ هَذَا مَصِيرَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ، فِي صِرَاعِهَا مَعَ العَرَبِيَّةِ فِي الأَمْصَارِ المَفْتُوحَةِ.

أَمَّا إِذَا كُتِبَ لِلُغَتَيْنِ البَقَاءُ؛ فَإِنَّ كُلَّ لُغَةٍ مِنْهُمَا، تَعْمِدُ إِلَىٰ مَا تَأْخُذُهُ مِنَ الأُخْرَىٰ، وَتُضْفِي عَلَيْهِ مِنْ حَيَوِيَّتِهَا، وَتَقْضِي عَلَىٰ مَا فِيهِ مِنَ الآثَارِ الهَدَّامَةِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ هَذِهِ الآثَارُ مُتَعَلِّقَةً بِالأَصْوَاتِ، أَمْ بِالقَوَاعِدِ، أَمْ بِالبِنْيَةِ، أَمْ بِالأَسَالِيبِ.

وَعَلَىٰ هَذَا تَبْقَىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا وَتَعِيشُ بِجِوَارِ أُخْتِهَا، لَهَا طَابَعُهَا الخَاصُّ وَشَخْصِيَّتُهَا القَوِيَّةُ.

وَلَقَدْ كَانَ هَذَا شَأْنَ العَرَبِيَّةِ مَعَ اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ، وَكَذَلِكَ مَعَ اللُّغَةِ الفَارِسِيَّةِ،

حِينَ دَخَلَتِ العَرَبِيَّةُ وَالفَارِسِيَّةُ فِي صِرَاعٍ لُغَوِيٍّ، بَعْدَ أَنْ فَتَحَ العَرَبُ المُسْلِمُونَ بِلَادَ فَارِسَ[(١)].

إِنَّ مَيْدَانَ الحَرْبِ المُعْلَنَةِ عَلَىٰ القُرْآنِ وَلُغَتِهِ، هُوَ أَخْطَرُ مَيَادِينِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَأَعْدَائِهِ؛ لِأَنَّ الدَّعَوَاتِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ هَدْمَ الدِّينِ أَوِ الأَخْلَاقِ قَدْ تُضِلُّ جِيلًا مِنَ الشَّبَابِ وَلَكِنَّ الأَمَلَ فِي إِنْقَاذِ الجِيلِ القَادِمِ يَظَلُّ كَبِيرًا مَا دَامَ القُرْآنُ مَتْلُوًّا مَقْرُوءًا، وَمَا دَامَ النَّاسُ يَتَذَوَّقُونَ حَلَاوةَ أُسْلُوبِهِ، وَجَمَالَ تَوْجِيهِهِ.

أَمَّا الدَّعْوَةُ إِلَىٰ هَدْمِ اللُّغَةِ، أَوْ مَسْخِهَا، أَوِ اسْتِبْدَالِهَا، فَهِيَ تَرْمِي إِلَىٰ قَتْلِ القُرْآنِ نَفْسِهِ -وَهَيْهَاتَ- وَذَلِكَ بِعَزْلِ المُسْلِمِينَ عَنْهُ لِيُصْبِحَ أَثَرًا مَيِّتًا كَأَسَاطِيرِ الأَوَّلِينَ الَّتِي أَصْبَحَتْ حَشْوَ لَفَائِفِ البَرْدِيِّ؛ وَذَلِكَ بِتَنْشِئَةِ الأَجْيَالِ المُتَلَاحِقَةِ عَلَىٰ الأَسَالِيبِ المُسْتَجْلَبَةِ مِنَ الغَرْبِ، الَّتِي تُبْنَىٰ عَلَىٰ الجُمْلَةِ الإِنْجِيلِيَّةِ -كَمَا عَبَّرَ الرَّافِعِيُّ- وَذَلِكَ بِأَنْ تُصْبِحَ لُغَةُ القُرْآنِ عَتِيقَةً بَالِيَةً بِتَحْوِيلِ أَذْوَاقِ الأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ عَنْهَا.

وَبَيْنَمَا نَجَحَ اليَهُودُ فِي إِحْيَاءِ لُغَتِهِمُ العِبْرِيَّةِ المَيِّتَةِ، وَاتِّخَاذِهَا لُغَةً لِلْأَدَبِ وَالعِلْمِ وَالحَيَاةِ، كَانَ بَعْضُ المَفْتُونِينَ مِنَ العَرَبِ يُنَادُونَ -وَلَا يَزَالُونَ- بِأَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الفَصِيحَةَ لُغَةٌ مَيِّتَةٌ، وَيَنْشُرُونَ فِي ذَلِكَ المَقَالَاتِ الطِّوَالَ، المَكْتُوبَةَ «بِاللُّغَةِ الفَصِيحَةِ!!» الَّتِي يَزْعُمُونَ مَوْتَهَا.

(١) انظر: «علم اللغة» لعلي عبد الواحد (ص٢٢٩)، و«المدخل إلىٰ علم اللغة» لرمضان عبد التواب (ص١٧١).

لَقَدْ لَخَّصَ الأُسْتَاذُ مَحْمُود شاكِر رَحِمَهُ اللَّهُ قِصَّةَ الصِّرَاعِ فَقَالَ:

«مُنْذُ اسْتَيْقَظَ العَالَمُ الأُورُبِّيُّ لِنَهْضَتِهِ الحَدِيثَةِ، وَهُوَ يَرَىٰ عَجَبًا مِنْ حَوْلِهِ، أُمَمٌ مُخْتَلِفَةُ الأَجْنَاسِ وَالأَلْوَانِ وَالأَلْسِنَةِ، مِنْ قَلْبِ رُوسيَا، إِلَىٰ الصِّينِ، إِلَىٰ الهِنْدِ، إِلَىٰ جَزَائِرِ الهِندِ، إِلَىٰ فَارِسَ، إِلَىٰ تُرْكِيَا، إِلَىٰ بِلَادِ العَرَبِ، إِلَىٰ شَمَالِ إِفْرِيقِيَّةَ، إِلَىٰ قَلْبِ القَارَّةِ الإِفْرِيقِيَّةِ وَسَوَاحِلِهَا، إِلَىٰ قَلْبِ أُورُبَّا نَفْسِهَا، تَتْلُو كِتَابًا وَاحِدًا يَجْمَعُهَا، يَقْرَؤُهُ مَنْ لِسَانُهُ العَرَبِيَّةُ، وَمَنْ لِسَانُهُ غَيْرُ العَرَبِيَّةِ، وَتَحْفَظُهُ جَمْهَرَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْهُمْ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، عَرَفَتْ لُغَةَ العَرَبِ أَمْ لَمْ تَعْرِفْهَا، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْ جَمِيعَهُ حَفِظَ بَعْضَهُ، لِيُقِيمَ بِهِ صَلَاتَهُ.

وَتَدَاخَلَتْ لُغَتُهُ فِي اللُّغَاتِ، وَتَحَوَّلَتْ خُطُوطُ الأُمَمِ إِلَىٰ الخَطِّ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ هَذَا الكِتَابُ، كَالهِنْدِ، وَجَزَائِرِ الهِنْدِ، وَفَارِسَ، وَسَائِرِ مَنْ دَانَ بِالإِسْلَامِ.

فَكَانَ عَجَبًا أَلَّا يَكُونَ فِي الأَرْضِ كِتَابٌ كَانَتْ لَهُ هَذِهِ القُوَّةُ الخَارِقَةُ فِي تَحْوِيلِ البَشَرِ إِلَىٰ اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ مُتَّسِقٍ عَلَىٰ اخْتِلَافِ الأَجْنَاسِ وَالأَلْوَانِ وَالأَلْسِنَةِ.

فَمُنْذُ ذَلِكَ العَهْدِ ظَهَرَ «**الاسْتِشْرَاقُ**» لِدِرَاسَةِ أَحْوَالِ هَذَا العَالَمِ الفَسِيحِ الَّذِي تَتَصَدَّىٰ لَهُ أُورُبَّا المَسِيحِيَّةُ -كَذَا- بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَلَىٰ حِينِ غَفْوَةٍ رَانَتْ عَلَىٰ هَذَا العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ.

فَكَانَ مِنْ أَوَّلِ هَمِّ الاسْتِشْرَاقِ أَنْ يَبْحَثَ لِأُورُبَّا النَّاهِضَةِ عَنْ سِلَاحٍ غَيْرِ أَسْلِحَةِ القِتَالِ، لِتَخُوضَ المَعْرَكَةَ مَعَ هَذَا الكِتَابِ الَّذِي سَيْطَرَ عَلَىٰ الأُمَمِ المُخْتَلِفَةِ الأَجْنَاسِ وَالأَلْوَانِ وَالأَلْسِنَةِ، وَجَعَلَهَا أُمَّةً وَاحِدَةً، تَعُدُّ العَرَبِيَّةَ لِسَانَهَا،

وَتَعُدُّ تَارِيخَ العَرَبِ تَارِيخَهَا.

وَبَدَأَ الغَزْوُ المُسَلَّحُ، وَسَارَ الاسْتِشْرَاقُ تَحْتَ رَايَتِهِ، وَزَادَتِ الخِبْرَةُ بِهَذِهِ الأُمَمِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهَا لَهُ لِسَانٌ غَيْرُ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ، أُعِدَّتْ لَهُ سِيَاسَةٌ جَدِيدَةٌ لِإِغْرَاقِهِ فِي لِسَانِ الغَازِي الأُورُبِّي حَتَّىٰ يُسَيْطِرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ لِسَانُهُ عَرَبِيًّا، أُعِدَّتْ لَهُ سِيَاسَةٌ أُخْرَىٰ لِإِغْرَاقِهِ فِي تَخَلُّفٍ مُمِيتٍ، **لَخَّصَهَا (وليم جيفورد بلجراف) فِي كَلِمَتِهِ المَشْهُورَةِ:**

«مَتَىٰ تَوَارَىٰ القُرْآنُ وَمَدِينَةُ مَكَّةَ عَنْ بِلَادِ العَرَبِ، يُمْكِنُنَا حِينَئِذٍ أَنْ نَرَىٰ العَرَبِيَّ يَتَدَرَّجُ فِي سَبِيلِ الحَضَارَةِ -يَعْنِي: الحَضَارَةَ النَّصْرَانِيَّةَ- الَّتِي لَمْ يُبْعِدْهُ عَنْهَا إِلَّا مُحَمَّدٌ وَكِتَابُهُ»، فَكَانَ بَيِّنًا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَارَىٰ القُرْآنُ حَتَّىٰ تَتَوَارَىٰ لُغَتُهُ»[1].

وَبَعْدَ أَنْ عَرَضَ الأُسْتَاذُ مَحْمُود شَاكِر فُصُولًا مِنْ قِصَّةِ المُؤَامَرَةِ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ، قَالَ: «كَانَ يَقْبَعُ بَيْنَ جُدْرَانِ دَارِ الكُتُبِ المِصْرِيَّةِ مَاكِرٌ خَبِيثٌ يُقَالُ لَهُ: «**ولهلم سبيتا**»، نَزَلَ مِصْرَ، وَعَاشَ فِي الأَحْيَاءِ المِصْرِيَّةِ، وَدَرَسَ اللُّغَةَ العَامِّيَّةَ، وَوَجَدَ أَنَّهَا تَخْتَلِفُ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ، وَمِنْ حَيٍّ إِلَىٰ حَيٍّ، فَلَمَّا رَأَىٰ هُوَ وَمَنْ يَهْدِفُ إِلَىٰ تَحْطِيمِ حَرَكَةِ الإِحْيَاءِ مِنْ أَهْلِ الاسْتِعْمَارِ الأُورُبِّيِّ، أَنَّ الأَمْرَ يُوشِكُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ مَا لَا يَحْمَدُونَ عُقْبَاهُ، مِنْ سِيَادَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَنَهْضَتِهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ.

---

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود محمد شاكر (ص١٥٧).

سَارَعَ إِلَىٰ تَأْلِيفِ كِتَابٍ سَمَّاهُ: «**قَوَاعِد اللُّغَة العَامِّيَّة فِي مِصْرَ**»، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ فِيهِ عَلَىٰ الدِّرَاسَةِ، بَلْ كَشَفَ فِي مُقَدِّمَتِهِ عَنِ الغَرَضِ الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ، فَقَالَ:

«وَأَخِيرًا سَأُجَازِفُ بِالتَّصْرِيحِ عَنِ الأَمَلِ الَّذِي رَاوَدَنِي عَلَىٰ الدَّوَامِ طُولَ مُدَّةِ جَمْعِ هَذَا الكِتَابِ، وَهُوَ أَمَلٌ يَتَعَلَّقُ بِمِصْرَ نَفْسِهَا (مَا أَشَدَّ حُبَّكَ لِمِصْرَ!!) وَيَمَسُّ أَمْرًا هُوَ بِالنِّسْبَةِ لَهَا، وَإِلَىٰ شَعْبِهَا يَكَادُ يَكُونُ مَسْأَلَةَ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ (بِلَا شَكَّ يَا ولهلم!!) فَكُلُّ مَنْ عَاشَ فَتْرَةً طَوِيلَةً فِي بِلَادٍ تَتَكَلَّمُ العَرَبِيَّةَ، يَعْرِفُ إِلَىٰ أَيِّ حَدٍّ كَبِيرٍ تَتَأَثَّرُ كُلُّ نَوَاحِي النَّشَاطِ فِيهَا، بِسَبَبِ الاخْتِلَافِ الوَاسِعِ بَيْنَ لُغَةِ الحَدِيثِ، وَلُغَةِ الكِتَابَةِ».

وَبَيِّنٌ جِدًّا أَنَّ ولهلم هَذَا مُخَادِعٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ نَشْرَ التَّعْلِيمِ الصَّحِيحِ كَافٍ فِي إِزَالَةِ هَذِهِ الصُّعُوبَةِ بِلَا أَدْنَىٰ رَيْبٍ، كَمَا حَدَثَ فِي جَمِيعِ لُغَاتِ الدُّنْيَا، وَلَا يَزَالُ يَحْدُثُ إِلَىٰ اليَوْمِ.

ثُمَّ يَقُولُ: «فَفِي مِثْلِ تِلْكَ الظُّرُوفِ، لَا يُمْكِنُ مُطْلَقًا التَّفْكِيرُ فِي ثَقَافَةٍ شَعْبِيَّةٍ، إِذْ كَيْفَ يُمْكِنُ فِي فَتْرَةِ التَّعْلِيمِ الابْتِدَائِيِّ القَصِيرِ، أَنْ يَحْصُلَ المَرْءُ حَتَّىٰ عَلَىٰ نِصْفِ مَعْرِفَةٍ بِلُغَةٍ صَعْبَةٍ جِدًّا كَاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ؟».

وَلَا شَكَّ أَنَّ (ولهلم) هَذَا أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ صُعُوبَةِ الفُصْحَىٰ!! لِأَنَّهُ أَدْرَىٰ النَّاسِ بِهَا، ثُمَّ يَتَّجِهُ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ فَيَقُولُ:

«وَطَرِيقَةُ الكِتَابَةِ العَقِيمَةِ؛ أَيْ: بِحُرُوفِ الهِجَاءِ المُعَقَّدَةِ، يَقَعُ عَلَيْهَا بِالطَّبْعِ

أَكْبَرُ قِسْطٍ مِنَ اللَّوْمِ فِي كُلِّ هَذَا.

وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنِ الأَمْرُ سَهْلًا لَوْ أُتِيحَ لِلطَّالِبِ أَنْ يَكْتُبَ بِلُغَةٍ، إِنْ لَمْ تَكُنْ هِيَ لُغَةَ الحَدِيثِ الشَّائِعَةَ، فَهِيَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ لَيْسَتِ العَرَبِيَّةَ الكِلَاسِيكِيَّةَ القَدِيمَةَ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يُجْبَرَ عَلَىٰ الكِتَابَةِ بِلُغَةٍ هِيَ مِنَ الغَرَابَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الجِيلِ الحَالِيِّ مِنَ المِصْرِيِّينَ، مِثْلُ غَرَابَةِ اللَّاتِينِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الإِيطَالِيِّينَ، وَبِالْتِزَامِ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ الكِلَاسِيكِيَّةِ القَدِيمَةِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْمُوَ أَدَبٌ حَقِيقِيٌّ وَيَتَطَوَّرَ».

وَظَاهِرٌ أَنَّ جَمِيعَ التَّالِفِينَ قَدِيمِهُمْ وَحَدِيثِهُمْ، كَـ: سَلَامَة مُوسَىٰ، وَلُويس عَوَض، إِنَّمَا يُكَرِّرُونَ هَذِهِ المَقَالَةَ بِلَا تَغْيِيرٍ وَلَا تَبْدِيلٍ، وَتَشْبِيهُهُمْ هُوَ نَفْسُ التَّشْبِيهِ.

ثُمَّ انْظُرْ مَا يَقُولُ «ولهلم سبيتا» فِي شَأْنِ القُرْآنِ، وَقَارِنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَقُولُهُ لُويس عَوَض: «فَلِمَاذَا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ هَذِهِ الحَالَةِ المُؤْسِفَةِ إِلَىٰ مَا هُوَ أَحْسَنُ؟ بِبَسَاطَةٍ، لِأَنَّ هُنَاكَ خَوْفًا مِنَ التَّعَدِّي عَلَىٰ حُرْمَةِ الدِّينِ، إِذَا تَرَكْنَا لُغَةَ القُرْآنِ كُلِّيَّةً، وَلَكِنَّ لُغَةَ القُرْآنِ لَا يُكْتَبُ بِهَا الآنَ فِي أَيِّ قُطْرٍ (انْظُرْ: مَاذَا يَقُولُونَ!!) فَأَيْنَمَا وُجِدَتْ لُغَةٌ عَرَبِيَّةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَهِيَ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الوُسْطَىٰ؛ أَيْ: لُغَةُ الدَّوَاوِينِ.

وَحَتَّىٰ مَا يُدْعَىٰ بِالوَحْدَةِ بَيْنَ الشُّعُوبِ الإِسْلَامِيَّةِ (انْظُرْ: مَا تَتَضَمَّنُهُ هَذِهِ الكَلِمَاتُ!!) لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقْلِقَهَا تَبَنِّي لُغَةِ الحَدِيثِ العَامِّيَّةِ، إِذْ إِنَّ لُغَةَ الصَّلَاةِ وَالطُّقُوسِ الدِّينِيَّةِ الأُخْرَىٰ سَتَظَلُّ كَمَا هِيَ فِي كُلِّ مَكَانٍ».

وَهَذَا مُفْتٍ آخَرُ جَاءَ يُفْتِي المُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ، كَمَا أَفْتَىٰ لويس عوض بِجَوَازِ تَرْجَمَةِ القُرْآنِ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ!!

وَلَمْ يَلْبَثِ الأَمْرُ غَيْرَ قَلِيلٍ، حَتَّىٰ قَامَ (المُقْتَطفُ)، وَكَانَ مُمَالِئًا لِلإِنْجِلِيزِ، فَاقْتَرَحَ (سنة١٨٨١) كِتَابَةَ العُلُومِ بِلُغَةِ الحَدِيثِ، بِلَا إِشَارَةٍ لِمَا قَالَهُ سبيتا، (سنة١٨٨٠)، وَاسْتَدَلَّ عَلَىٰ ضَرُورَةِ ذَلِكَ بِمَا اسْتَدَلَّ بِهِ سبيتا، وَجَاءَ أَيْضًا بِالتَّشْبِيهِ نَفْسِهِ؛ أَي: (البُعْد بَيْنَ اللَّاتِينِيَّةِ وَالإِيطَالِيَّةِ)، وَأَدِلَّتُهُ وَحُجَجُهُ، فِيهَا نَفْسُ الطَّابَعِ المُتَّسِمِ بِالغَبَاوَةِ الاسْتِشْرَاقِيَّةِ التَّبْشِيرِيَّةِ، الَّتِي تَتَظَاهَرُ بِالجِدِّ وَالعِلْمِ، وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ تَكْشِفُ عَنْ طَبِيعَةِ عَدَمِ الحَيَاءِ مِنَ اسْتِغْفَالِ السَّامِعِينَ أَوِ القَارِئِينَ.

وَعَمَلُ (المُقْتَطفِ) سَيِّئٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُ اسْتَغْفَلَ النَّاسَ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً بِالحُجَجِ السَّخِيفَةِ المُخْتَلَسَةِ، وَمَرَّةً بِالتَّظَاهُرِ بِأَنَّ هَذَا الاقْتِرَاحَ آتٍ مِنْ قِبَلِ قَوْمٍ عَرَبِ اللِّسَانِ وَالمَوْلِدِ، هُمْ أَصْحَابُ (المُقْتَطفِ)، مَعَ أَنَّ انْكِشَافَ أَمْرِهِمْ قَرِيبٌ كَانَ وَمَيْسُورٌ.

وَبِإِلْقَاءِ (المُقْتَطفِ) هَذِهِ القُنْبُلَةَ (سنة١٨٨١)، بَدَأَتْ كَلِمَاتُ «سبيتا»! تَأْخُذُ طَرِيقَهَا إِلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ، وَقَامَ خَلِيلٌ اليَازِجِيُّ -وَهُوَ لُبْنَانِيٌّ نَصْرَانِيٌّ- فَدَفَعَ مَا قَالَهُ أَصْحَابُ (المُقْتَطفِ) دَفْعًا قَوِيًّا شَدِيدًا.

وَهُوَ كَلَامُ عَاقِلٍ لَا هَوَىٰ لَهُ، وَلَكِنْ أَيَّدَ رَأْيَ (المُقْتَطفِ) بَعْضُ النَّاسِ، بَيْدَ أَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ هَذَا النِّطَاقِ الضَّيِّقِ، وَشُغِلَ النَّاسُ بِالنَّكْبَةِ الكُبْرَىٰ؛ بِهَزِيمَةِ عُرَابِي، وَدُخُولِ الإِنْجِلِيزِ، وَاسْتِيلَائِهِمْ عَلَىٰ التَّعْلِيمِ كُلِّهِ، وَجَعَلُوهُ مُلْحَقًا

بِوَزَارَةِ الأَشْغَالِ العُمُومِيَّةِ!!!»[1].

أَبْرَزَ خَلِيلُ اليَازجيُّ فِي رَدِّهِ عَلَىٰ اقْتِرَاحِ (المُقْتَطفِ) سنة ١٨٨١ نُقْطَتَيْنِ:

أُولَاهُمَا: أَنَّ اتِّخَاذَ العَامِّيَّةَ لُغَةً لِلْكِتَابَةِ فِيهِ هَدْمُ بِنَايَةِ التَّصَانِيفِ العَرَبِيَّةِ بِأَسْرِهَا، وَإِضَاعَةُ كَثِيرٍ مِنْ أَتْعَابِ المُتَقَدِّمِينَ، ثُمَّ تَكَلُّفُ مِثْلِهَا فِي المُسْتَقْبَلِ.

وَالأُخْرَىٰ: أَنَّ عَامَّةَ النَّاسِ وَجُهَّالَهُم يَفْهَمُونَ العَرَبِيَّةَ الفَصِيحَةَ وَيَتَذَوَّقُونَهَا، عَلَىٰ غَيْرِ مَا يَدَّعِيهِ خُصُومُ العَرَبِيَّةِ.

وَأَبْرَزَ (الهِلَالُ) فِي رَدِّهِ عَلَىٰ أَحَدِ قُرَّائِهِ سنة (١٩٠٢) النُّقَطَ التَّالِيَةَ:

١ - أَنَّ المُسْلِمِينَ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنِ الفُصْحَىٰ؛ لِمُطَالَعَةِ القُرْآنِ وَالحَدِيثِ وَسَائِرِ كُتُبِ الدِّينِ.

٢ - أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَلَىٰ أَفْهَامِ العَامَّةِ، إِلَّا إِذَا أُرِيدَ التَّقَعُّرُ وَاسْتِخْدَامُ الأَلْفَاظِ الغَرِيبَةِ، أَمَّا لُغَةُ الإِنْشَاءِ العَصْرِيَّةُ فَهِيَ شَائِعَةٌ، يَفْهَمُهَا الخَاصُّ وَالعَامُّ.

٣- أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قِيَاسُ العَرَبِيَّةِ عَلَىٰ اللَّاتِينِيَّةِ؛ لِأَنَّ الفَرْقَ بَيْنَ اللَّاتِينِيَّةِ وَفُرُوعِهَا أَبْعَدُ كَثِيرًا مِنَ الفَرْقِ بَيْنَ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ وَفُرُوعِهَا العَامِّيَّةِ، فَالعَامِيُّ الإِنْجِلِيزِيُّ وَالفَرَنْسِيُّ مَثَلًا يَنْظُرُ إِلَىٰ اللَّاتِينِيَّةِ نَظَرَهُ إِلَىٰ لُغَةٍ غَرِيبَةٍ، أَمَّا العَامِّيُّ العَرَبِيُّ فَإِنَّهُ يَفْهَمُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَىٰ، وَإِذَا فَاتَهُ فَهْمُ بَعْضِ الأَلْفَاظِ، فَإِنَّ

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٦١).

المَعْنَىٰ الإِجْمَالِيِّ يَنْدُرُ أَنْ يَفُوتَهُ.

٤- أَنَّ الزَّعْمَ بِأَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ بِدْعٌ فِي اللُّغَاتِ بِامْتِيَازِ اللُّغَةِ المَكْتُوبَةِ فِيهَا عَنِ اللُّغَةِ المَحْكِيَّةِ زَعْمٌ بَاطِلٌ، فَالإِنْجِلِيزُ يَكْتُبُونَ العِلْمَ بِلُغَةٍ لَا يَفْهَمُهَا عَامَّتُهُمْ، يُسَمُّونَهَا لُغَةً عِلْمِيَّةً.

فَالعَامِّيُّ مِنَ الفَرَنْسِيِّينَ لَا يَفْهَمُ أَبْحَاثَ (رينان) فِي فَلْسَفَةِ التَّارِيخِ، وَالعَامِّيُّ الإِنْجِلِيزِيُّ لَا يَفْهَمُ مَا كَتَبَهُ (سبنْسَر) فِي فَلْسَفَةِ العمْرَانِ، وَالعَامِّيُّ مِنَ الأَلْمَانِ لَا يَفْهَمُ مَا كَتَبَهُ (شوبنهور) فِي فَلْسَفَةِ الوُجُودِ.

٥- أَنَّ الذَّاهِبِينَ إِلَىٰ أَنْ تَتَّخِذَ كُلُّ أُمَّةٍ عَرَبِيَّةٍ لَهْجَتَهَا العَامِّيَّةَ، هُمُ القَائِلُونَ بِانْحِلَالِ العَالَمِ العَرَبِيِّ، وَتَشْتِيتِ شَمْلِ النَّاطِقِينَ بِالعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّ أُمَمَ أُورُبَّا لَمْ يُهْمِلُوا اللُّغَةَ اللَّاتِينِيَّةَ وَيَسْتَبْدِلُوهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ دَوْلَةً مُسْتَقِلَّةً يُهِمُّهَا الانْفِصَالُ عَنْ جِيرَانِهَا أَكْثَرَ مِمَّا يُهِمُّهَا الانْضِمَامُ إِلَيْهِمْ، لِمَا يَقْتَضِيهِ طَلَبُ الاسْتِقْلَالِ مِنَ المُنَافَسَةِ لِمُسَابِقِيهِ.

عَلَىٰ أَنَّ الوَاقِعَ المَلْمُوسَ يُكَذِّبُ كُلَّ دَعَاوَىٰ الهَدَّامِينَ، وَالتَّارِيخُ أَصْدَقُ مِنْ كُلِّ مَا يَكْتُبُونَ، فَقَدِ اسْتَطَاعَتِ العَرَبِيَّةُ البَدَوِيَّةُ أَنْ تُسَايِرَ الحَضَارَةَ فِي بَغْدَادَ وَلَمْ تَنْهَزِمْ أَمَامَ الفَارِسِيَّةِ أَوِ التُّرْكِيَّةِ أَوِ اليُونَانِيَّةِ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تُسَايِرَهَا فِي الأَنْدَلُسِ بَعْدَ أَنْ فَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَىٰ البِيئَةِ الجَدِيدَةِ.

وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تُسَايِرَ أَلْوَانًا مِنَ الحَضَارَاتِ خِلَالَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا أَوْ أَكْثَرَ، فِي بِيئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ أَشَدَّ التَّبَايُنِ، وَصَمَدَتْ أَمَامَ الغَارَاتِ المُدَمِّرَةِ، وَخِلَالَ

الاحْتِلَالِ الأَجْنَبِيِّ الطَّوِيلِ.

هَدَأَتِ الأُمُورُ بَعْضَ هُدُوءٍ بَعْدَ هُرَاءِ (سبيتا)، وَاقْتِرَاحِ (المُقْتَطفِ)، وَلَكِنَّهَا عَادَتْ جَذَعَةً سنة ١٩٠٢ عِنْدَمَا أَلَّفَ أَحَدُ قُضَاةِ مَحْكَمَةِ الاسْتِئْنَافِ الأَهْلِيَّةِ فِي مِصْرَ مِنَ الإِنْجِلِيزِ -وَهُوَ القَاضِي ولْمُور- كِتَابًا عَمَّا سَمَّاهُ: لُغَةَ القَاهِرَةِ، وَضَعَ لَهَا فِيهِ قَوَاعِدَ، وَاقْتَرَحَ اتِّخَاذَهَا لُغَةً لِلْعِلْمِ وَالأَدَبِ.

كَمَا اقْتَرَحَ كِتَابَتَهَا بِالحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ، وَتَنَبَّهَ النَّاسُ لِلْكِتَابِ حِينَ أَشَادَ بِهِ (المُقْتَطف) فِي بَابِ «التَّقْرِيظِ وَالانْتِقَادِ»، فَحَمَلَتْ عَلَيْهِ الصُّحُفُ مُشِيرَةً إِلَىٰ مَوْضِعِ الخَطَرِ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي لَا تَقْصِدُ إِلَّا إِلَىٰ مُحَارَبَةِ الإِسْلَامِ فِي لُغَتِهِ.

قَالَ الأُسْتَاذُ مَحْمُود شَاكِر رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَكِنْ، هَلْ هَدَأَ الأَمْرُ وَانْتَهَىٰ؟ كَلَّا، فَقَدْ كَانَ أَيْضًا فِي مِصْرَ (كارل فولرس الأَلْمَانِيُّ) خَادِمُ الإِنْجِلِيزِ، وَ(وليم وِلْكُوكس) المُهَندِسُ المُنَصِّرُ الإِنْجِلِيزِيُّ، وَبَدَأَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَرَكَةً مُنْفَصِلَةً، وَلَكِنَّهَا مُتَّصِلَةُ المَعَانِي، فَأَلَّفَ (فولرس) كِتَابًا فِي اللَّهْجَةِ العَامِّيَّةِ الحَدِيثَةِ فِي مِصْرَ سنة (١٨٩٠).

ثُمَّ تَوَلَّىٰ تَرْجَمَتَهُ فِي سَنَةِ ١٨٩٥ إِلَىٰ الإِنْجِلِيزِيَّةِ: (بوركيت).

وَأَلَحَّ عَلَىٰ مَا أَلَحَّ عَلَيْهِ (سبيتا)، مِنْ صِفَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ بِالجُمُودِ وَالصُّعُوبَةِ، وَشَبَّهَهَا بِاللَّاتِينِيَّةِ، وَشَبَّهَ العَامِّيَّةَ بِالإِيطَالِيَّةِ.

أَمَّا (وِلكوكس)، فَأَلْقَىٰ مُحَاضَرَةً وَنَشَرَهَا فِي مَجَلَّةِ الأَزْهَرِ، الَّتِي آلَتْ إِلَيْهِ سَنَةَ (١٨٩٣)، وَزَعَمَ فِيهَا: أَنَّ الَّذِي عَاقَ المِصْرِيِّينَ عَنْ الاخْتِرَاعِ هُوَ

كِتَابَتُهُمْ بِالفُصْحَىٰ، وَدَعَا إِلَىٰ التَّأْلِيفِ بِالعَامِّيَّةِ، وَقَالَ لِلنَّاسِ:

(مَا أَوْقَفَنِي هَذَا المَوْقِفَ إِلَّا حُبِّي لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَرَغْبَتِي فِي انْتِشَارِ المَعَارِفِ، وَمَا أَجِدُهُ فِي نَفْسِي مِنَ المَيْلِ إِلَيْكُمْ، الدَّالِّ عَلَىٰ مَيْلِكُمْ إِلَيَّ).

وَهَذَا كَلَامٌ ثَقِيلُ الدَّمِ جِدًّا كَوَعْظِ المُنَصِّرِينَ، وَهُوَ مِنْهُمْ.

وَهَذَا الغَبِيُّ أَيْضًا جَاءَ بِتَشْبِيهَاتٍ جَدِيدَةٍ فِي مَقَالَتِهِ، فَشَبَّهَ الفُصْحَىٰ بِاللَّاتِينِيَّةِ وَالعَامِّيَّةَ بِالإِنْجِلِيزِيَّةِ!! وَهَذِهِ بَرَاعَةٌ خَارِقَةٌ، وَزَعَمَ أَنَّ اللُّغَةَ الفُصْحَىٰ مَاتَتْ؛ لِأَنَّهَا صَعْبَةٌ وَجَامِدَةٌ، وَدَعَا إِلَىٰ اتِّخَاذِ العَامِّيَّةِ لُغَةً أَدَبِيَّةً اقْتِدَاءً بِالإِنْجِلِيزِ.

وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتمَ اشْمِئْزَازِي؛ لِأَنِّي مُنْذُ كُنْتُ صَغِيرًا، إِلَىٰ هَذَا اليَوْمِ، لَا أَكَادُ أَقْرَأُ كَلَامَ هَذَا الرَّجُلِ إِلَّا لَحِقَنِي الغَثَيَانُ مِنْ ثِقَلِهِ الَّذِي لَا مَثِيلَ لَهُ فِي شَيءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ، مَهْمَا اسْتَقْذَرَتْهَا النَّفْسُ، وَمِنْ أَشَدِّ غَثَاثَتِهِ وَثِقَلِهِ فِي هَذَا الأَمْرِ، أَنَّهُ نُشِرَ فِي مَجَلَّةِ الأَزْهَرِ، حَيْثُ نَشَرَ مُحَاضَرَتَهُ، إِعْلَانًا يُغْرِي فِيهِ بِاتِّخَاذِ العَامِّيَّةِ فِي الكِتَابَةِ هَذَا نَصُّهُ:

«مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذِهِ الخُطْبَةَ بِاللُّغَةِ الدَّارِجَةِ المِصْرِيَّةِ، وَكَانَتْ مُوَافِقَةً جِدًّا، يُكَافَأُ بِإِعْطَائِهِ أَرْبَعَةَ جُنَيْهَاتٍ إِفْرِنْكِيَّةٍ، وَإِنْ كَثُرَ المُتَقَدِّمُونَ، فَيُعْطَىٰ هَذَا المَبْلَغُ لِمَنْ يَحُوزُ الأَوَّلِيَّةَ».

وَأَنَا أَسْتَحْلِفُ القَارِئَ، أَلَمْ يَشْعُرْ بِالغَثَيَانِ مِنْ هَذَا المُبَشِّرِ الصَّفِيقِ الوَجْهِ؟!»[1].

---

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٦٤).

وَكَانَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ مُؤَقَّتَةً أَيْضًا؛ فَإِنَّ هَذَا الوَقْتَ قَدْ صَادَفَ نَهْضَةً حَسَنَةً فِي طَبْعِ كُتُبِ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ فِي مِصْرَ وَفِي غَيْرِ مِصْرَ، وَأَقْبَلَ كَثِيرٌ مِنَ المُتَعَلِّمِينَ عَلَيْهَا.

وَصَادَفَ أَيْضًا اسْتِيلَاءَ (دنلوب) عَلَىٰ التَّعْلِيمِ فِي مِصْرَ، وَوَضْعِهِ النِّظَامَ الَّذِي أَرَادَ بِهِ أَنْ يُغَلِّبَ اللُّغَةَ الإِنْجِلِيزِيَّةَ فِي التَّعْلِيمِ، وَيُضْعِفَ تَدْرِيسَ العَرَبِيَّةِ مَا اسْتَطَاعَ، وَيَجْعَلَهَا مُبَغَّضَةً إِلَىٰ الطَّلَبَةِ، مُحْتَقَرَةً بِقَدْرِ الإِمْكَانِ (**وَمَعَ الأَسَفِ هَذَا هُوَ النِّظَامُ السَّائِدُ إِلَىٰ اليَوْمِ فِي مَدَارِسِنَا، مَعَ أَنَّهُ هُوَ نِظَامُ دنلوب، وَلَا نِظَامَ لِدنلوب سِوَاهُ**).

فَفَرَضَ (دنلوب) تَعْلِيمَ العُلُومِ كُلِّهَا بِالإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَاخْتَصَرَ دِرَاسَةَ العَرَبِيَّةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا اخْتِصَارًا سَوْفَ يُؤَدِّي بَعْدَ قَلِيلٍ إِلَىٰ وُجُوبِ اسْتِمْرَارِ ضَعْفِ تَعْلِيمِ العَرَبِيَّةِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الجِهَاتِ الَّتِي تُسَيْطِرُ عَلَىٰ سِيَاسَةِ المِنْطَقَةِ، أَرَادَتْ أَنْ تَبْعَثَ وَجْهًا جَدِيدًا لِيَتَوَلَّىٰ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ، وَتَحْقِيرِ الفُصْحَىٰ، فَأَخْرَجَتْ مِنْ أَحَدِ قُضَاةِ المَحَاكِمِ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: (سلدن وِلْمور)، فَأَلَّفَ هُوَ الآخَرُ كِتَابًا سَمَّاهُ: «العَرَبِيَّةُ المَحَلِّيَّةُ فِي مِصْرَ» سنة (١٩٠١).

دَعَا فِيهِ إِلَىٰ اتِّخَاذِ العَامِّيَّةِ لُغَةً أَدَبِيَّةً، وَيُهَدِّدُنَا أَنَّنَا إِذَا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ: «فَإِنَّ لُغَةَ الحَدِيثِ وَلُغَةَ الأَدَبِ سَتَنْقَرِضَانِ، وَسَتَحُلُّ مَحَلَّهُمَا لُغَةٌ أَجْنَبِيَّةٌ، نَتِيجَةً لِزِيَادَةِ الاتِّصَالِ بِالأُمَمِ الأُورُبِّيَّةِ».

وَهَذَا الإِنْجِلِيزِيُّ -كَمَا تَرَىٰ- مُحِبٌّ لِمِصْرَ! مُشْفِقٌ عَلَىٰ ضَيَاعِ العَامِّيَّةِ وَالفُصْحَىٰ جَمِيعًا!

وَقَالَ: «وَمِنَ الحِكْمَةِ أَنْ نَدَعَ جَانِبًا كُلَّ حُكْمٍ خَاطِئٍ وُجِّهَ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ، وَأَنْ نَقْبَلَهَا عَلَىٰ أَنَّهَا اللُّغَةُ الوَحِيدَةُ لِلْبِلَادِ، عَلَىٰ الأَقَلِّ فِي الأَغْرَاضِ المَدَنِيَّةِ، الَّتِي لَيْسَتْ لَهَا صِبْغَةٌ دِينِيَّةٌ».

وَلَاسِيَّمَا بَعْدَمَا ظَنَّ (وِلمور) أَنَّهُ قَدْ أَثْبَتَ أَنَّ العَامِّيَّةَ تَخْتَلِفُ عَنِ الفُصْحَىٰ تَمَامَ الاخْتِلَافِ، وَأَنَّهَا أَكْبَرُ شَبَهًا بِفُرُوعِ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ مِنْهَا بِلُغَةِ القُرْآنِ وَلُغَةِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ.

ثُمَّ خَتَمَ كَلَامَهُ بِأَنَّ «خَيْرَ الوَسَائِلِ لِتَدْعِيمِ اللُّغَةِ القَوْمِيَّةِ -أَيِ: العَامِّيَّةِ- هِيَ أَنْ تَتَّخِذَ الصُّحُفُ الخُطْوَةَ الأُولَىٰ فِي هَذَا السَّبِيلِ، وَلَكِنَّهَا سَتَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ عَوْنٍ قَوِيٍّ مِنْ أَصْحَابِ النُّفُوذِ، فَإِذَا نَجَحَتْ هَذِهِ الحَرَكَةُ، فَإِنَّ وَقْتًا قَصِيرًا فِي التَّعْلِيمِ الإِجْبَارِيِّ، وَلْيَكُنْ سَنَتَيْنِ، سَيَكُونُ كَافِيًا لِنَشْرِ القِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ فِي البِلَادِ...

فَلَمَّا ظَهَرَ كِتَابُ «وِلْمُور» سنة (١٩٠١) اسْتَجَابَ (المُقْتَطفُ) مَرَّةً أُخْرَىٰ لِدَعْوَةِ العَامِّيَّةِ، فَهَبَّ يُقَرِّظُ الكِتَابَ، كَأَنَّهُ جَاءَ تَأْيِيدًا لِرَأْيِهِ هُوَ وَاقْتِرَاحِهِ، لَا لِرَأْيِ (سبيتا) وَاقْتِرَاحِهِ.

وَلَكِنْ مُحَصَّلُ كُلِّ ذَلِكَ لَا يَخْفَىٰ؛ لِأَنَّ الَّذِي كَانَ يُبَيِّتُهُ هَؤُلَاءِ، كَانَ يَجْرِي عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ وَأَقْلَامِهِمْ، فَيَقُولُ (المُقْتَطفُ) فِي تَقْرِيظِهِ: «وَكَثِيرًا مَا قُلْنَا

لِلْأُورُبِّيِّينَ وَالأَمْرِيكِيِّينَ الَّذِي ذَاكَرُونَا فِي هَذَا المَوْضُوعِ: إِنَّهُ لَوِ اهْتَمَّ مُحَمَّد عَلِي بَاشَا جَدُّ العَائِلَةِ الخِدِيوِيَّةِ، بِكِتَابَةِ اللُّغَةِ المَحَلِّيَّةِ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ، وَجعَلَ الكِتَابَةَ بِهَا وَحْدَهَا، لَمَا وُجِدَ فِي ذَلِكَ كَبِيرُ مَشَقَّةٍ».

ثُمَّ فِي آخِرِ الكَلَامِ تَحْرِيضٌ شَدِيدٌ، «... إِلَّا إِذَا تَسَلَّطَتْ عَلَىٰ البِلَادِ قُوَّةٌ قَاهِرَةٌ، عَضَّدَتِ السَّاعِينَ فِي ضَبْطِ اللُّغَةِ المَحَلِّيَّةِ وَكِتَابَتِهَا».

وَيَنْبَغِي لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَقِفَ قَلِيلًا عِنْدَ ذِكْرِ مُحَرِّرِ (المُقْتطفِ): «وَكَثِيرًا مَا قُلْنَا لِلْأُورُبِّيِّينَ وَالأَمريكِيِّينَ».

قَبْلَ أَنْ يَتَظَاهَرَ (المُقْتَطفُ) فِي سَنَةِ (١٨٨١) أَنَّ لَهُ اقْتِرَاحًا فِي شَأْنِ العَامِّيَّةِ وَالفُصْحَىٰ، وَيَقُولُ فِيهَا نَفْسَ مَا قَالَهُ (سبيتا) قَبْلَهُ سَنَةَ (١٨٨٠)، مُغْفِلًا ذِكْرَهُ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ شَيْئًا، وَكَأَنَّ (سبيتا) بَعِيدُ الدَّارِ لَا يَسْتَطِيعُ مُحَرِّرُ (المُقْتَطفِ) أَنْ يَلْقَاهُ بِدَارِ الكُتُبِ!!

أَرْجُو أَنْ يُحَدِّثَنِي مَنْ يُرِيدُ عَنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي تُحَاطُ بِكُلِّ هَذَا المَكْرِ وَالرِّيَاءِ وَالخِدَاعِ وَالغِشِّ، مَا هِيَ؟!

أَهِيَ صَادِرَةٌ مِنْ قُلُوبٍ خَالِصَةٍ طَالِبَةٍ لِلْحَقِّ مُطَالِبَةٍ بِهِ؟

ثُمَّ مَا اهْتِمَامُ الأُورُبِّيِّينَ وَالأَمريكِيِّينَ، وَلَيْسَ لِسَانُهُمْ بِلِسَانِنَا، فِي شَأْنِ اتِّخَاذِ العَامِّيَّةِ لِلْكِتَابَةِ الأَدَبِيَّةِ، أَوْ تَرْكِ الكِتَابَةِ بِهَا إِلَىٰ الفُصْحَىٰ؟!

ثُمَّ لِمَاذَا يَقُولُ هَذَا لِلْأُورُبِّيِّينَ وَالأَمرِيكِيِّينَ، وَكَانَ هُوَ قَادِرًا تحتَ سُلْطَانِهِمْ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ فِي مَجَلَّتِهِ؟!

إِنَّهَا أُمُورٌ غَيْرُ مَفْهُومَةٍ، بَلْ مَفْهُومَةٌ، تَجْعَلُ كُلَّ عَاقِلٍ يَرْتَابُ فِي كُلِّ دَاعِيَةٍ لِلْعَامِّيَّةِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ الخَبِيثَةِ وَحْدَهَا، فَمَا ظَنُّكَ بِالنَّوَاحِي الأُخَرِ؟!»[١].

عَرَضَ الأُسْتَاذُ مَحْمُود شَاكِر رَحِمَهُ اللَّهُ فُصُولًا مِنْ قِصَّةِ المُؤَامَرَةِ عَلَىٰ الفُصْحَىٰ، ثُمَّ قَالَ: «وَإِذَا كُنْتُ قَدْ عَرَضْتُ فِي مَقَالَتِي السَّالِفَةِ أَوَّلِيَّةَ قَضِيَّةِ اللُّغَةِ العَامِّيَّةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اسْتِبْدَالِهَا بِالفُصْحَىٰ، مُنْذُ عَهْدِ (سبيتا) الأَلْمَانِيِّ سَنَةَ (١٨٨٠)، إِلَىٰ القَاضِي (وِلمور) الإِنْجِلِيزِيِّ، وَمُحَرِّرِ (المُقْتَطفِ) فِي سَنَةِ (١٩٠١).

فَإِنِّي فِي الحَقِيقَةِ قَدِ انْتَزَعْتُ هَذَا الجُزْءَ انْتِزَاعًا مِنْ حَرَكَةٍ مُتَكَامِلَةٍ قَدِيمَةِ العَهْدِ، مُتَشَعِّبَةِ العَوَامِلِ، مُتَدَاخِلَةِ الآثَارِ»[٢].

وَذَكَرَ الأُسْتَاذُ طَرَفًا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِجُهُودِ المُنَصِّرِينَ، وَاسْتِخْدَامِ أَدَاةِ التَّعْلِيمِ الأَجْنَبِيِّ فِي هَدْمِ اللُّغَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالدِّينِ، ثُمَّ قَالَ:

«وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ فَائِدَةً عَظِيمَةً فِي تَتَبُّعِ تَارِيخِ التَّعْلِيمِ الأَجْنَبِيِّ فِي مِصْرَ فِي القَرْنَيْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ وَالعِشْرِينَ، فِي رِسَالَةٍ كَتَبَهَا (جرجس سلامة)، وَإِنْ كَانَ قَدْ نَظَرَ إِلَىٰ هَذَا المَوْضُوعِ مِنْ غَيْرِ الوَجْهِ الَّذِي نَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْهُ.

وَلَكِنَّهُ أَقَرَّ فِي مُقَدِّمَتِهِ أَنَّ هَذَا التَّعْلِيمَ قَدْ بَدَأَ فِي مِصْرَ لِأَغْرَاضٍ دِينِيَّةٍ بَحْتَةٍ، وَأَنَّهُ اتَّجَهَ نَحْوَ الاسْتِقْلَالِ وَالعُزْلَةِ: (حَتَّىٰ أَصْبَحَ التَّعْلِيمُ الأَجْنَبِيُّ دَوْلَةً

---

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٦٦).

(٢) «أباطيل وأسمار» (ص١٨١).

دَاخِلَ الدَّوْلَةِ، يُوَجِّهُ النَّشْءَ الوِجْهَةَ الَّتِي يَرَاهَا، وَيَصْبُغُهُمْ بِالصِّبْغَةِ الَّتِي يَرْغَبُهَا، دُونَ إِشْرَافٍ فِعْلِيٍّ مِنَ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ)».

وَيَقُولُ أَيْضًا: «بَلْ بَلَغَ الأَمْرُ إِلَىٰ حَدٍّ أَنِ اشْتَمَلَتْ بَعْضُ الكُتُبِ المُسْتَعْمَلَةِ عَلَىٰ مَعْلُومَاتٍ خَاطِئَةٍ مُضَلِّلَةٍ عَنْ مِصْرَ ذَاتِهَا، وَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ يُدَرَّسُ لِأَبْنَائِنَا، مَعَ انْعِدَامِ وُجُودِ أَيِّ تَوْجِيهٍ يُوَجِّهُ أَبْنَاءَنَا الوِجْهَةَ الصَّحِيحَةَ».

وَقَالَ أَيْضًا: «وَزَادَ مِنْ خُطُورَةِ كُلِّ ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ المَدَارِسِ الأَجْنَبِيَّةِ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ، قَدْ أَسْهَمَتْ بِنَصِيبٍ كَبِيرٍ فِي إِضْعَافِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ... فَهِيَ تُلْقِي فِي خِضَمِّ الحَيَاةِ المِصْرِيَّةِ كُلَّ عَامٍ، مَنْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ مِنْ طَبَقَاتِ المُتَعَلِّمِينَ فِي المَدَارِسِ الحُكُومِيَّةِ الوَطَنِيَّةِ نَظْرَةً مُتَعَالِيَةً، وَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ نَفْسَ النَّظْرَةِ [كَذَا]»[1].

عَلَىٰ أَنَّ أَعْدَاءَ العَرَبِيَّةِ وَهُمْ أَعْدَاءُ القُرْآنِ وَالإِسْلَامِ، مَا تَرَكُوا مِنْ سَبِيلٍ إِلَّا سَلَكُوهَا، وَلَا مِنْ طَرِيقٍ إِلَّا طَرَقُوهَا؛ لِحَرْبِ العَرَبِيَّةِ وَالقَضَاءِ عَلَيْهَا.

«وَثَارَتِ المَسْأَلَةُ مِنْ جَدِيدٍ، حِينَ دَعَا إِنْجِلِيزِيٌّ آخَرُ، كَانَ مُهَنْدِسًا لِلرَّيِّ فِي مِصْرَ وَهُوَ (وليم وِلْكوكس) سَنَةَ (١٩٢٦)، إِلَىٰ هَجْرِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَالتَّرْوِيجِ لِلْعَامِّيَّةِ لِتَتَمَكَّنَ مِنْ إِقْصَاءِ الفُصْحَىٰ وَاحْتِلَالِ مَكَانِهَا فِي مَيْدَانِ الأَدَبِ وَالكِتَابَةِ.

وَقَدْ مَضَىٰ يُؤَيِّدُ دَعْوَتَهُ عَمَلِيًّا بِتَرْجَمَتِهِ لِلْإِنْجِيلِ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ، وَبِتَأْلِيفِهِ

---

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٨٦).

كِتَابَهُ «الأَكْلُ وَالإِيمَانُ» بِالعَامِّيَّةِ، وَمَضَىٰ يُؤَيِّدُهَا نَظَرِيًّا فِي رِسَالَتِهِ: «سُورِيَّا وَمِصْرُ وَشَمَالُ إِفْرِيقِيَّةَ وَمَالْطَة تتكَلَّمُ البُونِيَّةَ لَا العَرَبِيَّةَ».

تِلْكَ الرِّسَالَةُ الَّتِي حَاوَلَ فِيهَا البَرْهَنَةَ عَلَىٰ أَنَّ مِصْرَ لَيْسَتْ عَرَبِيَّةَ اللُّغَةِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ مُتَمِّمًا لِلْمُحَاوَلَةِ الَّتِي بَذَلَهَا الغَرْبِيُّونَ مِنْ قَبْلُ، عَنْ طَرِيقِ بَثِّ الفِرْعَونِيَّةَ لِإِثْبَاتِ أَنَّ مِصْرَ لَيْسَتْ عَرَبِيَّةَ الجِنْسِ.

وَدَعَا فِيهَا المِصْرِيِّينَ إِلَىٰ الاهْتِمَامِ بِلُغَتِهِمْ وَهِيَ بُونِيَّة الأَصْلِ -كَمَا يَزْعُمُ- لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ التَّخَلُّصِ مِنَ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ الصَّعْبَةِ الجَامِدَةِ المُتَكَلَّفَةِ الَّتِي وَقَفَتْ فِي سَبِيلِ تَقَدُّمِهِمْ، وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ التَّعْلِيمُ إِجْبَارِيًّا بِالعَامِّيَّةِ، أَوْ كَمَا يُسَمِّيهَا «**اللُّغَةَ المِصْرِيَّةَ**»، وَرَأَىٰ أَنَّ عَشْرَ سَنَوَاتٍ بِهَذَا التَّعْلِيمِ كَفِيلَةٌ بِنَشْرِ العُلُومِ وَالمَعَارِفِ فِي مِصْرَ»[1].

وَنَوَّهَ سَلَامَة مُوسَىٰ بِـ(وِلْكوكس)، وَأَيَّدَهُ، فَثَارَتْ ثَائِرَةُ النَّاسِ مِنْ جَدِيدٍ، وَعَادُوا لِمُهَاجَمَةِ الفِكْرَةِ، وَالتَّنْدِيدِ بِمَا يَكْمُنُ وَرَاءَهَا مِنَ الدَّوَافِعِ السِّيَاسِيَّةِ، وَلَكِنَّ الدَّعْوَةَ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَجْتَذِبَ نَفَرًا مِنْ دُعَاةِ الجَدِيدِ فِي هَذِهِ المَرَّةِ.

فَاتَّخَذُوا «القَوْمِيَّةَ» وَ«الشَّعْبِيَّةَ» سِتَارًا لِدَعْوَتِهِمْ، حِينَ كَانَ لِمِثْلِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ رَوَاجٌ، وَكَانَ لَهَا بَرِيقٌ خَدَّاعٌ يُعْشِي الأَبْصَارَ، وَحِينَ كَانَ النَّاسُ مَفْتُونِينَ بِكُلِّ مَا يَحْمِلُ هَذَا العُنْوَانَ فِي أَعْقَابِ ثَوْرَةٍ شَعْبِيَّةٍ تَمَخَّضَتْ عَنِ الفِرْعَونِيَّةِ.

وَحِينَ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِمَا فَعَلَ الكَمَالِيُّونَ مِنَ اسْتِبْدَالِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ

---

(١) راجع: «تاريخ الدعوة إلىٰ العامية وآثارها في مصر» لنفوسة زكريا سعيد (ص١٢٧).

بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ، وَتَرْجَمَةِ القُرْآنِ لِلُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ، وَإِلْزَامِ النَّاسِ بِالتَّعَبُّدِ بِهِ، وَتَحْرِيمِ تَدْرِيسِ العَرَبِيَّةِ فِي غَيْرِ مَعَاهِدَ دِينِيَّةٍ مَحْدُودَةٍ، وُضِعَتْ تَحْتَ الرَّقَابَةِ الشَّدِيدَةِ.

وَقَدْ مَضَوْا مِنْ بَعْدُ فِي مُطَارَدَةِ الكَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ الأَصْلِ يَنْفُونَهَا مِنَ اللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ كَلِمَةً بَعْدَ كَلِمَةٍ.

وَدَخَلُوا عَلَىٰ النَّاسِ مِنْ بَابِ المَسْرَحِ الهَزْلِيِّ، وَالمَسْرَحِ الجِدِّيِّ، وَالخيالةِ (السِّينِمَا)، وَاتَّخَذُوا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ اللَّهْجَةَ العَامِّيَّةَ.

ثُمَّ ظَهَرَتِ اللَّهْجَةُ السُّوقِيَّةُ الَّتِي تُسَمَّىٰ بِالعَامِّيَّةِ فِي الأَدَبِ المَكْتُوبِ، فَاسْتَعْمَلَهَا كَثِيرٌ مِنْ كُتَّابِ القِصَّةِ فِي الحُوَارِ، وَمَا زَالَ دُعَاتُهَا يُمَكِّنُونَ لَهَا فِي هَذَا المَيْدَانِ، وَيَجِدُّونَ فِي ذَلِكَ جَاهِدِينَ.

وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ هُوَ كُلُّ مَا كَسَبَتْهُ الدَّعْوَةُ الجَدِيدَةُ الَّتِي رَوَّجَهَا الإِنْجِلِيزُ وَعُمَلَاؤُهُمْ، وَلَكِنَّ أَعْجَبَ مَا ظَهَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي تِلكَ الفَتْرَةِ وَأَغْرَبَهُ، مِمَّا لا يَخْطرُ عَلَىٰ البَالِ، هُوَ أَنَّ الدَّعْوَةَ قَدِ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَسَلَّلَ مُتَلَصِّصَةً إِلَىٰ الحِصْنِ الَّذِي قَامَ لِحِمَايَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ وَالمُسَمَّىٰ بِمَجْمَعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ!!

فَظَهَرَتْ فِي مَجَلَّتِهِ النَّاطِقَةِ بِاسْمِهِ سِلْسِلَةٌ مِنَ المَقَالاتِ عَنِ «اللَّهْجَةِ العَرَبِيَّةِ العَامِّيَّةِ».

كَتَبَهَا عُضْوٌ مِنْ أَعْضَاءِ هَذَا المَجْمَعِ، اسْمُهُ عِيسَىٰ إِسْكَنْدَر المَعْلُوف!!

وَإِنَّ مِمَّا يَدْعُو إِلَىٰ العَجَبِ حَقًّا أَنْ يَخْتَارَ المَجْمَعُ لِعُضْوِيَّتِهِ رَجُلًا مَعْرُوفًا بِعَدَائِهِ الصَّرِيحِ لِلْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ عَدَاءٌ عَرِيقٌ، وَرِثَهُ عَنْ أَبِيهِ الَّذِي أَعْلَنَهُ وَجَهَرَ بِهِ،

حِينَ سَجَّلَهُ فِي مَقَالٍ لَهُ نَشَرَتْهُ (الهِلَال) سَنَةَ (١٩٠٢).

وَدَافَعَ فِيهِ عَنِ اللَّهْجَاتِ السُّوقِيَّةِ، وَقَالَ: إِنَّهُ يَشْتَغِلُ بِضَبْطِ أَحْوَالِهَا، وَتَقْيِيدِ شَوَارِدِهَا لِاسْتِخْدَامِهَا فِي كِتَابَةِ العُلُومِ.

وَقَدْ أَكَّدَ هَذَا المَقَالُ أَنَّ اخْتِلَافَ لُغَةِ الحَدِيثِ عَنْ لُغَةِ الكِتَابَةِ، هُوَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ تَخَلُّفِنَا الثَّقَافِيِّ!!

وَزَعَمَ أَنَّ مِنَ المُمْكِنِ اتِّخَاذَ أَيِّ لَهْجَةٍ عَامِّيَّةٍ لُغَةً لِلْكِتَابَةِ؛ كَالمِصْرِيَّةِ أَوِ الشَّامِيَّةِ وَأَنَّهَا سَتكُونُ أَسْهَلَ عَلَىٰ سَائِرِ المُتَكَلِّمِينَ بِالعَرَبِيَّةِ -عَلَىٰ اخْتِلَافِ لَهْجَاتِهِمْ- مِنَ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ[1].

كَمَا أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ تَعَلُّقَ المُسْلِمِينَ بِاللُّغَةِ الفَصِيحَةِ لَا مُبَرِّرَ لَهُ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ مُسْلِمِينَ كَثِيرِينَ لَا يَتَحَدَّثُونَ بِالعَرَبِيَّةِ، وَلَا يَكْتُبُونَ بِهَا، وَلِأَنَّ اللُّغَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُهَا المُسْلِمُونَ هِيَ غَيْرُ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

وَقَالَ: إِنَّ كُلَّ مَا يُطَالِبُ بِهِ هُوَ وَضْعُ قَوَاعِدِ هَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي يَتَكَلَّمُونَ بِهَا فِعْلًا وَوَاقِعًا.

وَخَتَمَ المَقَالَ بِقَوْلِهِ:

«وَمَا أَحْرَىٰ أَهْلَ بِلَادِنَا أَنْ يَنْشَطُوا مِنْ عِقَالِهِمْ، طَالِبِينَ التَّحَرُّرَ مِنْ رِقِّ لُغَةٍ صَعْبَةِ المِرَاسِ قَدِ اسْتَنْزَفَتْ أَوْقَاتَهُمْ، وَقُوَىٰ عُقُولِهِمُ الثَّمِينَةَ، وَهِيَ مَعَ

(١) هذا غير صحيح، يكذبه الواقع الصريح، والدليل علىٰ مباينته للحقيقة: أن العرب إذا اجتمعوا في مؤتمر لم يكد يفهم بعضهم بعضًا إلا إذا تكلموا العربية الفصحىٰ.

ذَلِكَ لَا تُولِيهِمْ نَفْعًا، بَلْ أَصْبَحَتْ ثِقلًا يُؤَخِّرُهُمْ عَنِ الجَرْيِ فِي مِضْمَارِ التَّمَدُّنِ، وَحَاجِزًا يَصُدُّهُمْ عَنِ النَّجَاحِ...

وَلِي أَمَلٌ بِأَنْ أَرَىٰ الجَرَائِدَ العَرَبِيَّةَ وَقَدْ غَيَّرَتْ لُغَتَهَا، وَبِالأَخَصِّ جَرِيدَةَ الهِلَالِ الغَرَّاءِ، الَّتِي هِيَ فِي مُقَدِّمَتِهَا، وَهَذَا أَعُدُّهُ أَعْظَمَ خُطْوَةٍ نَحْوَ النَّجَاحِ، وَهُوَ غَايَةُ أَمَلِي وَمُنْتَهَىٰ رَجَائِي».

هَلْ تَعْرِفُ عَدَاءً لِلْعَرَبِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَنْشَأْ هَذَا المَجْمَعُ إِلَّا لِحِمَايَتِهَا، أَعْرَقَ مِنْ هَذَا العَدَاءِ الصَّرِيحِ فِي الوَلَدِ وَابْنِهِ عَلَىٰ السَّوَاءِ؟[١].

فَلِأَيِّ شَيءٍ اخْتِيرَ هَذَا العُضْوُ وَأَمْثَالُهُ مِنَ المَعْرُوفِينَ بِالكَيْدِ لِلْعَرَبِيَّةِ وَلِلْعَرَبِ؟![٢].

وَلَيْسَ هَذَا هُوَ كُلُّ مَا يَدْعُو لِلْعَجَبِ مِنْ أَمْرِ هَذَا المَجْمَعِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ عُضْوٌ مِنْ أَبْرَزِ أَعْضَائِهِ وَهُوَ عَبْدُ العَزِيزِ فَهْمِي -ثَالِثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ بُنِيَ عَلَيْهِمُ الوَفْدُ المِصْرِيُّ- فِي سَنَةِ (١٩٤٣)، بِاقْتِرَاحِ كِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ بِالحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ، وَشُغِلَ المَجْمَعُ بِبَحْثِ اقْتِرَاحِهِ عِدَّةَ جَلَسَاتٍ امْتَدَّتْ خِلَالَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

(١) والولد عيسىٰ، وأبوه: إسكندر المعلوف!!

(٢) وَقَد كَانَ مِن هَؤُلَاءِ الأعضاءِ مَنْ لَيسَ عَربيًّا، بَل لَقَد كَانَ فِي هَؤُلَاء المُستَشْرِقِينَ مِن غَير العَرَبِ مَنْ هو مَعْرُوفٌ بصفته الاستعمَارِيَّة، مِثْلَ المُستَشْرِق (جب)، عَلَىٰ أَنَّ المُستَشْرِقِينَ كُلَّهم من مُستَشَارِي وزارات الخَارِجيَّة والمستَعْمَرَات فِي بِلَادِهِم. «الاتجاهات الوطنية» (٢/٣٦٣).

وَنُشِرَ فِي الصُّحُفِ، وَأُرْسِلَ إِلَىٰ الهَيْئَاتِ العِلْمِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ، وَخَصَّصَتِ الحُكُومَةُ جَائِزَةً مِقْدَارُهَا أَلْفُ جُنَيهٍ؛ لِأَحْسَنِ اقْتِرَاحٍ فِي تَيْسِيرِ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ[١].

أَلَيْسَ يَدْعُو ذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ نَتَسَاءَلَ: هَلْ أُنْشِئَ هَذَا المَجْمَعُ لِنَظْمِ جُهُودِ حُمَاةِ العَرَبِيَّةِ، أَوْ أُنْشِئَ لِيُكْسِبَ الهَدْمَ وَالهَدَّامِينَ صِفَةً شَرْعِيَّةً، وَلِيَضَعَ عَلَىٰ بَيْتِ حَفَّارِ القُبُورِ لَوْحَةً نُحَاسِيَّةً كُتِبَ عَلَيْهَا بِخَطٍّ عَرِيضٍ: «**طَبِيب**»!!

وَعَلَىٰ وَكْرِ القَاتِلِ السَّفَّاحِ اسْمَ: «**جَرَّاح**»؟!

أَلَا إِنَّ اقْتِرَاحَ المَعْلُوفِ وَاقْتِرَاحَ عَبْدِ العَزِيزِ فَهْمِي لَيُرْضِيَانِ عُضْوَ المَجْمَعِ؛ الإِنْجِلِيزِيَّ هـ. ا. ر. جِبّ.

---

(١) وكان شبيهًا بموقف مجمع اللغة العربية موقفُ جامعة الدول العربية التي أصدرت لجنتُهَا الثقافيةُ في عام (١٩٥٥)، كتابًا في: «اللهجات وأسلوب دراستها» لأنيس فريحة، جمعت فيه المحاضرات التي ألقاها في معهد الدراسات العربية العالية في ذاك العام، وموضع العجب في ذلك أن الجامعة العربية هي جامعة اللغة العربية، وأن اللغة العربية المقصودة هي اللغة الفصيحة التي تشترك فيها جميعُ الدولِ العربيةِ، وهذه اللغة العربية الفصيحة هي وحدها الجامعةُ التي لا يستطيع أن ينكرها دعاةُ الشقاق، ولا يستطيع أن يماري فيها أصحابُ الأهواء والأغراض، فإذا تفرق الناسُ فيها وذهب كلُّ بلدٍ بلهجته -علىٰ ما يريد المؤلف- لم يستطع بعضُهم أن يفهم عن بعضٍ، فينفرط عقدهم، وهل وُجد «الكومنولث» إلَّا نتيجةً للغة الإنجليزية المشتركة بين دُوَله؟!

أليس عجيبًا أن يُستغلَّ منبر الجامعة العربية لهدم الجامعة العربية؟

أوَليس في ذلك من التناقض ما يدعو إلىٰ الرِّثاء؟! [«الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٦٤)].

وَهُوَ الَّذِي قَرَّرَ فِي كِتَابِهِ «إِلَىٰ أَيْنَ يَتَّجِهُ الإِسْلَامُ؟»، عِنْدَ كَلَامِهِ عَنِ الوَحْدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، أَنَّ مِنْ أَهَمِّ مَظَاهِرِهَا الحُرُوفَ العَرَبِيَّةَ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي سَائِرِ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ، وَاللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الَّتِي هِيَ لُغَتُهُ الثَّقَافِيَّةُ الوَحِيدَةُ، وَالاشْتِرَاكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الكَلِمَاتِ وَالاصْطِلَاحَاتِ العَرَبِيَّةِ الأَصْل.

أَلَا إِنَّ ذَلِكَ يُرْضِي الاسْتِعْمَارَ الفَرَنْسِيَّ الَّذِي حَارَبَ العَرَبِيَّةَ الفَصِيحَةَ فِي شَمَالِ إِفْرِيقِيَّةَ أَعْنَفَ الحَرْبِ، وَضَيَّقَ عَلَيْهَا أَشَدَّ التَّضْيِيقِ، وَوَضَعَ مُسْتَشْرِقُوهُ مُخْتَلَفَ الكُتُبِ فِي دِرَاسَةِ اللَّهْجَاتِ البَرْبَرِيَّةِ وَقَوَاعِدِهَا؛ لِإِحْلَالِهَا مَحَلَّ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ.

أَلَا إِنَّ ذَلِكَ يُرْضِي المُسْتَشْرِقَ الأَلْمَانِيَّ (كامفماير)، الَّذِي قَرَّرَ فِي شَمَاتَةٍ أَنْ تُرْكِيَا لَمْ تَعُدْ بَلَدًا إِسْلَامِيًّا، فَالدِّينُ لَا يُدَرَّسُ فِي مَدَارِسِهَا، وَلَيْسَ مَسْمُوحًا بِتَدْرِيسِ اللُّغَتَيْنِ العَرَبِيَّةِ وَالفَارِسِيَّةِ فِي المَدَارِسِ.

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ قِرَاءَةَ القُرْآنِ العَرَبِيِّ، وَكُتُبِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، قَدْ أَصْبَحَتِ الآنَ مُسْتَحِيلَةً، بَعْدَ اسْتِبْدَالِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ»[1].

وَمِنَ الفُصُولِ الدَّامِيَةِ فِي قِصَّةِ المُؤَامَرَةِ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ، وَتُرَاثِهَا الشَّامِخِ، وَالدِّينِ الحَنِيفِ، ذَلِكَ الفَصْلُ الَّذِي كَانَ بَطَلَهُ أَحْمَد لُطْفِي السَّيِّد فِي دَعْوَتِهِ إِلَىٰ تَمْصِيرِ اللُّغَةِ.

(١) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» (٢/ ٣٥٩).

فَأَمَّا أَحْمَد لُطْفِي السَّيِّد فَيَقُولُ عَنْهُ الأُسْتَاذُ مَحْمُود شَاكِر رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «أَبَاطِيل وَأَسْمَار» (ص٢٦٢):

«وَهَذَا الرَّجُلُ عِنْدِي شَدِيدُ التَّنَاقُضِ، يَنْبَغِي أَنْ يُعَادَ دَرْسُهُ وَدَرْسُ تَارِيخِ نَشْأَتِهِ وَنَشْأَةِ أُسْرَتِهِ، وَتَفَاصِيلِ حَيَاتِهِ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ وَحَذَرٍ بَالِغٍ.

فَحَيْثُمَا سِرْتُ فِي قِرَاءَةِ تَارِيخِهِ أَوْ آثَارِهِ، أَجِدْ لَهُ أَقْوَالًا مُتَنَاقِضَةً، وَأَعْمَالًا تُنَاقِضُ أَقْوَالَهُ، وَأُحِسُّ وَأَنَا أَقْرَؤُهُ بِجَبَلٍ مِنَ التَّكَلُّفِ جَاثِمٍ عَلَىٰ قَلْبِي، وَأَلْمَسُ وَرَاءَ أَلْفَاظِهِ ادِّعَاءَ رَكَانَةٍ لَيْسَتْ فِي الطَّبْعِ، بَلْ هِيَ مُسْتَحْدَثَةٌ بِإِرَادَةٍ وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ، وَكَلِمَاتُهُ تُوحِي لِي دَائِمًا بِصَوْتٍ لَهُ هَمْهَمَةٌ غَامِضَةٌ، تُخْفِي أَكْثَرَ مِمَّا تُعْلِنُ، حَتَّىٰ لَقَدْ وَجَدْتُ أَثَرَ ذَلِكَ فِي تَرْجَمَتِهِ لِكُتُبِ أَرِسْطُو، وَهَذَا أَمْرٌ غَرِيبٌ جِدًّا.

لَا يَكَادُ يَتَّفِقُ فِي التَّرْجَمَةِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّخْصِيصِ، فَظُهُورُهُ فِيهَا يَلْفِتُ النَّظَرَ إِلَىٰ اسْتِحْكَامِهِ اسْتِحْكَامًا رَاسِخًا فِي العِظَامِ، لَا فِي النَّفْسِ وَحْدَهَا! وَلَيْسَ مِنْ هَمِّي هُنَا أَنْ أُحَلِّلَهُ تَحْلِيلًا أَدَبِيًّا، وَلَكِنْ يُهِمُّنِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ الَّذِي خَلْفَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الخَبِيثَةِ المَخْرَجِ، الَّتِي سَكَنَ رِيحُهَا مُنْذُ سَنَةَ (١٩٠٢)، فَأَعَادَهَا هُوَ فِي أَبْرِيل وَمَايُو مِنْ سَنَةِ (١٩١٣)، فِي صُورَةٍ جَدِيدَةٍ غَرِيبَةٍ، تَتَّسِمُ بِكُلِّ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَغَيْرِهَا، مِمَّا يُعِينُ مِثْلَهُ عَلَىٰ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَمَا كَتَبَ فِي شَأْنِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ». اهـ

وَأَمَّا دَعْوَةُ هَذَا الرَّجُلِ إِلَىٰ «تَمْصِيرِ اللُّغَةِ»، فَهِيَ أَنْ تَصِيرَ لُغَةُ القُرْآنِ

المَجِيدِ مِصْرِيَّةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُضَرِيَّةً![1].

وَتَتَلَخَّصُ فِكْرَةُ أَحْمَد لُطْفِي السَّيِّد فِي «تَمْصِيرِ اللُّغَةِ»، أَوْ كَمَا يُسَمِّيهَا هُوَ: فِي عَقْدِ الصُّلْحِ بَيْنَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ لُغَةِ القُرْآنِ، وَالعَامِّيَّةِ لُغَةِ سَوَادِ الأُمَّةِ، فِيمَا يَلِي:

أَخْذُ أَسْمَاءِ المُسْتَحْدَثَاتِ مِنَ اللُّغَةِ اليَوْمِيَّةِ، وَإِمْرَارُهَا عَلَىٰ الأَوْزَانِ العَرَبِيَّةِ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا ثَمَّةَ أَسْمَاءٌ، فَمِنْ مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، وَكُتُبِ العِلْمِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ عِنْدَهُ دُونَ اللُّغَةِ اليَوْمِيَّةِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وُجُودٌ فِي هَذِهِ أَيْضًا، وَضَعَ لَهَا الوَاضِعُ مَا شَاءَ.

اسْتِعْمَالُ الأَلْفَاظِ العَرَبِيَّةِ، وَالتَّرَاكِيبِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي تَلُوكُهَا أَلْسُنُ العَوَامِّ، فَمَا لَمْ يُشَوَّه يُسْتَعْمَلُ عَلَىٰ حَالِهِ، وَمَا شُوِّهَ يُرَدُّ إِلَىٰ أَصْلِهِ، وَيُسْتَعْمَلُ صَحِيحًا.

اسْتِعْمَالُ مُفْرَدَاتِ العَامَّةِ وَتَرَاكِيبِهَا إِحْيَاءٌ لِلُغَةِ الكَلَامِ، وَإِلْبَاسٌ لَهَا لِبَاسَ الفَصَاحَةِ؛ إِذْ يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ رَفْعُ هَذِهِ اللُّغَةِ إِلَىٰ الاسْتِعْمَالِ الكِتَابِيِّ، وَالنُّزُولُ بِالضَّرُورِيِّ مِنَ اللُّغَةِ المَكْتُوبَةِ إِلَىٰ مَيْدَانِ التَّخَاطُبِ وَالتَّعَامُلِ، ذَلِكَ لِأَنَّ مَا اسْتَعْمَلَتْهُ العَامَّةُ إِنَّمَا هُوَ قَرَارَاتُ الأُمَّةِ فِي هَذِهِ الكَلِمَاتِ الَّتِي لَا تُرِيدُ النُّزُولَ عَنْهَا.

وَالطَّرِيقَةُ الوَحِيدَةُ لِإِحْيَاءِ اللُّغَةِ هِيَ إِحْيَاءُ لُغَةِ الرَّأْيِ العَامِّ مِنْ نَاحِيَةٍ،

---

(١) «تحت راية القرآن» (ص٥٤).

وَإِرْضَاءُ لُغَةِ القُرْآنِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ، وَإِذَا أَرَدْنَا الصُّلْحَ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ، فَأَقْرَبُ الطُّرُقِ لِهَذَا الصُّلْحِ أَنْ نَتَذَرَّعَ إِلَىٰ إِحْيَاءِ العَرَبِيَّةِ بِاسْتِعْمَالِ العَامِّيَّةِ!!

وَمَتَىٰ اسْتَعْمَلْنَاهَا فِي الكِتَابَةِ اضْطُرِرْنَا إِلَىٰ تَخْلِيصِهَا مِنَ الضَّعْفِ، وَجَعَلْنَا العَامَّةَ يُتَابِعُونَ الكُتَّابَ فِي كِتَابَاتِهِم[1].

قَالَ الأُسْتَاذُ مَحْمُود شَاكِر رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «أَبَاطِيل وَأَسْمَار» (ص٢٦٣)**: «دَخَلَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَىٰ دَعْوَتِهِ مَدْخَلًا غَرِيبًا فِي وَصْفِ غِنَىٰ العَرَبِيَّةِ فِيمَا يَتَنَاوَلُ المَعَانِيَ وَالمُسَمَّيَاتِ القَدِيمَةَ، وَفَقْرِهَا فِي المَعَانِي الجَدِيدَةِ وَالمُصْطَلَحَاتِ العِلْمِيَّةِ.

وَظَلَّ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ وَيَخْرُجُ مِنْ بَابٍ، وَيُلْقِي رِيبَةً ثُمَّ يَرْحَلُ، وَيَأْتِي بِحُجَّةٍ وَاهِيَةٍ ثُمَّ يَنْقَضُّ، فَيُطَالِبُ الكُتَّابَ بِأَنْ يَتَسَامَحُوا فِي قَبُولِ المُسَمَّيَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ، وَيُدْخِلُوهَا فِي كِتَابَتِهِمْ كَمَا أَدْخَلَهَا الجُمْهُورُ فِي المُخَاطَبَةِ.

وَهَذَا كَلَامُ مَنْ لَا يَدْرِي مَا عَقَابِيلُ مَا يَقُولُ، فَلَا هُوَ رِيَاضِيٌّ، وَلَا هُوَ مَنْطِقِيٌّ، يُحْسِنُ تَصَوُّرَ القَضَايَا عَلَىٰ وَجْهِ الإِحَاطَةِ وَالشُّمُولِ.

وَكَتَبَ مُعْتَرِفًا أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ خَلِيقٌ أَنْ يَنْشُرَ الفَوْضَىٰ فِي اللُّغَةِ، وَلَكِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ الفَوْضَىٰ نَافِعَةٌ وَوَاقِعَةٌ فِي زَمَنِ الانْتِقَالِ، وَأَنْ لَا خَطَرَ عَلَىٰ اللُّغَةِ مِنْهَا مَا دَامَتْ سَتُخْرِجُهَا مِنْ جُمُودِهَا إِلَىٰ التَّطَوُّرِ الرَّاقِي، الَّذِي يُوَافِقُ أَطْمَاعَ الأُمَّةِ!!

ثُمَّ زَادَ فَطَالَبَ بِأَشْيَاءَ أَغْرَبَ مِمَّا قَالَهُ (سبيتا) وَأَمْثَالُهُ مِنَ الخُبَثَاءِ المَاضِينَ،

(١) انظر: «تاريخ الدعوة إلىٰ العامية» (ص١٤٤).

لَا أَدْرِي كَيْفَ قَالَهَا، كَمُطَالَبَتِهِ أَنْ يَحْتَضِنَ الكُتَّابُ المُفْرَدَاتِ الغَرْبِيَّةَ المَوْجُودَةَ فِي اللُّغَةِ العَامِّيَّةِ، فَيَرُدُّوا مَا تَشَوَّهَ مِنْهَا إِلَىٰ أَصْلِهِ العَرَبِيِّ، وَيَسْتَعْمِلُوهُ صَحِيحًا، وَمَا لَمْ يُشَوَّه يُسْتَعْمَلُ عَلَىٰ حَالِهِ، وَيُسْتَثْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ مَا ابْتُذِلَ مِنَ الأَلْفَاظِ... هَذَا، وَإِنَّ اسْتِعْمَالَ مُفْرَدَاتِ العَامَّةِ وَتَرَاكِيبِ العَامَّةِ، فِيهِ مِنْ وِجْهَةٍ أُخْرَىٰ إِحْيَاءٌ لِلُغَةِ الكَلَامِ، وَإِلْبَاسُهَا لِبَاسَ الفَصَاحَةِ».

هَذِهِ أَفْكَارٌ عَجَبٌ، أَمُجَرَّدُ اسْتِعْمَالِ لَفْظٍ عَامِّيٍّ وَكِتَابَتِهِ، يُلْبِسُهُ لِبَاسَ الفَصَاحَةِ!! مَا أَنْذَلَ الحِكْمَةَ!!

ثُمَّ أَفَاضَ فِيمَا يَنْفَعُ مِنَ العِلْمِ وَالفَهْمِ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ أَعْجَبِ كَلَامٍ، قَالَ:

«وَأَقْرَبُ الطُّرُقِ إِلَىٰ هَذَا الصُّلْحِ -يَعْنِي: بَيْنَ العَامِّيَّةِ وَالفُصْحَىٰ- أَنْ نَتَذَرَّعَ إِلَىٰ إِحْيَاءِ العَرَبِيَّةِ بِاسْتِعْمَالِ العَامِّيَّةِ، وَمَتَىٰ اسْتَعْمَلْنَاهَا فِي الكِتَابَةِ، اضْطُرِرْنَا إِلَىٰ تَخْلِيصِهَا مِنَ الضَّعْفِ، وَجَعَلْنَا العَامَّةَ يُتَابِعُونَ الكُتَّابَ فِي كِتَابَاتِهِمْ، وَالخُطَبَاءَ فِي خِطَابَاتِهِمْ، وَالمُمَثِّلِينَ فِي رِوَايَاتِهِمْ».

وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ المُذْهِلَةُ الَّتِي انتهَىٰ إِلَيْهَا تَتَّفِقُ تَمَامَ الاتِّفَاقِ مَعَ آرَائِهِ الَّتِي أَذَاعَهَا مِرَارًا، مِثْلَ اعْتِبَارِهِ أَمْرَ صِلَةِ مِصْرَ بِالبِلَادِ العَرَبِيَّةِ أَمْرًا خُرَافِيًّا غَيْرَ مَقْبُولٍ حُدُوثُهُ، وَلَا مُتَوَقَّعٍ لَا ذَلِكَ اليَوْم، وَلَا بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْم.

وَهُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَرَىٰ أَنَّ العَرَبَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، ذَاتُ لِسَانٍ وَاحِدٍ، وَعَقِيدَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ يَفِرُّ مِنهَا فِيمَا يكتبُ، كَمَا كَانَ يَفِرُّ مِنَ الحَدِيثِ فِيهَا، إِذَا لَقِيَهُ مَنْ يُحْسِنُ الدِّفَاعَ عَنْ رَأْيِهِ. اهـ

وَقَدْ عَارَضَ الأُسْتَاذُ مُصْطَفَىٰ صَادِق الرَّافِعِي -غَفَرَ اللهُ لَهُ- دَعْوَةَ أَحْمَد لُطْفِي السَّيِّد وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُ فِي مَقَالٍ لَهُ بِعُنْوَانِ «تَمْصِير اللُّغَةِ»، وَاعْتَمَدَ فِي مُعَارَضَتِهِ عَلَىٰ الأَدِلَّةِ الآتِيَةِ:

١ - أَنَّ شُيُوعَ هَذِهِ الفِكْرَةِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ لَهَا عَرَبِيَّةٌ، وَأَخْذَ أَهْلِهَا مَأْخَذَنَا فِي عَامِّيَّتِهَا، يُؤَدِّي إِلَىٰ انْقِرَاضِ الفُصْحَىٰ وَمَحْوِهَا.

٢ - أَنَّ قَاعِدَةَ التَّسَامُحِ فِي اسْتِعْمَالِ المُفْرَدَاتِ وَالتَّرَاكِيبِ العَامِّيَّةِ سَتَتَّسِعُ فِي الأَجْيَالِ المُسْتَقْبَلَةِ عَلَىٰ دَرَجَةٍ تَصِيرُ فِيهَا الفُصْحَىٰ فِي كِتَابِهَا الكَرِيمِ ضَرْبًا مِنَ اللُّغَاتِ الأَثَرِيَّةِ، وَشَبَّهَ الرَّافِعِيُّ قَاعِدَةَ التَّسَامُحِ اللُّغَوِيِّ هَذِهِ بِالقَاعِدَةِ الاسْتِعْمَارِيَّةِ الَّتِي تَبْتَدِئُ بِالتَّسَامُحِ لِلْمُسْتَعْمِرِينَ وَالغُزَاةِ فِي أَخْذِ الشَّيءِ القَلِيلِ، ثُمَّ تَنْتَهِي بِالتَّسَامُحِ فِي كُلِّ شَيءٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ.

٣- أَنَّ فِكْرَةَ إِحْيَاءِ العَرَبِيَّةِ بِاسْتِعْمَالِ العَامِّيَّةِ تَتَعَارَضُ مَعَ مَا سَنَّتْهُ لُغَةُ القُرْآنِ مِنْ تَقْيِيدِ اللَّهْجَاتِ بِهَا، وَمَحْوِ لُغَاتِ العَرَبِ جَمِيعِهَا عَلَىٰ فَصَاحَتِهَا وَقُوَّةِ الفِطْرَةِ فِي أَهْلِهَا، وَرَدِّهَا إِلَىٰ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ اللُّغَةُ القُرَشِيَّةُ، فَكَيْفَ نَعْمَلُ نَحْنُ عَلَىٰ تَمْزِيقِ هَذِهِ الوَحْدَةِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِ العَرَبِ عَلَىٰ دِينٍ وَاحِدٍ.

وَكَيْفَ نَرْضَىٰ بِاسْتِعْمَالِ لَهْجَاتِنَا العَامِّيَّةِ الَّتِي تَأْبَىٰ أَنْ تَتَقَيَّدَ بِشَيءٍ، وَهِيَ أَبَدًا دَائِمَةُ التَّغَيُّرِ، حَتَّىٰ صَارَتْ فِي بَعْضِ قُرَىٰ مِصْرَ كَأَنَّهَا مَالطِيَّةٌ «مُتَمَصِّرَةٌ»، وَصَارَ بَعْضُ هَذِهِ القُرَىٰ لَا يَفْهَمُ عَنْ بَعْضٍ، كَمَا تَرَىٰ بَيْنَ أَقْصَىٰ

الدِّلْتَا وَأَقْصَىٰ الصَّعِيدِ.

٤ – أَنَّ هَذِهِ العَامِّيَّةَ الَّتِي يَقُولُونَ بِإِقْحَامِ مُفْرَدَاتِهَا وَتَرَاكِيبِهَا فِي الفَصِيحِ، لَا تَصْلُحُ فِي تَرَاكِيبِهَا وَصِيَغِهَا لِلْكِتَابَةِ مَا لَمْ تُفَصَّحْ عَلَىٰ وَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وَهِيَ بَعْدُ لَا وَزْنَ لَهَا فِي كُلِّ مَا ابْتَعَدَتْ بِهِ عَنِ الفَصِيحِ، إِلَّا فِي عِبَارَاتٍ قَلِيلَةٍ مِمَّا يَكُونُ أَكْبَرُ حُسْنِهِ أَنَّهُ أُخْرِجَ عَلَىٰ نَسَقٍ مَعْرُوفٍ فِي البَلَاغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ كَضَرْبِ المَجَازِ وَالكِنَايَةِ وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ.

فَإِذَا نَافَرَتِ الفَصِيحَ لَفْظًا أَوْ نَسَقًا، فَلَسْتَ وَاجِدًا فِيهَا إِلَّا أَطْلَالًا مِنْ كَلِمَاتٍ عَرَبِيَّةٍ يَأْبَاهَا مَنْ يَعْرِفُهَا صَحِيحَةً مَاثِلَةً، وَيَعُدُّهَا مِنَ النَّقْصِ مَنْ يُقِيمُهَا سَوِيَّةً كَامِلَةً، وَكَيْفَمَا أَدَرْتَهَا لَا تَعْرِفُ لَهَا إِلَّا رِقَّةَ الشَّأْنِ، وَسُقُوطَ المَنْزِلَةِ، بِإِزَاءِ أَصْلِهَا الفَصِيحِ الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ، وَلَا تَزَالُ فِيهَا مَادَّتُهُ، فَمَا اخْتِلَافُنَا فِي لُغَةٍ -يَعْنِي: العَامِّيَّةَ- هِيَ فِي طَبِيعَتِهَا اللُّغَوِيَّةِ تَأْبَىٰ أَنْ تَكُونَ أَصْلًا وَأَنْ تُعَدَّ لُغَةً.

وَمَهْمَا جَهَدْتَ بِهَا لَا تَتَحَوَّلُ إِلَّا إِلَىٰ أَصْلِهَا المَعْرُوفِ المُتَمَيِّزِ، فَإِذَا أُرِيدَتْ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ الْتَاثَتْ، وَاضْطَرَبَتْ، وَفَرَّتْ إِلَىٰ الأَسْوَاقِ وَالسُّبُلِ.

٥– أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ تَمْصِيرِ اللُّغَةِ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ العَصَبِيَّةِ الوَطَنِيَّةِ المَمْقُوتَةِ الَّتِي مَحَاهَا الإِسْلَامُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ تَحْقِيقِهَا وَاعْتِبَارِ هَذِهِ المِصْرِيَّةِ أَصْلًا لُغَوِيًّا مُجْمَعًا عَلَيْهِ إِلَّا بِتَمْصِيرِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ هَذِهِ العَرَبِيَّةُ.

وَانْتَهَىٰ الرَّافِعِيُّ إِلَىٰ القَوْلِ بِأَنَّ وَسِيلَتَنَا فِي إِحْيَاءِ العَرَبِيَّةِ هِيَ نَشْرُ

التَّعْلِيمِ، وَاسْتِعْمَالُ الفَصِيحِ خَالِصًا مَأْنُوسًا[(١)].

وَحَمَلَ «طَهَ حُسَيْن» لِوَاءَ الإِفْسَادِ، وَالطَّعْنِ فِي ثَوَابِتِ الأُمَّةِ، فَظَهَرَ لَهُ فِي سَنَةِ (١٩٣٨)، كِتَابُ «مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة فِي مِصْرَ»، مَدَّ فِيهِ الخَطَّ الَّذِي خَطَّهُ الهَالِكُ سَلَامَة مُوسَىٰ عَلَىٰ اسْتِقَامَتِهِ، وَكَانَ قَدْ نَشَرَ كِتَابَهُ «اليَوْم وَالغَد» سَنَةَ (١٩٢٧).

وَقَدْ هَاجَمَ سَلَامَة مُوسَىٰ الدِّينَ وَاللُّغَةَ وَالعَرَبَ... وَهُوَ يُرِيدُ مِنَ التَّعْلِيمِ: «أَنْ يَكُونَ تَعْلِيمًا أُورُبِّيًّا لَا سُلْطَانَ لِلدِّينِ عَلَيْهِ، وَلَا دُخُولَ لَهُ فِيهِ».

وَيَرَىٰ أَنَّهُ آنَ الأَوَانُ لِكَي «نَعْتَادَ عَادَاتِ الأُورُبِّيِّينَ، وَنَلْبس لِبَاسَهُمْ، وَنَأْكُل طَعَامَهُم، وَنَصْطَنِعَ أَسَالِيبَهُمْ فِي الحُكُومَةِ وَالعَائِلَةِ وَالاجْتِمَاعِ وَالصِّنَاعَةِ وَالزِّرَاعَةِ».

وَيَمْضِي فِي غُلُوِّهِ مُحَاوِلًا عَقْدَ صِلَاتٍ مِنَ القَرَابَةِ بَيْنَ لُغَةِ مِصْرَ القَدِيمَةِ، وَاللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ، فَيَزْعُمُ أَنَّ «بَيْنَ المِصْرِيَّةِ القَدِيمَةِ وَالإِنْجِلِيزِيَّةِ الرَّاهِنَةِ، مِئَاتِ الأَلْفَاظِ المُشْتَرَكَةِ لَفْظًا وَمَعْنًىٰ».

وَيُؤَكِّدُ أَنَّ مِصرَ غَرْبِيَّةٌ، «وَلَيْسَ عَلَيْنَا لِلْعَرَبِ أَيُّ وَلَاءٍ، وَإِدْمَانُ الدَّرْسِ لِثَقَافَتِهِمْ مَضْيَعَةٌ لِلشَّبَابِ وَبَعْثَرَةٌ لِقُوَاهُمْ، فَيَجِبُ أَنْ نُعَوِّدَهُمُ الكِتَابَةَ بِالأُسْلُوبِ المِصْرِيِّ الحَدِيثِ، لَا بِأُسْلُوبِ العَرَبِ القَدِيمِ... ثُمَّ يَجِبُ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ إِدْمَانَ الدَّرْسِ لِلْعَرَبِ يُشَتِّتُ الأَدَبَ المِصْرِيَّ، وَيَجْعَلُهُ لَا لَوْنَ لَهُ».

وَيَقُولُ سَلَامَة مُوسَىٰ فِي صَرَاحَةٍ: «إِنَّ لَنَا مِنَ العَرَبِ أَلْفَاظَهُمْ فَقَطْ،

(١) انظر: «تحت راية القرآن» (ص٥٤)، و«تاريخ الدعوة إلىٰ العامية» (ص١٤٥).

وَلَا أَقُولُ: لُغَتَهُمْ، بَلْ لَا أَقُولُ: كُلَّ أَلْفَاظِهِمْ، فَإِنَّنَا وَرِثْنَا عَنْهُمْ هَذِهِ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، وَهِيَ لُغَةٌ بَدَوِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَكْفُلُ الأَدَاءَ إِذَا تَعَرَّضَتْ لِحَالَةٍ مَدَنِيَّةٍ رَاقِيَةٍ كَتِلْكَ الَّتِي نَعِيشُ بَيْنَ ظَهْرَانيهَا الآنَ».

وَهُوَ يُعْلِنُ نِقْمَتَهُ عَلَىٰ الشُّيُوخِ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، وَيُنَادِي بِأَنْ يُسَلَّمَ أَمْرُ تَعْلِيمِهَا إِلَىٰ الأَفَنْدِيَّةِ، فَيَقُولُ:

«وَلَكِنَّ تَعْلِيمَ العَرَبِيَّةِ فِي مِصْرَ لَا يَزَالُ فِي أَيْدِي الشُّيُوخِ الَّذِينَ يَنْقَعُونَ أَدْمِغَتَهُمْ نَقْعًا فِي الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ؛ أَيْ: ثَقَافَةِ القُرُونِ المُظْلِمَةِ، فَلَا رَجَاءَ لَنَا بِإِصْلَاحِ التَّعْلِيمِ حَتَّىٰ نَمْنَعَ هَؤُلَاءِ الشُّيُوخَ مِنْهُ، وَنُسَلِّمَهُ لِلأَفَنْدِيَّةِ الَّذِينَ سَارُوا شَوْطًا بَعِيدًا فِي الثَّقَافَةِ الحَدِيثَةِ».

وَيَصِلُ إِلَىٰ المَدَىٰ البَعِيدِ فِي الهُجُومِ عَلَىٰ الدِّينِ نَفْسِهِ فِي غَيْرِ مُوَارَبَةٍ وَلَا حَيَاءٍ، فَيَقُولُ: «إِذَا كَانَتِ الرَّابِطَةُ الشَّرْقِيَّةُ سَخَافَةً، لِأَنَّهَا تَقُومُ عَلَىٰ أَصْلٍ كَاذِبٍ، فَإِنَّ الرَّابِطَةَ الدِّينِيَّةَ وَقَاحَةٌ، فَإِنَّنَا أَبْنَاءَ القَرْنِ العِشْرِينَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ نَعْتَمِدَ عَلَىٰ الدِّينِ جَامِعَةً تَرْبِطُنَا».

وَقَدْ نَحَا طَهَ حُسَيْن نَحْوَ سَلَامَة مُوسَىٰ، وَرَدَّدَ كَلَامَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَكِتَابُهُ «مُسْتَقْبَل الثَّقَافَة فِي مِصْرَ» أَشَدُّ خَطَرًا مِنْ كِتَابِ سَلَامَة مُوسَىٰ، وَأَبْلَغُ أَثَرًا.

وَتَرْجِعُ خُطُورَتُهُ إِلَىٰ أَنَّ صَاحِبَهُ (طَهَ حُسَيْن) شَغَلَ مَنَاصِبَ كَبِيرَةً فِي الدَّوْلَةِ، مَكَّنَتْهُ مِنْ تَنْفِيذِ بَرَامِجِهِ أَوْ إِرْسَاءِ أُسُسِ تَنْفِيذِهَا عَلَىٰ الأَقَلِّ؛ فَقَدْ كَانَ عَمِيدًا لِكُلِّيَّةِ الآدَابِ بِالقَاهِرَةِ، وَكَانَ مُدِيرًا عَامًّا للثَّقَافَةِ بِوَزَارَةِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ -

المَعَارِف وَقتَذَاكَ-، وَكَانَ مُسْتَشَارًا فَنِّيًّا بِهَا، وَكَانَ مُدِيرًا لِجَامِعَةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَكَانَ آخِرَ الأَمْرِ وَزِيرًا لِلتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ.

وَشُهْرَتُهُ وَكَثْرَةُ المُعْجَبِينَ بِهِ، وَتَأَثُّرُ الكَثْرَةِ الكَثِيرَةِ مِنْ تَلَامِيذِهِ بِآرَائِهِ وَمَنَاهِجِهِ، وَافْتِتَانُهُمْ بِهَا، قَدْ زَادَ فِي خُطُورَةِ أَثَرِهِ، مَعَ مَا أُحِيطَ بِهِ مِنْ دِعَايَةٍ صَاخِبَةٍ، وَتَمْجِيدٍ بِبَاطِلٍ.

وَكِتَابُهُ «مُسْتَقْبَل الثَّقَافَةِ فِي مِصْرَ»، يُرَدُّ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أُصُولٍ، هِيَ:

١- الدَّعْوَةُ إِلَىٰ حَمْلِ مِصْرَ عَلَىٰ الحَضَارَةِ الغَرْبِيَّةِ، وَطَبْعِهَا بِهَا، وَقَطْعِ مَا يَرْبِطُهَا بِقَدِيمِهَا وَإِسْلَامِهَا: فَيَرَىٰ أَنَّ سَبِيلَ النَّهْضَةِ: «وَاضِحَةٌ بَيِّنَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ لَيْسَ فِيهَا عِوَجٌ وَلَا الْتِوَاءٌ، وَهِيَ: أَنْ نَسِيرَ سِيرَةَ الأُورُبِّيِّينَ وَنَسْلُكَ طَرِيقَهُمْ، لِنَكُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا، وَلِنَكُونَ لَهُمْ شُرَكَاءَ فِي الحَضَارَةِ، خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، حُلْوِهَا وَمُرِّهَا، وَمَا يُحَبُّ مِنْهَا وَمَا يُكْرَهُ، وَمَا يُحْمَدُ مِنْهَا وَمَا يُعَابُ».

٢- الدَّعْوَةُ إِلَىٰ إِقَامَةِ شُئُونِ الحُكْمِ عَلَىٰ أَسَاسٍ مَدَنِيٍّ لَا دَخْلَ فِيهِ لِلدِّينِ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أَصْرَحَ، دَفْعُ مِصْرَ إِلَىٰ طَرِيقٍ يَنْتَهِي بِهَا إِلَىٰ أَنْ تُصْبِحَ حُكُومَتُهَا لَا دِينِيَّة.

٣- الدَّعْوَةُ إِلَىٰ إِخْضَاعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لِسُنَّةِ التَّطَوُّرِ، وَدَفْعُهَا إِلَىٰ طَرِيقٍ يَنْتَهِي بِاللُّغَةِ الفُصْحَىٰ الَّتِي نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ إِلَىٰ أَنْ تُصْبِحَ لُغَةً دِينِيَّةً فَحَسْبُ؛ كَالسِّرْيَانِيَّةِ وَالقِبْطِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ وَاليُونَانِيَّةِ.

وَهُوَ يُقَرِّرُ «أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ عَسِيرَةٌ؛ لِأَنَّ نَحْوَهَا مَا زَالَ قَدِيمًا عَسِيرًا،

وَلِأَنَّ كِتَابَتَهَا مَا زَالَتْ قَدِيمَةً عَسِيرَةً».

وَتَكْشِفُ الفقْرَةُ (٣٦) عَنْ أَهْدَافِ المُؤَلِّفِ الخَطِيرَةِ، فَهِيَ تَدُورُ حَوْلَ مَا يُسَمِّيهِ «مُشْكِلَة اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ»، وَالمُشْكِلَةُ تَأْتِي -فِي نَظَرِهِ- مِمَّا يُضْفِي عَلَيْهَا رِجَالُ الدِّينِ مِنْ قَدَاسَةٍ بِاعْتِبَارِهَا لُغَةً دِينِيَّةً، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْتَبِرَهَا لُغَةً وَطَنِيَّةً أَوَّلًا وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.

وَاللُّغَةُ -فِي رَأْيِهِ- مِلْكٌ لَنَا نَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ نَشَاءُ، وَلَا حَقَّ لِرِجَالِ الدِّينِ فِي أَنْ يَفْرِضُوا وِصَايَتَهُمْ عَلَيْهَا، وَفِي أَنْ يَقُومُوا دُونَهَا لِلْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا.

وَأَخْطَرُ مَا فِي هَذِهِ الفقْرَةِ قَوْلُهُ: «وَفِي الأَرْضِ أُمَمٌ مُتَدَيِّنَةٌ -كَمَا يَقُولُونَ- وَلَيْسَتْ أَقَلَّ مِنَّا إِيثَارًا لِدِينِهَا، وَلَا احْتِفَاظًا بِهِ، وَلَا حِرْصًا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهَا تَقْبَلُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا جُهْدٍ أَنْ تَكُونَ لَهَا لُغَتُهَا الطَّبِيعِيَّةُ المَأْلُوفَةُ الَّتِي تُفَكِّرُ بِهَا وَتَصْطَنِعُهَا لِتَأْدِيَةِ أَغْرَاضِهَا، وَلَهَا فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لُغَتُهَا الدِّينِيَّةُ الخَاصَّةُ الَّتِي تَقْرَأُ بِهَا كُتُبَهَا المُقَدَّسَةَ، وَتُؤَدِّي فِيهَا صَلَاتَهَا.

فَاللَّاتِينِيَّةُ -مَثَلًا- هِيَ اللُّغَةُ الدِّينِيَّةُ لِفَرِيقٍ مِنَ النَّصَارَىٰ، وَاليُونَانِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ لِفَرِيقٍ آخَرَ، وَالقِبطِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ الدِّينِيَّةُ لِفَرِيقٍ ثَالِثٍ، وَالسُّورِيَانِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ الدِّينِيَّةُ لِفَرِيقٍ رَابِعٍ»[1].

لَقَدْ كَانَ طَهَ حُسَيْن يُرَدِّدُ أَصْدَاءَ مَا نَعَقَ بِهِ مُحَمَّد عَبْدُه فِي حَمْلَتِهِ عَلَىٰ تُرَاثِ الأُمَّةِ، فَقَدْ طَعَنَ عَلَىٰ كُتُبِ البَلَاغَةِ العَرَبِيَّةِ، «وَلَمْ يَقْتَصِرْ ذَمُّهُ عَلَىٰ كُتُبِ

(١) راجع في ذلك: «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٢٢١-٢٤٢).

البَلَاغَةِ وَحْدَهَا، بَلْ تَنَاوَلَ الطَّعْنُ الجَارِحُ كُلَّ الكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ تُدَرَّسُ فِي الأَزْهَرِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، مِنْ بَلَاغَةٍ وَفِقْهٍ وَنَحْوٍ وَبَقِيَّةِ عُلُومِ العَرَبِيَّةِ وَالدِّينِ.

وَذَاعَ هَذَا الطَّعْنُ، وَتَنَاقَلَتْهُ أَلْسِنَةُ المُحِيطِينَ بِهِ مِنْ صِغَارِ طَلَبَةِ الأَزْهَرِ، وَطَلَبَةِ المَدَارِسِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الطَّوَائِفِ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ صَدْعٍ فِي تُرَاثِ الأُمَّةِ العَرَبِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَأَوَّلَ دَعْوَةٍ لِإِسْقَاطِ تَارِيخٍ طَوِيلٍ مِنَ التَّأْلِيفِ، وَمَا كَتَبَهُ عُلَمَاءُ الأُمَّةِ المُتَأَخِّرُونَ، إِسْقَاطًا كَامِلًا يَتَدَاوَلُهُ الشَّبَابُ بِأَلْسِنَتِهِمْ، مُسْتَقِرًّا فِي نُفُوسِهِمْ وَهُمْ فِي غَضَارَةِ الشَّبَابِ، لا يُطِيقُونَ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الخَطَأِ وَالصَّوَابِ.

وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ مَا يُعِينُهُمْ عَلَىٰ الفَصْلِ فِي المَعْرَكَةِ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ شُيُوخِ الأَزْهَرِ وَمُحَمَّد عَبْدُه، وَلَيْسَ فِي أَيْدِيهِمْ سِوَىٰ مَا قَالَهُ فِي التَّجْرِيحِ وَالطَّعْنِ الَّذِي صَدَّهُمْ صَدًّا كَامِلًا أَيْضًا عَنْ هَذِهِ الكُتُبِ، وَأَوْرَثَهُم الاسْتِهَانَةَ بِهَا، وَالاسْتِهَانَةُ دَاءٌ وَبِيلٌ يَطْمِسُ الطُّرُقَ المُؤَدِّيَةَ إِلَىٰ العِلْمِ وَالفَهْمِ.

وَجَاءَ طَهَ حُسَيْن بِنَظَرِيَّتِهِ فِي الطَّعْنِ فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ وَفِي عُلَمَاءِ الأُمَّةِ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا أَتَىٰ بِهِ مَا تَأَثَّرَ بِهِ مِنْ سَمَاعِ مَا تَنَاقَلَتْهُ أَلْسِنَةُ المُحِيطِينَ بِمُحَمَّد عَبْدُه مِنَ الطَّعْنِ فِي كُتُبِ البَلَاغَةِ وَعُلَمَائِهَا الكِبَارِ بِاسْتِهَانَةٍ وَبِلَا مُبَالَاةٍ، فَوَقَرَتْ هَذِهِ الاسْتِهَانَةُ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِهِ، وَنَضَحَتْ نَضْحَهَا عَلَىٰ كُلِّ صَفْحَةٍ مِنْ صَفْحَاتِ كِتَابِهِ «فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ».

وَذَهَبَتْ نَظَرِيَّةُ طَهَ حُسَيْن فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ بَدَدًا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَقُمْ عَلَىٰ أَسَاسٍ صَحِيحٍ مِنَ العِلْمِ وَالنَّظَرِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ كِتَابِهِ إِلَّا شَيْئَانِ:

الأَوَّلُ: مَا طَفَحَ بِهِ كِتَابُ «فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ»، مِنَ الاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالاسْتِهَانَةِ بِعُقُولِ القُدَمَاءِ مِنْ أَسْلَافِنَا، وَالحَطِّ مِنْ أَقْدَارِهِمْ، وَالغَضِّ مِمَّا خَلَّفُوهُ مِنْ كُتُبٍ وَمِنْ عِلْمٍ، وَمِنْ حَصِيلَةِ جُهُودِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ فِي التَّثَبُّتِ مِنَ المَعْرِفَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ مُفْضٍ إِلَىٰ طَرْحِ هَذَا الَّذِي تَرَكُوهُ لَنَا وَرَاءَ ظُهُورِنَا، وَإِلَىٰ الإِعْرَاضِ عَنْهُ بِلَا تَبَيُّنٍ وَلَا نَظَرٍ، وَهَذَا هُوَ الدَّاءُ الوَبِيلُ.

الثَّانِي: التَّحْرِيضُ السَّافِرُ، لِشَبَابٍ مُفَرَّغِينَ مِنْ أُصُولِ ثَقَافَتِهِمُ، المُمْتَدِّ تَارِيخُهَا عَلَى مَدَىٰ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَرْنًا، عَلَىٰ العَبَثِ بِهَذِهِ الأُصُولِ، وَالكَذِبِ عَلَيْهَا بِحَصَائِدِ الأَلْسِنَةِ الَّتِي لَا تَسْتَمِدُّ بَيَانَهَا مِنْ عَقْلٍ مُسْتَنِيرٍ يَتَوَرَّعُ عَنِ الخَوْضِ فِي أُمُورٍ لَا يَعْرِفُهَا حَقَّ المَعْرِفَةِ...

كَانَتْ ثَمَرَةُ الاسْتِهَانَةِ أَنْ يَقِفَ أُسْتَاذٌ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ يُعَلِّمُ النَّحْوَ، وَيَقُولُ لِلطَّلَبَةِ الصِّغَارِ، مَزْهُوًّا بِعِلْمِهِ: كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يَجْلِسَ سِيبَوَيهِ بَيْنَكُمْ لِيَتَعَلَّمَ مِنِّي النَّحْوَ!!

وَأَسَاتِذَةٌ آخَرُونَ يَقُولُونَ لِلصِّغَارِ مِنَ الطَّلَبَةِ: إِنَّمَا أَفْسَدَ نَحْوَ العَرَبِيَّةِ سِيبَوَيهِ، وَابْنُ عَقِيلٍ، وَابْنُ هِشَامٍ، وَأَضْرَابُهُمْ بِمَا كَتَبُوا وَأَلَّفُوا!!

وَيَقُولُ أَسَاتِذَةٌ آخَرُونَ: إِنَّ الَّذِي أَفْسَدَ مُوسِيقَىٰ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ!! هُوَ الخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ «العَرُوضِ»!![1].

(١) من مقدمة محمود شاكر «لأسرار البلاغة».

لَقَدْ بَلَغَت الاستِهَانَةُ مَبْلَغَهَا عِنْدَ طَهَ حُسَين، وَتَعَلَّمَتْهَا الأَجْيَالُ بَعْدُ، وَاحتَقَرَ أَبْنَاءُ الأمَّةِ تُرَاثَهُم، وَاتَّهَمُوهُ عَلَىٰ تَخَلُّفِهِم وَعَجْزِهِم.

وَهَذَا نَمُوذَجٌ مِنَ استِهَانَةِ طَهَ حُسَين، كَتَبَهُ فِي كِتَابِهِ: «**فِي الأَدَبِ الجَاهِلِيِّ**» (ص٥٦)، **قَالَ:** «وَمَا لِي أَدْرُسُ الأَدَبَ لأَقْصُرَ حَيَاتِي عَلَىٰ مَدْحِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَذَمِّ المُعْتَزِلَةِ وَالشِّيعَةِ وَالخَوَارِجِ، وَلَيسَ لِي فِي هَذَا كلِّه شَأنٌ وَلَا مَنْفَعَةٌ ولَا غَايَةٌ عِلْمِيَّةٌ؟ وَمَن الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكلِّفنِي أَنْ أدرُسَ الأَدَبَ لِأَكُونَ مُبَشِّرًا بِالإِسْلَامِ، أَوْ هَادِمًا لِلإِلْحَادِ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أُبَشِّرَ وَلَا أرِيدُ أَنْ أُنَاقِشَ المُلْحِدِينَ».

كَأَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَطْلُبُ إِلَيهِ أَنْ يَمْدَحَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَيذُمَّ مَنْ سِوَاهُم، أَوْ أَنْ يُبَشِّرَ بِالإِسْلَامِ وَيَهدِمَ الإِلْحَادَ!

أَلَيسَ مِنَ الفُكَاهَةِ أَنْ يَرَىٰ أَنْ لَيسَ مِنْ شَأنِهِ التَّبْشِيرُ بِالإِسْلَامِ أَوْ هَدْمُ الإِلْحَادِ، وَلَا يَرَىٰ أَنَّ القَدْحَ فِي الإِسْلَامِ وَإِذَاعَةَ الإِلْحَادِ هُمَا أَيضًا لَيسَا مِنْ شَأنِهِ؟

فَإِذَا كَانَتْ دَرَاسَةُ الأَدَبِ لِهَدْمِ الإِلْحَادِ تَقْيِيدًا لِلأَدَبِ، فَهَلْ دِرَاسَتُهُ لِهَدْمِ الإِسْلَامِ تَحْرِيرٌ لِلأَدَبِ؟

فَلْيَدَعْ نُصْرَةَ الإِسْلَامِ إِذَا شَاءَ، وَلَكِنْ لِيَتْرُكْ مَعَهَا أَيضًا نُصْرَةَ الإِلْحَادِ يَسْلَمْ لَهُ الأَدَبُ، وَيَسْتَطِعْ إِذَا أَخْلَصَ أَنْ يوَفَّقَ فِي البَحْثِ إِلَىٰ شَيءٍ»[1].

عَلَىٰ أَنَّ الحَرْبَ الدَّائِرَةَ المُسْتَعِرَةَ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ المُجَاهِدَةِ، تَنْحَسِرُ مَوْجَاتُهَا

(١) «النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي» لمحمد أحمد الغمراوي (ص٦٣).

عَنْ صَخْرَةِ ارْتِبَاطِ العَرَبِيَّةِ بِكِتَابِ اللهِ العَظِيمِ؛ فَعَلَاقَةُ الإِسْلَامِ بِالعَرَبِيَّةِ عَلَاقَةٌ حَتْمِيَّةٌ، وَمِنْ أَقْوَىٰ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ هَذِهِ العَلَاقَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الحَتْمِيَّةِ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَالعَرَبِيَّةِ، فَشَلُ كُلِّ المُحَاوَلَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ دَاخِلَ العَالَمِ العَرَبِيِّ وَخَارِجَهُ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ، بِتَغْيِيرِ قَوَاعِدِهَا (بِاسْمِ التَّبْسِيطِ)، أَوْ إِجْرَاءِ أَيِّ تَحْوِيلٍ فِي بُنْيَانِهَا (بِاسْمِ الإِصْلَاحِ)، أَوِ اسْتِبْدَالِ حُرُوفِهَا (بِاسْمِ التَّسْهِيلِ)، أَوْ أَيِّ شِعَارٍ آخَرَ مُسْتَحْدَثٍ لِهَذَا الغَرَضِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَىٰ كَوْنِهَا **لُغَةَ القُرْآنِ العَظِيمِ**.

وَقَدْ حُورِبَتِ العَرَبِيَّةُ مِنْ أَعْدَائِهَا لِهَذَا السَّبَبِ، وَحُوفِظَ عَلَيْهَا، وَدَافَعَ عَنْهَا أَبْنَاؤُهَا المُخْلِصُونَ لِلسَّبَبِ نَفْسِهِ؛ أَيْ: لِأَنَّهَا لُغَةُ كَلَامِ اللهِ، وَلُغَةُ تَأْدِيَةِ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ.

وَبِرَغْمِ كُلِّ مَا يَبْذُلُهُ أَعْدَاءُ الإِسْلَامِ مِنْ جُهُودٍ مُضْنِيَةٍ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ لُغَةِ القُرْآنِ، فَقَدْ بَاءَتْ كُلُّ مُحَاوَلَاتِهِمْ بِالفَشَلِ الذَّرِيعِ؛ لِأَنَّ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَاقَةً خَاصَّةً بِالدِّينِ الإِسْلَامِيِّ تَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ عَلَاقَةِ سَائِرِ اللُّغَاتِ فِي العَالَمِ بِدِيَانَاتِهَا السَّمَاوِيَّةِ أَوِ الوَضْعِيَّةِ.

وَيَرْجِعُ السَّبَبُ الرَّئِيسُ لِهَذِهِ العَلَاقَةِ إِلَىٰ نُزُولِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَمَا نَجَمَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ تَقْدِيرِ المُسْلِمِينَ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لِتَقْدِيسِهِمْ لِلْقُرْآنِ، وَتَقْدِيرِ النَّاسِ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ يَتَطَلَّبُ بِالضَّرُورَةِ فَهْمَهُ وَالمُحَافَظَةَ عَلَيْهِ.

ارْتَبَطَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ ارْتِبَاطًا قَوِيًّا بِالإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهَا مِفْتَاحُ فَهْمِ العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَوَسِيلَةُ المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، مَا بَقِيَ لِهَذِهِ العَقِيدَةِ مُعْتَنِقُونَ فِي الدُّنْيَا.

وَمَهْمَا يَكُن مِنْ أَمْرٍ، فَإِنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، مَا كَانَ لَهَا أَنْ تَبْرَحَ الجَزِيرَةَ العَرَبِيَّةَ، وَلَا أَنْ تَكْتَسِحَ الأَقْطَارَ المُجَاوِرَةَ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَتَنْتَشِرَ فِيهَا، وَتُؤَثِّرَ فِي لُغَاتِهَا، أَوْ تَحُلَّ مَحَلَّهَا بِالسُّرْعَةِ وَالكَيْفِيَّةِ الَّتِي عَرفَهَا صَدْرُ الإِسْلَامِ، لَوْلَا أَنَّهَا لُغَةُ القُرْآنِ، وَلُغَةُ الإِسْلَامِ.

لَقَدْ كَانَ الإِسْلَامُ دَفْعًا جَدِيدًا لِرُقِيِّ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَجَاءَ هَذَا الدَّفْعُ عَلَىٰ يَدِ القُرْآنِ نَسَقًا جَدِيدًا فِي التَّعْبِيرِ، وَكَانَ القُرْآنُ الرَّابِطَ الأَقْوَىٰ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالدِّينِ.

فَمَا يَقُولُهُ القُرْآنُ يُصْبِحُ القَاعِدَةَ وَالمِعْيَارَ، حَتَّىٰ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ عَهْدٌ بِهِ، فَالقُرْآنُ هُوَ الفَيْصَلُ فِي الدِّينِ وَاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ.

لَقَدْ نَشَأَتِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ إِحْلَالِ العَامِّيَّةِ مَحَلَّ العَرَبِيَّةِ فِي أَحْضَانِ الاسْتِعْمَارِ، بَلْ هِيَ مِنْ حِيَلِهِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي ابْتَدَعَهَا لِخِدْمَةِ وَتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، وَأَهْدَافُ الدَّعْوَةِ لِلْعَامِّيَّةِ يُمْكِنُ إِيجَازُهَا فِيمَا يَلِي:

١ - إِبْعَادُ المُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ:

لِأَنَّ اللُّغَةَ الفُصْحَىٰ مُرْتَبِطَةٌ بِالدِّينِ الإِسْلَامِيِّ، بِهَا نَزَلَ القُرْآنُ وَدُوِّنَتْ تَفَاسِيرُهُ، وَبِهَا سُجِّلَتِ الأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ وَالأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ فَهْمِ القُرْآنِ فَهْمًا سَلِيمًا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ، فَإِذَا تَرَكَهَا المُسْلِمُونَ عَجَزُوا عَنْ فَهْمِ دِينِهِمْ، وَسَهُلَ عَلَىٰ الأَعْدَاءِ إِبْعَادُهُمْ عَنْهُ مِنْ جِهَةٍ، وَتَشْوِيهُهُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

٢- تَجْزِئَةُ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ، وَالعَرَبِيِّ مِنْهُ خَاصَّةً بِإِنْشَاءِ قَوْمِيَّاتٍ مَحَلِّيَّةٍ:

العَرَبُ يَتَكَلَّمُونَ لُغَةً وَاحِدَةً؛ لِأَنَّهُمْ مُنْتَمُونَ إِلَىٰ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِذَا أَصْبَحَ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ لُغَتُهُ الخَاصَّةُ المُخْتَلِفَةُ عَنْ لُغَاتِ سَائِرِ الأَقَالِيمِ، فَسَيَحْدُثُ لَهُمْ مَا حَدَثَ لِمُتَكَلِّمِي اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ الَّتِي مَاتَتْ، وَحَلَّ مَحَلَّهَا لَهْجَاتُهَا المُتَعَدِّدَةُ، حَيْثُ أَصْبَحَ المُتَحَدِّثُونَ لِلُّغَاتِ الحَدِيثَةِ يَشْعُرُونَ بِالانْتِمَاءِ إِلَىٰ قَوْمِيَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، بَلْ دَخَلَ أَكْثَرُهُمْ فِي حُرُوبٍ طَاحِنَةٍ ضِدَّ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَأَعْدَاءُ الإِسْلَامِ يُرِيدُونَ إِشْغَالَ المُسْلِمِينَ بِنِزَاعَاتٍ مَحَلِّيَّةٍ، وَحُرُوبٍ لَا تَخْدُمُ إِلَّا أَعْدَاءَهُمْ.

٣- فَصْلُ المُسْلِمِينَ عَنْ تَارِيخِهِمْ وَتُرَاثِهِمْ:

فَالتُّرَاثُ كُلُّهُ مُدَوَّنٌ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ، فَإِذَا هَجَرَهَا العَرَبُ وَاسْتَخْدَمُوا العَامِّيَّاتِ مَكَانَهَا، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ؛ سَيَفْقِدُونَ مَعْرِفَتَهُمْ بِهَا، وَسَيَعْجِزُونَ عَنْ قِرَاءَةِ تُرَاثِهِمُ الضَّخْمِ الَّذِي امْتَدَّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، بِاسْتِثْنَاءِ قِلَّةٍ مِنْهُمْ هُمُ الَّذِينَ سَيَتَخَصَّصُونَ فِي دِرَاسَاتِهِمْ بِاعْتِبَارِهَا لُغَةً دِينِيَّةً قَدِيمَةً كَاللَّاتِينِيَّةِ وَالآرَامِيَّةِ، وَسَتُصْبِحُ القَوْمِيَّاتُ المَحَلِّيَّةُ وَكَأَنَّهَا أُمَمٌ حَدِيثَةُ الحَضَارَةِ، لَا جُذُورَ لَهَا، مِمَّا يُمَهِّدُ الطَّرِيقَ أَمَامَ عَمَلِيَّاتِ التَّغْرِيبِ الَّتِي يَرْعَاهَا أَعْدَاءُ الإِسْلَامِ.

أَمَّا الهُبُوطُ بِلُغَةِ الكِتَابَةِ إِلَىٰ لُغَةِ الحَدِيثِ، وَاسْتِخْدَامُ العَامِّيَّةِ فِي الشُّئُونِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِيهَا الآنَ العَرَبِيَّةُ فَهُوَ حَلٌّ سَاذَجٌ هَدَّامٌ لَا يَكَادُ يَسْتَحِقُّ عَنَاءَ المُنَاقَشَةِ.

وَهُوَ لَا يَقُومُ فِي الوَاقِعِ إِلَّا عَلَىٰ مُجَرَّدِ الرَّغْبَةِ الآثِمَةِ فِي القَضَاءِ عَلَىٰ أَهَمِّ دِعَامَةٍ مِنْ دَعَائِمِ الثَّقَافَةِ فِي الأُمَّةِ العَرَبِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ دَعْوَىٰ عَدَمِ صَلَاحِيَةِ الفُصْحَىٰ مَنْقُوضَةٌ؛ لِأَنَّ الفُصْحَىٰ مُسْتَوْفِيَةٌ لِلْقَوَاعِدِ، مُتَنَوِّعَةُ الأَسَالِيبِ بِمَا يُنَاسِبُ المَعَانِي البَلَاغِيَّةَ، وَالعَامِّيَّةُ لَا تَتَمَتَّعُ بِذَلِكَ؛ فَالعَامِّيَّةُ تَخْلُو مِنَ العَلَامَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ، وَلِذَلِكَ تَعْتَمِدُ فِي بَيَانِ عَلَاقَاتِ الجُمَلِ عَلَىٰ المَوْقِعِ الثَّابِتِ لِلْوَظِيفَةِ.

فَلِلْفَاعِلِ مَوْقِعٌ ثَابِتٌ، وَلِلْمَفْعُولِ مَوْقِعٌ ثَابِتٌ أَيْضًا، وَهَكَذَا.

بَيْنَمَا المَوَاقِعُ فِي الفُصْحَىٰ حُرَّةٌ لِاعْتِمَادِهَا عَلَىٰ العَلَامَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ فِي بَيَانِ عَلَاقَاتِ الجُمَلِ، فَجَازَ التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ، وَأُعْطِيَ المَوْقِعُ المُقَدَّمُ دَلَالَةً بَلَاغِيَّةً تَخْتَلِفُ عَنِ المَوْقِعِ المُؤَخَّرِ، وَلِذَلِكَ كَانَتِ المَوَاقِعُ المُفِيدَةُ فِي العَامِّيَّةِ أَكْثَرَ تَضْيِيقًا عَلَىٰ الكَاتِبِ مِنَ المَوَاقِعِ الحُرَّةِ فِي الفُصْحَىٰ.

وَاللَّهْجَاتُ العَامِّيَّةُ فِي تَرَاكِيبِهَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ الطُّرُقِ القَرِيبَةِ السَّاذَجَةِ، وَالأَسَالِيبِ المُبَاشِرَةِ، وَلِذَلِكَ تَخْلُو مِنْ مَظَاهِرِ التَّأَنُّقِ وَالبَلَاغَةِ؛ فَلَهْجَاتُ المُحَادَثَةِ تَقْتَصِرُ فِي العَادَةِ عَلَىٰ الضَّرُورِيِّ وَتَنفِرُ مِنَ الكَمَالِيِّ، وَتَنْأَىٰ عَنْ مَظَاهِرِ التَّرَفِ، وَإِلَىٰ هَذَا العَامِلِ يَرْجِعُ السَّبَبُ فِي انْقِرَاضِ آلَافِ الكَلِمَاتِ مِنْ لَهْجَاتِ المُحَادَثَةِ المُعَاصِرَةِ، وَلِذَلِكَ لَا نَجِدُ الصُّوَرَ البَلَاغِيَّةَ، وَلَا التَّعَابِيرَ الأُسْلُوبِيَّةَ المُخْتَارَةَ.

وَالنَّاسُ يَفْهَمُونَ الفُصْحَىٰ أَكْثَرَ مِنْ فَهْمِهِمْ لِلَهْجَاتِ الأَقَالِيمِ الأُخْرَىٰ، فَالعَامَّةُ يَسْتَمِعُونَ لِلْقُرْآنِ وَهُوَ بِالفُصْحَىٰ فَيَفْهَمُونَهُ، وَيَسْتَمِعُونَ إِلَىٰ الخُطَبِ فِي الجُمُعَةِ وَغَيْرِهَا بِالفُصْحَىٰ فَيَفْهَمُونَهَا، بَيْنَمَا يَفُوتُهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الكَلِمَاتِ،

وَأَحْيَانًا الجُمَلُ وَالمَعَانِي عِنْدَمَا يَسْتَمِعُونَ إِلَىٰ مُتَحَدِّثٍ بِلَهْجَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ لَهْجَتِهِمْ، وَالقُصُورُ عِنْدَ العَامَّةِ يَظْهَرُ عِنْدَمَا يُحَاوِلُونَ التَّحَدُّثَ بِالفُصْحَىٰ، وَهَذَا أَمْرٌ يُمْكِنُ التَّغَلُّبُ عَلَيْهِ بِالتَّعْلِيمِ وَالمُمَارَسَةِ.

وَلَكِنْ، مَا دَامَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ رُوحًا وَاحِدًا بِالإِسْلَامِ، وَلِسَانًا وَاحِدًا بِالعَرَبِيَّةِ؛ فَإِنَّ اسْتِغْلَالَهَا مَوْقُوتٌ وَإِنْ طَالَ، وَإِنَّ نُهُوضَهَا آتٍ وَإِنْ تَأَخَّرَ.

وَلَابُدَّ مِنَ التَّخَلِّي عَنِ التَّبَعِيَّةِ المَعِيبَةِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَىٰ أَدَبِنَا لِآدَابِ الغَرْبِ، فَأَسَالِيبُ الكِتَابَةِ اليَوْمَ هِيَ أَسَالِيبُ الكِتَابَةِ فِي الغَرْبِ، وَمَذَاهِبُ الأَدَبِ عِنْدَنَا هِيَ مَذَاهِبُ الأَدَبِ فِي الغَرْبِ.

حَتَّىٰ الرَّمْزِيَّةُ بِنْتُ الأُفُقِ الغَائِمِ، وَالنَّفْسِ المُعَقَّدَةِ، وَاللِّسَانِ المُغَمْغِمِ، يُرِيدُونَ أَنْ تَتَبَنَّاهَا العَرَبِيَّةُ بِنْتُ الصَّحرَاءِ المَكْشُوفَةِ، وَالشَّمْسِ المُشْرِقَةِ وَالطَّبْعِ الصَّرِيحِ، وَحَتَّىٰ الحَدَاثَةُ وَلِيدَةُ الخُلُقِ المُنْحَلِّ، وَالذَّوْقِ المُنْحَرِفِ، وَالغَرِيزَةِ المُنْفَلِتَةِ، يُحَاوِلُونَ أَنْ تَتَقَبَّلَهَا العَرَبِيَّةُ لُغَةُ الرِّسَالَةِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي كَرَّمَتِ الإِنْسَانَ وَفَضَّلَتْهُ عَلَىٰ سَائِرِ الحَيَوَانِ، بِحُدُودٍ مِنَ الدِّينِ وَالخُلُقِ لَا يَتَعَدَّاهَا وَهُوَ عَاقِلٌ، وَلَا يَتَحَدَّاهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ.

وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ جُزْءٌ مِنْ حَقِيقَةِ الإِسْلَامِ، كَانَتْ مُصْطَفَاةً لِوَحْيِ اللهِ، وَلُغَةً لِكِتَابِهِ، وَمُعْجِزَةً لِرَسُولِهِ، وَلِسَانًا لِدَعْوَتِهِ، وَقَدْ هَذَّبَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِحَدِيثِهِ، وَنَشَرَهَا الدِّينُ بِانْتِشَارِهِ، وَخَلَّدَهَا القُرْآنُ بِخُلُودِهِ.

وَالقُرْآنُ لَا يُسَمَّىٰ قُرْآنًا إِلَّا فِيهَا، وَالصَّلَاةُ لَا تَكُونُ صَلَاةً إِلَّا بِهَا.

وَالحِكْمَةُ الإِلَهِيَّةُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ الإِسْلَامَ خَاتَمُ الأَدْيَانِ كُلِّهَا، فَلَابُدَّ أَنْ تَكُونَ رِسَالَتُهُ تَامَّةً لا يَلْحَقُهَا نَقْصُ الإِنْسَانِ، وَلَا يَسْبِقُهَا تَطَوُّرُ العَالَمِ، وَلَابُدَّ أَنْ تَكُونَ عَامَّةً لا يُقْصَدُ بِهَا قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ، وَلَا يَصْلُحُ عَلَيْهَا عَصْرٌ دُونَ عَصْرٍ.

وَالنَّتِيجَةُ المَحْتُومَةُ لِهَذَا التَّمَامِ، وَذَاكَ العُمُومِ، أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ كَافَّةً فِي نِظَامٍ رَبَّانِيٍّ وَاحِدٍ، اخْتَارَ لَهُ العَرَبِيَّةَ لِتَكُونَ جُمْعَةَ مَا بَيْنَ الأَلْسُنِ المُخْتَلِفَةِ، وَوُصْلَةَ مَا بَيْنَ القُلُوبِ المُتَبَاعِدَةِ، وَدَلِيلُ هَذَا الاخْتِيَارِ أَنْ أَنْزَلَ كِتَابَهُ بِهَا، وَتَكَفَّلَ أَنْ يَحْفَظَهَا بِحِفْظِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

لِذَلِكَ سَارَتِ العَرَبِيَّةُ مَعَ الفَاتِحِينَ تُخْضِعُ إِلَىٰ سُلْطَانِهَا كُلَّ لُغَةٍ فِي كُلِّ بَلَدٍ، حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ لُغَةَ الدِّينِ وَالأَدَبِ وَالعِلْمِ، وَالسِّيَاسَةِ وَالإِدَارَةِ وَالحَضَارَةِ فِي أَكْثَرِ الدُّنْيَا القَدِيمَةِ، وَحَتَّىٰ أَصْبَحَ المُسْلِمُ يَنْتَقِلُ مِنْ قُطْرٍ إِلَىٰ قُطْرٍ فِي عَالَمِهِ الإِسْلَامِيِّ كَمَا يَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ فِي وَطَنِهِ الأَصْلِيِّ، لا يَجِدُ مَشَقَّةً فِي التَّفَاهُمِ، وَلَا صُعُوبَةً فِي التَّعَامُلِ، وَلَا شِدَّةً فِي المَعِيشَةِ.

فَلَمَّا وَهَىٰ النِّظَامُ الجَامِعُ، وَانْفَرَطَ العِقْدُ المُنَضَّدُ، وَاخْتَلَفَ اللِّسَانُ المُتَّفِقُ، ذَهَبَ المُسْلِمُونَ أَبَادِيدَ، لا يُنَظِّمُهُمْ مُلْكٌ، وَلَا تُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ وَحْدَةٌ.

وَالسَّبِيلُ القَصْدُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ العُظْمَىٰ، أَوْ إِعَادَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الكُبْرَىٰ، هِيَ أَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ لُغَةً عَامَّةً؛ لِأَنَّ لِلْعَرَبِيَّةِ مَا لِلْإِسْلَامِ مِنْ قُوَّةِ الانْتِشَارِ، فَكَمَا أَنَّ الإِسْلَامَ بِرَبَّانِيَّتِهِ، وَوُضُوحِهِ، وَجَمَالِهِ،

وَطَبِيعَتِهِ، يَسْرِي فِي النُّفُوسِ مَسْرَىٰ النُّورِ فِي الظَّلَامِ، وَالبُرْءِ فِي السَّقَامِ.

فَإِنَّ العَرَبِيَّةَ بِحَلَاوَةِ جَرْسِهَا، وَبَلَاغَةِ أُسْلُوبِهَا وَغِنَىٰ أَدَبِهَا، وَقَدَاسَةِ الوَحْيِ بِهَا، تَجْرِي عَلَىٰ الأَلْسِنَةِ مَجْرَىٰ الذِّكْرِ عَلَىٰ القَلْبِ، أَوِ الفِكْرِ فِي الخَاطِرِ.

وَتَارِيخُ العَرَبِ مَعَ القِبْطِيَّةِ فِي مِصْرَ، وَالرُّومِيَّةِ فِي الشَّامِ، وَالفَارِسِيَّةِ فِي العِرَاقِ، وَالبَرْبَرِيَّةِ فِي إِفْرِيقِيَّة، مَعْرُوفٌ.

وَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ سُلْطَانَ العَرَبِ، أَوْ تَمَكُّنَ الفَتْحِ هُوَ الَّذِي بَسَطَ لَهَا هَذَا النُّفُوذَ وَمَكَّنَ لَهَا فِي هَذِهِ الشُّعُوبِ، فَإِنَّ اللَّاتِينِيَّةَ غَزَتِ المَغْرِبَ وَالمَشْرِقَ وَكَانَ وَرَاءَهَا إِمْبِرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِ، وَالتُّرْكِيَّةَ غَزَتِ الشَّرْقَ وَكَانَ مِنْ وَرَائِهَا خِلَافَةُ بَنِي عُثْمَانَ، وَمَعَ ذَلِكَ ظَلَّتَا عَلَىٰ تَطَاوُلِ الدَّهْرِ، وَاسْتِطَالَةِ القَهْرِ: لِسَانًا لِلْإِدَارَةِ وَالجَيْشِ لَا تَتَعَدَّاهُمَا إِلَىٰ البَيْتِ وَالسُّوقِ، فَلَمْ تَغْلِبَا حِينَ طَغَتْ سَطْوَتُهُمَا عَلَىٰ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ النَّاسِ، وَلَمْ تُمَكَّنَا بَعْدَ أَنْ دَالَتْ دَوْلَتُهُمَا فِي بُقْعَةٍ مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ.

إِنَّ اللُّغَةَ الَّتِي أَوْحَىٰ اللهُ بِهَا وَحْيَهُ المَعْصُومَ، وَنَطَقَ بِهَا رَسُولُهُ بَيَانَهُ الهَادِي، وَتَحْمِلُ دِينَ الإِسْلَامِ عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً، هِيَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لِسَانًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مَرَّتْ بِهَا فَتَرَاتُ ضَعْفٍ فِي الحِفَاظِ عَلَيْهَا، وَالنُّطْقِ بِهَا، وَاسْتِعْمَالِهَا، وَخَرَجَتْ مِنْهَا جَمِيعًا ظَافِرَةً مُنْتَصِرَةً، وَذَلِكَ بِفَضْلِ حِفْظِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهَا بِحِفْظِهِ تَعَالَىٰ لِلْقُرْآنِ المَجِيدِ.

وَقَدْ سَجَّلَ ابْنُ مَنْظُورٍ صَاحِبُ «لِسَانِ العَرَبِ» حَالَةَ اللُّغَةِ فِي عَصْرِهِ، فَذَكَرَ أَنَّ اللَّحْنَ كَانَ مُتَفَشِّيًا، وَأَنَّ أَبْنَاءَهَا كَانُوا يَتَفَاصَحُونَ بِغَيْرِهَا، وَأَنَّ النُّطْقَ بِهَا كَانَ يُعَدُّ مِنَ العُيُوبِ -وَمَعَ ذَلِكَ خَرَجَ فِي هَذِهِ الآوِنَةِ مِنْ دِيوَانِ الإِنْشَاءِ مَا يُشْبِهُ رَسْمَ سِيَاسَةٍ لُغَوِيَّةٍ خَرَجَتْ بِهَا العَرَبِيَّةُ مُنْتَصِرَةً ظَافِرَةً.

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي أَسْبَابِ تَأْلِيفِهِ «لِلِسَانِ العَرَبِ»:

«لَمْ أَقْصِدْ سِوَىٰ حِفْظِ أُصُولِ هَذِهِ اللُّغَةِ النَّبَوِيَّةِ وَضَبْطِ فَضْلِهَا، إِذْ عَلَيْهَا مَدَارُ أَحْكَامِ الكِتَابِ العَزِيزِ، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

وَلِأَنَّ العَالِمَ بِغَوَامِضِهَا يَعْلَمُ مَا تُوَافِقُ فِيهِ النِّيَّةُ اللِّسَانَ، وَيُخَالِفُ فِيهِ اللِّسَانُ النِّيَّةَ، وَذَلِكَ لِمَا رَأَيْتُهُ قَدْ غَلَبَ فِي هَذَا الأَوَانِ مِنَ اخْتِلَافِ الأَلْسِنَةِ وَالأَلْوَانِ، حَتَّىٰ لَقَدْ أَصْبَحَ اللَّحْنُ فِي الكَلَامِ يُعَدُّ لَحْنًا مَرْدُودًا[1]، وَصَارَ النُّطْقُ بِالعَرَبِيَّةِ مِنَ المَعَايِبِ مَعْدُودًا.

وَتَنَافَسَ النَّاسُ فِي تَصَانِيفِ التَّرجَمَانَاتِ فِي اللُّغَةِ الأَعْجَمِيَّةِ، وَتَفَاصَحُوا فِي غَيْرِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فَجَمَعْتُ هَذَا الكِتَابَ فِي زَمَنٍ أَهْلُهُ بِغَيْرِ لُغَتِهِ يَفْخَرُونَ، وَصَنَعْتُهُ كَمَا صَنَعَ نُوحٌ الفُلْكَ وَقَوْمُهُ مِنْهُ يَسْخَرُونَ»[2].

وَقَدْ وُلِدَ ابْنُ مَنْظُورٍ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَسِتِّمِئَةٍ، وَتُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ سَنَةَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ وَسَبْعِمِئَةٍ، فَمَا ذَكَرَهُ مِنْ حَالِ العَرَبِيَّةِ كَانَ أَيَّامَ الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ، حَيْثُ

---

(١) يريد: متردِّدًا يتكررُ.

(٢) مقدمة «لسان العرب» لابن منظور (ص١٣).

تَلَاطَمَتْ فِي مُجْتَمَعِ النَّاطِقِينَ بِالعَرَبِيَّةِ أَمْوَاجُ اللُّغَاتِ الإِفْرِنْجِيَّةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِهَا، وَاللُّغَاتِ الأَعْجَمِيَّةِ بِأَنْوَاعِهَا.

وَمَعَ مَا خَاضَتْهُ العَرَبِيَّةُ المُجَاهِدَةُ مِنْ مَعَارِكَ، وَمَرَّتْ بِهِ مِنْ عَقَبَاتٍ، فَقَدْ كَانَتْ دَائِمًا مَنْصُورَةً مُظَفَّرَةً، وَذَلِكَ قَدَرُهَا الَّذِي قَدَّرَ اللهُ لَهَا لَمَّا أَنْزَلَ بِهَا كِتَابَهُ الخَاتَمَ المَجِيدَ.

لَقَدْ كَانَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ أَقْوَىٰ وَسَائِلِ تَبْلِيغِ الإِسْلَامِ لِلشُّعُوبِ المُخْتَلِفَةِ، وَعَرَفَتِ العَرَبِيَّةُ أَوَّلَ احْتِكَاكٍ فِعْلِيٍّ بِاللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ، وَكَانَ مِنَ المَفْرُوضِ أَنْ تَتَأَثَّرَ تَأَثُّرًا يَصِلُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الذَّوَبَانِ فِي اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ الأُخْرَىٰ، لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ اللُّغَاتُ مِنْ رُقِيٍّ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ؛ كَالفَارِسِيَّةِ، وَالقِبْطِيَّةِ، وَالرُّومَانِيَّةِ...

إِلَّا أَنَّهَا أَثَّرَتْ فِي تِلكَ اللُّغَاتِ، وَحَافَظَتْ عَلَىٰ بُنَاهَا بِكَيْفِيَّةٍ تَبْعَثُ عَلَىٰ الاسْتِغْرَابِ، لَوْلَا مَعْرِفَةُ السِّرِّ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ ارْتِبَاطُهَا بِكِتَابِ اللهِ المَحْفُوظِ بِحِفْظِهِ، فَجَعَلَهَا ذَلِكَ تُؤَثِّرُ، وَلَا تَتَأَثَّرُ إِلَّا بِالقَدْرِ الَّذِي لَا يَمَسُّ جَوْهَرَهَا، وَبُنَاهَا الأَصْلِيَّةَ، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ الصِّرَاعَاتِ العَنِيفَةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تِلْكَ اللُّغَاتِ، الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً فِي البُلْدَانِ المَفْتُوحَةِ.

وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ مِنَ الوُضُوحِ بِحَيْثُ لَا تَقْبَلُ النِّقَاشَ أَصْلًا، وَلَقَدْ قَرَّرَهَا المُسْتَشْرِقُونَ أَنْفُسُهُمْ، فَقَالَ (يوهان فك):

«إِنَّ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَىٰ لَتَدِينُ حَتَّىٰ يَوْمِنَا هَذَا بِمَرْكَزِهَا العَالَمِيِّ لِهَذِهِ الحَقِيقَةِ الثَّابِتَةِ، وَهِيَ أَنَّهَا قَدْ قَامَتْ فِي جَمِيعِ البُلْدَانِ العَرَبِيَّةِ، وَمَا عَدَاهَا مِنَ

الأَقَالِيمِ الدَّاخِلَةِ فِي المُحِيطِ الإِسْلَامِيِّ، رَمْزًا لُغَوِيًّا لِوَحْدَةِ عَالَمِ الإِسْلَامِ فِي الثَّقَافَةِ وَالمَدَنِيَّةِ.

وَلَقَدْ بَرْهَنَ جَبَرُوتُ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ التَّالِدِ الخَالِدِ، عَلَىٰ أَنَّهُ أَقْوَىٰ مِنْ كُلِّ مُحَاوَلَةٍ يُقْصَدُ بِهَا إِلَىٰ زَحْزَحَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ عَنْ مَقَامِهَا المُسَيْطِرِ.

وَإِذَا صَدَقَتِ البَوَادِرُ، وَلَمْ تُخْطِئِ الدَّلَائِلُ، فَسَتَحْتَفِظُ أَيْضًا بِهَذَا المَقَامِ العَتِيدِ مِنْ حَيْثُ هِيَ لُغَةُ المَدَنِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، مَا بَقِيَتْ هُنَاكَ مَدَنِيَّةٌ إِسْلَامِيَّةٌ»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «العربية» ليوهان فك، ترجمة رمضان عبد التواب (ص٢٤٢).



طَرَفٌ مِنْ خَصَائِصِ العَرَبِيَّةِ

إِنَّ لِلْعَرَبِيَّةِ مِنَ الخَصَائِصِ الَّتِي تُمَيِّزُهَا مِنْ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، الكَثِيرَ، وَمِنْ تِلْكَ الخَصَائِصِ:

١ - ارْتِبَاطُهَا بِالقُرْآنِ المَجِيدِ:

لِلْعَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ ظَرْفٌ خَاصٌّ، لَمْ يَتَوَفَّرْ لِأَيَّةِ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ العَالَمِ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا ارْتَبَطَتْ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ، مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَدُوِّنَ بِهَا التُّرَاثُ العَرَبِيُّ الضَّخْمُ، الَّذِي كَانَ مِحْوَرُهُ هُوَ القُرْآن الكَرِيم فِي كَثِيرٍ مِنْ مَظَاهِرِهِ.

وَقَدْ كَفَلَ اللهُ لَهَا الحِفْظَ مَا دَامَ يَحْفَظُ دِينَهُ، فَقَالَ ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

وَلَوْلَا أَنْ شَرَّفَهَا اللهُ ﷻ، فَأَنْزَلَ بِهَا كِتَابَهُ، وَقَيَّضَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يَتْلُوهُ صَبَاحَ مَسَاءَ، وَوَعَدَ بِحِفْظِهِ عَلَىٰ تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ، لَوْلَا كُلُّ هَذَا لَأَمْسَتِ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ لُغَةً أَثَرِيَّةً، تُشْبِهُ اللَّاتِينِيَّةَ أَوِ السنسكريتية، وَلَسَادَتِ اللَّهْجَاتُ العَرَبِيَّةُ المُخْتَلِفَةُ فِي نَوَاحِي الأَرْضِ العَرَبِيَّةِ، وَازْدَادَتْ عَلَىٰ مَرِّ الزَّمَانِ بُعْدًا عَنِ الأَصْلِ الَّذِي انْسَلَخَتْ مِنْهُ[1].

(١) انظر: «فصول في فقه العربية» (ص٤١٤).

٢- اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ أَقْرَبُ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الأُمِّ:

قَسَّمَ عُلَمَاءُ فِقْهِ اللُّغَةِ اللُّغَاتِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

الصِّنْفُ الأَوَّلُ: اللُّغَاتُ العَازِلَةُ، وَهِيَ غَيْرُ المُتَصَرِّفَةِ، فَبِنْيَةُ الكَلِمَاتِ لَا تَتَغَيَّرُ، وَأُصُولُهَا لَا تُلْصَقُ بِهَا حُرُوفٌ زَائِدَةٌ، لَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا، وَلَيْسَ بَيْنَ أَجْزَاءِ تَرَاكِيبِهَا رَوَابِطُ وَصِلَاتٌ، وَمِنْ هَذَا الصِّنْفِ: اللُّغَةُ الصِّينِيَّةُ، وَكَثِيرٌ مِنَ اللُّغَاتِ البُدَائِيَّةِ.

وَالصِّنْفُ الثَّانِي: اللُّغَاتُ الإِلْصَاقِيَّةُ، وَهِيَ لُغَاتٌ وَصلِيَّةٌ، تَمْتَازُ بِالسَّوَابِقِ وَاللَّوَاحِقِ الَّتِي تُرْبَطُ بِالأَصْلِ فَتُغَيِّرُ مَعْنَاهُ وَعَلَاقَتَهُ بِمَا عَدَاهُ مِنْ أَجْزَاءِ التَّرْكِيبِ، وَمِنْ هَذَا الصِّنْفِ: اللُّغَةُ اليَابَانِيَّةُ وَاللُّغَةُ التُّرْكِيَّةُ.

وَالصِّنْفُ الثَّالِثُ: اللُّغَاتُ التَّحْلِيلِيَّةُ، وَهِيَ المُتَصَرِّفَةُ الَّتِي تَتَغَيَّرُ أَبْنِيَتُهَا بِتَغَيُّرِ المَعَانِي، وَتُحَلَّلُ أَجْزَاؤُهَا المُتَرَابِطَةُ فِيمَا بَيْنَهَا بِرَوَابِطَ تَدُلُّ عَلَىٰ عَلَاقَاتِهَا، وَمِنْ هَذَا الصِّنْفِ: اللُّغَاتُ السَّامِيَّةُ وَفِي طَلِيعَتِهَا العَرَبِيَّةُ، وَأَكْثَرُ اللُّغَاتِ الهِنْدِيَّةِ الأُورُبِّيَّةِ.

وَقَدْ لَاحَظَ العُلَمَاءُ تَفَوُّقَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ اللُّغَةُ السَّامِيَّةُ الأُمُّ، بِمَا فِي ذَلِكَ أَهَمُّ صِفَتَيْنِ لِتِلْكَ اللُّغَاتِ وَهُمَا: الاشْتِقَاقُ، وَالإِعْرَابُ.

وَمِمَّا احْتَفَظَتْ بِهِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ عَدَدٌ مِنَ الأَصْوَاتِ الَّتِي هَجَرَتْهَا لُغَةٌ سَامِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، أَوْ أَكْثَرُ مِنْ لُغَةٍ.

وَثَمَّةَ أَلْفَاظٌ، تَسْتَعْمِلُهَا اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ اليَوْم عُمُرُهَا أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ قَرْنًا، ثُمَّ إِنَّ ظَاهِرَةَ الإِعْرَابِ فِي العَرَبِيَّةِ أَقْدَمُ مِنَ القَرْنِ الخَامِسِ وَالعِشْرِينَ قَبْلَ المِيلَادِ[١].

وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ مِنَ اللُّغَاتِ الاشْتِقَاقِيَّةِ التَّصْرِيفِيَّةِ، بَلْ مِنْ أَكْثَرِهَا تَصَرُّفًا، فَالكَلِمَاتُ تَقْبَلُ الدُّخُولَ فِي جَدَاوِلَ اشْتِقَاقِيَّةٍ كَاسْمِ الفَاعِلِ، وَاسْمِ المَفْعُولِ، وَأَسْمَاءِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ وَالمَرَّةِ وَالهَيْئَةِ وَالآلَةِ وَغَيْرِهَا.

وَتَقْبَلُ الدُّخُولَ فِي جَدَاوِلَ تَصْرِيفِيَّةٍ مِنْ حَيْثُ العَدَدُ: (مُفْرَدٌ، وَمُثَنىٰ، وَجَمْعٌ بِأَنْوَاعِهِ)، وَالنَّوْعُ: (مُذَكَّرٌ، وَمُؤَنَّثٌ)، وَالتَّعْيِينُ: (نكِرَةٌ، وَمَعْرِفَةٌ).

وَإِذَا كَانَتِ اللُّغَاتُ العَازِلَةُ أَوْ أُحَادِيَّةُ المَقْطَعِ تُنَاسِبُ طُفُولَةَ المَدَنِيَّةِ، وَاللُّغَاتُ اللَّاصِقَةُ تُنَاسِبُ مَرْحَلَةً أَرْقَىٰ، فَإِنَّ اللُّغَاتِ الاشْتِقَاقِيَّةَ تُعْتَبَرُ أَكْثَرَ اللُّغَاتِ مُنَاسَبَةً لِلْحَضَارَةِ.

وَالاشْتِقَاقُ فِي الفُصْحَىٰ أَكْثَرُ شُيُوعًا مِنَ العَامِّيَّةِ، مِمَّا يَجْعَلُهَا أَصْلَحَ لِلْحَضَارَةِ مِنَ العَامِّيَّةِ.

٣- العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ الحُرُوفِ وَحْدَهَا، وَلَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ الأَصْوَاتِ:

وَلِأَجْلِ هَذَا لَا نَجِدُ فِيهَا عَلَامَاتٍ لِلْأَصْوَاتِ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَىٰ، وَالغَرِيبُ أَنَّ خُلُوَّ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ عَلَامَاتِ الأَصْوَاتِ لَا تُقَابِلُهُ كَثْرَةٌ

(١) «اللغة العربية عبر القرون» لمحمود فهمي حجازي (ص٢٨).

فِي الحُرُوفِ، فَلَيْسَتِ الأَبْجَدِيَّةُ العَرَبِيَّةُ أَوْفَرَ عَدَدًا مِنَ الأَبْجَدِيَّاتِ فِي اللُّغَاتِ الهِنْدِيَّةِ الجِرْمَانِيَّةِ، أَوِ اللُّغَاتِ الطُّورَانِيَّةِ، أَوِ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ؛ فَإِنَّ اللُّغَةَ الرُّوسِيَّةَ -مَثَلًا- تَبْلُغُ عِدَّةُ حُرُوفِهَا خَمْسَةً وَثَلَاثِينَ حَرْفًا، وَقَدْ تَزِيدُ بِبَعْضِ الحُرُوفِ المُسْتَعَارَةِ مِنَ الأَعْلَامِ الأَجْنَبِيَّةِ عَنْهَا.

وَلَكِنَّهَا عَلَىٰ هَذِهِ الزِّيَادَةِ فِي حُرُوفِهَا لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي الوَفَاءِ بِالمَخَارِجِ الصَّوْتِيَّةِ عَلَىٰ تَقْسِيمَاتِهَا المُخْتَلِفَةِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الحُرُوفِ الزَّائِدَةِ إِنَّمَا هُوَ حَرَكَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ لِحَرْفٍ وَاحِدٍ، أَوْ هُوَ حَرْفٌ وَاحِدٌ مِنْ مَخْرَجٍ صَوْتِيٍّ وَاحِدٍ، تَتَغَيَّرُ قُوَّةُ الضَّغْطِ عَلَيْهِ كَمَا تَتَغَيَّرُ قُوَّةُ الضَّغْطِ فِي الآلَاتِ، دُونَ أَنْ يَسْتَدْعِيَ ذَلِكَ افْتِنَانًا فِي تَخْرِيجِ الصَّوْتِ النَّاطِقِ مِنَ الأَجْهِزَةِ الصَّوْتِيَّةِ فِي الإِنْسَانِ...

وَبِمِثْلِ هَذَا الاخْتِلَافِ فِي الضَّغْطِ أَوِ الاخْتِلَافِ فِي الحَرَكَةِ، يُمْكِنُ أَنْ تَبْلُغَ حُرُوفُ الأَبْجَدِيَّةِ خَمْسِينَ وَسِتِّينَ، وَلَا تَدُلُّ عَلَىٰ تَنْوِيعٍ مُفِيدٍ لِمَخَارِجِ النُّطْقِ الإِنْسَانِيِّ عَلَىٰ حَسَبِ المَلَكَةِ الصَّوْتِيَّةِ الكَامِنَةِ فِي اسْتِعْدَادِهِ.

وَتَظَلُّ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْفَرَ عَدَدًا فِي أَصْوَاتِ المَخَارِجِ الَّتِي لَا تَلْتَبِسُ وَلَا تَتَكَرَّرُ بِمُجَرَّدِ الضَّغْطِ عَلَيْهَا، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَخْرَجٌ صَوْتِيٌّ وَاحِدٌ نَاقِصٌ فِي الحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ، وَإِنَّمَا تَعْتَمِدُ هَذِهِ اللُّغَةُ عَلَىٰ تَقْسِيمِ الحُرُوفِ عَلَىٰ حَسَبِ مَوْقِعِهَا مِنْ أَجْهِزَةِ النُّطْقِ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ تَقْسِيمِهَا بِاخْتِلَافِ الضَّغْطِ عَلَىٰ المَخْرَجِ الوَاحِدِ.

وَعَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ تَمْتَازُ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ بِحُرُوفٍ لَا تُوجَدُ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَىٰ؛ كَالضَّادِ، وَالظَّاءِ، وَالعَيْنِ، وَالقَافِ، وَالحَاءِ، وَالطَّاءِ، أَوْ تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا أَحْيَانًا، وَلَكِنَّهَا مُلْتَبِسَةٌ مُتَرَدِّدَةٌ لَا تُضْبَطُ بِعَلَاقَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَعَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ أَيْضًا اسْتَغْنَتِ العَرَبِيَّةُ عَنْ تَمْثِيلِ الحَرْفِ الوَاحِدِ بِحَرْفَيْنِ مُشْتَبِكَيْنِ أَوْ مُتَلَاصِقَيْنِ، كَمَا يَكْتُبُونَ الثَّاءَ وَالذَّالَ وَالشِّينَ وَغَيْرَهَا فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ[1].

٤ - ثَبَاتُ أَصْوَاتِ حُرُوفِ العَرَبِيَّةِ عَلَىٰ مَدَىٰ العُصُورِ:

فَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ التَّشْوِيهِ وَالتَّغْيِيرِ الكَبِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَىٰ الحُرُوفِ فِي اللَّهْجَاتِ العَامِّيَّةِ، فَإِنَّ حُرُوفَ الفُصْحَىٰ مَا تَزَالُ تُلْفَظُ كَمَا نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا.

وَالمِصْرِيُّونَ مَعَ أَنَّهُمْ يَتَمَيَّزُونَ مِنَ العَرَبِ بِعَدَمِ تَعْطِيشِ الجِيمِ نَجِدُهُمْ لَا يُقْدِمُونَ عَلَىٰ تَرْتِيلِ القُرْآنِ، وَإِلْقَاءِ الخُطَبِ العَصْمَاءِ إِلَّا بِالجِيمِ المُعَطَّشَةِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ النُّطْقِ العَرَبِيِّ الأَصِيلِ لِهَذَا الحَرْفِ.

٥ - خَاصِّيَّةُ التَّضَادِّ:

تَتَمَيَّزُ العَرَبِيَّةُ عَمَّا عَدَاهَا مِنَ اللُّغَاتِ؛ بِخَاصِّيَّةِ التَّضَادِّ، وَهُوَ أَنْ يُطْلَقَ اللَّفْظُ عَلَىٰ المَقْصُودِ وَضِدِّهِ؛ كَكَلِمَةِ (بَصِير)، فَهِيَ تُطْلَقُ عَلَىٰ المُبْصِرِ كَمَا تُطْلَقُ

---

(١) «اللغة الشاعرة» (ص١٢).

عَلَىٰ الأَعْمَىٰ، وَكَلِمَةِ (شرَىٰ)، وَهِيَ تَعْنِي البَيْعَ وَالاشْتِرَاءَ.

وَقَدْ يَتَغَيَّرُ مَعْنَىٰ الكَلِمَةِ مِنَ النَّقِيضِ إِلَىٰ النَّقِيضِ، بِاسْتِعْمَالِ حَرْفِ الجَرِّ مَعَهَا؛ كَمَا فِي الفِعْلِ: رَغِبَ، فرَغِبَ فِي كَذَا، ضِدُّ رَغِبَ عَنْ كَذَا.

٦- خَاصِّيَّةُ التَّعْوِيضِ:

وَالتَّعْوِيضُ إِقَامَةُ كَلِمَةٍ مَقَامَ كَلِمَةٍ بِنَفْسِ الوَظِيفَةِ؛ كَإِقَامَةِ المَصْدَرِ مَقَامَ الأَمْرِ، وَالفَاعِلِ مَقَامَ المَصْدَرِ، مِثْل: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة:٢].

وَالمَفْعُولِ مَقَامَ المَصْدَرِ مِثْل: ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم:٦].

وَاسْمِ المَفْعُولِ مَقَامَ اسْمِ الفَاعِلِ، مِثْل: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥]؛ بِمَعْنَىٰ: سَاتِرًا.

وَاسْمِ الفَاعِلِ مَقَامَ اسْمِ المَفْعُولِ كَقَوْلِ الحُطَيْئَةِ:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

أَيْ: فَأَنْتَ المَطعُومُ المَكْسُوُّ.

٧- التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ:

وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ بَابٌ كَثِيرُ الفَوَائِدِ، جَمُّ المَحَاسِنِ، وَاسِعُ التَّصَرُّفِ، بَعِيدُ الغَايَةِ، لَا يَزَالُ يَفْتَرُّ لَكَ عَنْ بَدِيعَةٍ، وَيُفْضِي بِكَ إِلَىٰ لَطِيفَةٍ، وَلَا تزَالُ تَرَىٰ شِعْرًا يَرُوقُكَ مَسْمَعُهُ، وَيَلْطُفُ لَدَيْكَ مَوْقِعُهُ، ثُمَّ تَنْظُرُ فَتَجِدُ سَبَبَ أَنْ رَاقَكَ

وَلَطُفَ عِنْدَكَ، أَنْ قُدِّمَ فِيهِ شَيءٌ، وَحُوِّلَ اللَّفْظُ عَنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ[1].

وَذَلِكَ كَتَقْدِيمِ الخَبَرِ عَلَىٰ المُبْتَدَأ، مِثَلَ: كَاذِبٌ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ فِي كُلِّ شَيءٍ، وَكَتَقْدِيمِ المَفْعُولِ عَلَىٰ الفَاعِلِ، مِثْل قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

٨- وَفْرَةُ المُفْرَدَاتِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنِ المَعَانِي المُتَقَارِبَةِ:

وَكَذَلِكَ وَفْرَةُ المُفْرَدَاتِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ مُسَمًّىٰ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ مَا يُسَمَّىٰ بِالتَّرَادُفِ، وَهِيَ مُفْرَدَاتٌ أَسْهَمَتْ فِي إِيجَادِهَا سَائِرُ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ، وَفِي قَوَالِبَ صَوْتِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ.

وَيَكْفِي فِي هَذَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ أَمْكَنَ جَمْعُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِئَةٍ وَخَمْسَةِ آلَافِ لَفْظٍ فِي شُئُونِ (الجُمَلِ) رَفِيقِ العَرَبِيِّ فِي الصَّحْرَاءِ، وَمُؤْنِسِهِ فِي وَحْشَتِهِ.

وَيُضَافُ إِلَىٰ ذَلِكَ: قِلَّةُ حُرُوفِ اللَّفْظَةِ العَرَبِيَّةِ؛ اسْمًا وَفِعْلًا وَحَرْفًا، فَهِيَ تَقِلُّ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرْفًا وَاحِدًا، وَتَزِيدُ فَتَقِفُ مَعَ حُرُوفِ الزِّيَادَةِ عِنْدَ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ.

وَكَثْرَةُ المُفْرَدَاتِ، وَالاتِّسَاعُ فِي الاسْتِعَارَةِ وَالتَّشْبِيهِ، تُعْطِي القُدْرَةَ عَلَىٰ الإِفْصَاحِ عَنِ المَعْنَىٰ مِنْ جِهَةٍ، وَتُسْعِفُ العَرَبِيَّةَ لِتَكُونَ اللُّغَةَ المُعَبِّرَةَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

---

(١) «دلائل الإعجاز» تحقيق: محمود شاكر (ص١٠٦).

وَمُعْجَمُ «لِسَان العَرَبِ» يَشْتَمِلُ عَلَىٰ نَحْوِ ثَمَانِينَ أَلْفَ مَادَّةٍ، وَيَصِلُ بَعْضُ العُلَمَاءِ بِمَوَادِّ العَرَبِيَّةِ إِلَىٰ أَرْبَعَمِئَةِ أَلْفِ مَادَّةٍ.

٩- الحَذْفُ:

وَهُوَ بَابٌ دَقِيقُ المَسْلَكِ، لَطِيفُ المَأْخَذِ، عَجِيبُ الأَمْرِ، شَبِيهٌ بِالسِّحْرِ؛ فَإِنَّكَ تَرَىٰ بِهِ تَرْكَ الذِّكْرِ أَفْصَحَ مِنَ الذِّكْرِ، وَالصَّمْتَ عَنِ الإِفَادَةِ أَزِيدَ لِلْإِفَادَةِ، وَتَجِدُكَ أَنْطَقَ مَا تَكُونُ إِذَا لَمْ تَنْطِقْ، وَأَتَمَّ مَا تَكُونُ بَيَانًا إِذَا لَمْ تُبِنْ[١].

وَمِنَ الحَذْفِ: حَذْفُ المَفْعُولِ بِهِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَزْدَادَ تَبَيُّنًا لِهَذَا الأَصْلِ، وَهُوَ وُجُوبُ أَنْ تُسْقِطَ المَفْعُولَ لِتَتَوَفَّرَ العِنَايَةُ عَلَىٰ إِثْبَاتِ الفِعْلِ لِفَاعِلِهِ وَلَا يَدْخُلُهَا شَوْبٌ، فَانْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص:٢٣-٢٤].

فَفِيهَا حَذْفُ مَفْعُولٍ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ؛ إِذِ المَعْنَىٰ: «وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ»: أَغْنَامَهُمْ أَوْ مَوَاشِيهِمْ، «وَامْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ»: غَنَمَهُمَا، «قَالَتَا لَا نَسْقِي»: غَنَمَنَا، «فَسَقَىٰ لَهُمَا»: غَنَمَهُمَا[٢].

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥].

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص١٤٦).

(٢) «دلائل الإعجاز» (ص١٦١).

وَالأَصْلُ: لَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَىٰ الهُدَىٰ لَجَمَعَهُمْ.

وَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٩].

وَالتَّقْدِيرُ: وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَهْدِيَكُمْ أَجْمَعِينَ لَهَدَاكُمْ، إِلَّا أَنَّ البَلَاغَةَ أَنْ يُجَاءَ بِهِ كَذَلِكَ مَحْذُوفًا[١].

وَلَمَّا كَانَ لِلتَّصْرِيحِ عَمَلٌ لَا يَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ العَمَلِ لِلْكِتَابَةِ، كَانَ لِإِعَادَةِ اللَّفْظِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١-٢]، مِنَ الحُسْنِ وَالبَهْجَةِ، وَمِنَ الفَخَامَةِ وَالنُّبْلِ، مَا لَا يَخْفَىٰ مَوْضِعُهُ عَلَىٰ بَصِيرٍ.

وَكَانَ لَوْ تُرِكَ فِيهِ الإِظْهَارُ إِلَىٰ الإِضْمَارِ، فَقِيلَ: «وَبِالحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِهِ نَزَلَ»، وَ«قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ هُوَ الصَّمَدُ»؛ لَعَدِمتَ الَّذِي أَنْتَ وَاجِدُهُ الآنَ[٢].

١٠- أَغْلَبُ كَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ ثُلَاثِيُّ الأَصْلِ:

فَيُضَافُ إِلَىٰ أَوَّلِهَا أَوْ آخِرِهَا حَرْفٌ أَوْ أَكْثَرُ، فَتَتَغَيَّرُ دَلَالَاتُ اللَّفْظَةِ تَغَيُّرًا جَذْرِيًّا، وَفِي بَعْضِ الحَالَاتِ نَكْتَفِي بِمُجَرَّدِ تَغْيِيرِ حَرَكَاتِ الحُرُوفِ مِنَ اللَّفْظَةِ الثُّلَاثِيَّةِ، كَيْ يَتَغَيَّرَ مَعْنَاهَا كُلِّيَّةً.

وَمُفْرَدَاتُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ تتكَوَّنُ مِنْ مَجْمُوعَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَكُلُّ مَجْمُوعَةٍ مِنْهَا

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص١٦٤).

(٢) «دلائل الإعجاز» (ص١٧٠).

تَرْجِعُ إِلَىٰ أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَتَشْتَرِكُ فِي جُزْءٍ مِنْ مَادَّتِهَا، وَجُزْءٍ مِنْ مَعْنَاهَا، فِي حِين أَنَّ اللُّغَاتِ اللَّاتِينِيَّةَ تَغْلِبُ عَلَيْهَا الفَرْدِيَّةُ، وَالأُصُولُ المُشْتَرَكَةُ فِيهَا ضَائِعَةٌ.

فَفِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ نَجِدُ أَنَّ كَلِمَةَ «أَخ»، وَكَلِمَةَ «أُخْت» فِي المَعَاجِمِ العَرَبِيَّةِ فِي مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ، أَمَّا فِي الفَرَنْسِيَّةِ أَوِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ، فَنَجِدُهُمَا فِي مَكَانَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لَا رَابِطَةَ بَيْنَهُمَا.

وَقِسْ عَلَىٰ ذَلِكَ آلَافَ الكَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ ذَاتِ المَادَّةِ الوَاحِدَةِ، وَلَعَلَّ هَذِهِ العَنَاصِرَ الثَّابِتَةَ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ أَقْوَىٰ العَوَامِلِ المُسَهِّلَةِ لِلْمُتَعَلِّمِ سُرْعَةَ الإِدْرَاكِ؛ لِدَلَالَةِ اللَّفْظَةِ بَعْدَ إِرْجَاعِهَا إِلَىٰ الأَصْلِ الثُّلَاثِيِّ، كَإِرْجَاعِ كَلِمَةِ: مَكْتَبَة، أَوْ كَاتِب، أَوْ كِتَاب، أَوْ مُكَاتَبَة، أَوْ مَكْتَب، أَوْ كِتَابَة... إِلَىٰ مَادَّتِهَا الأَصْلِيَّةِ، وَهِيَ: كَتَبَ.

١١- تَوْزِيعُ مَخَارِجِ الحُرُوفِ الأَبْجَدِيَّةِ عَلَىٰ سُلَّمِ المَخَارِجِ تَوْزِيعًا عَادِلًا:

وَلَا يَخْفَىٰ مَا فِي هَذَا التَّوْزِيعِ مِنْ إِسْعَافٍ عَلَىٰ الإِفْصَاحِ عَنِ المَعَانِي، بِسَبَبِ البُعْدِ الكَافِي بَيْنَ المَخَارِجِ، فَإِنَّ مِنْ أَسْبَابِ اللَّبْسِ قُرْبَ المَخَارِجِ، وَلَا يَخْفَىٰ مَا لِاسْتِقْلَالِ المَخَارِجِ الصَّوْتِيَّةِ مِنْ أَثَرٍ فِي فَصَاحَةِ اللَّفْظَةِ، وَدَوْرٍ مُتَمَيِّزٍ فِي مَجَالِ القَافِيَةِ، وَهِيَ كَذَلِكَ حِلْيَةٌ صَوْتِيَّةٌ.

وَلَا شَكَّ قَدْ كَانَ لِاعْتِمَادِ العَرَبِ الأُمِّيِّينَ عَلَىٰ الأُذُنِ وَالسَّمَاعِ أَكْثَرَ مِنَ اعْتِمَادِهِمْ عَلَىٰ العَيْنِ وَالبَصَرِ، دَوْرٌ فِي صَقْلِ لُغَتِهِمْ مِنَ الوِجْهَةِ الصَّوْتِيَّةِ.

١٢- ظَاهِرَةُ الاشْتِقَاقِ:

تَتَمَيَّزُ العَرَبِيَّةُ بِأَبْرَزِ خَاصِّيَّةٍ بَيْنَ اللُّغَاتِ، وَهِيَ: الاشْتِقَاقُ.

وَالمَعْرُوفُ أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ يَضْطَرِدُ فِيهَا الاشْتِقَاقُ بِأَكْثَرَ مِنْ أَيِّ لُغَةٍ اشْتِقَاقِيَّةٍ أُخْرَىٰ، وَالاشْتِقَاقُ مَعْنَاهُ اسْتِلَالُ الأَلْفَاظِ مِنَ الأَصْلِ اللُّغَوِيِّ، وَسَبْكُهَا فِي هَيْئَةِ قَوَالِبَ صَوْتِيَّةٍ، كَاسْمِ الفَاعِلِ مِنَ الثُّلَاثِيِّ مَثَلًا، فَإِنَّ لَهُ قَالَبًا صَوْتِيًّا وَاحِدًا فِي كُلِّ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَيُقَاسُ عَلَىٰ ذَلِكَ سَائِرُ الصِّيَغِ.

وَالاشْتِقَاقُ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ، تَصِلُ إِلَىٰ عَشَرَاتِ الكَلِمَاتِ المُشْتَقَّةِ مِنْ فِعْلٍ وَاحِدٍ، فَنَحْنُ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَشْتَقَّ مِنْ فِعْلِ (عَلِمَ) مَثَلًا هَذِهِ الكَلِمَاتِ: مُعَلِّم، وَمُعَلَّم، وَمُتَعَلِّم، وَعَالِم، وَمُتَعَالِم، وَعَلَّامَة، وَمَعْلُومَة، وَعَلَامَات، وَمَعْلَمَة، وَمُسْتَعْلِم، وَاسْتِعْلَام...

كَمَا نَشْتَقُّ مِنَ الأَسْمَاءِ ذَاتِهَا، كَقَوْلِنَا: اسْتَرْجَلَتِ المَرْأَةُ، وَاسْتَنْوَقَ الجَمَلُ، وَاسْتَأْسَدَ الرَّجُلُ، وَاسْتَفْحَلَ الأَمْرُ، وَاسْتَحْجَرَ الطِّينُ؛ أَيْ: أَصْبَحَ يُشْبِهُ الحَجَرَ.

وَكُلُّ اشْتِقَاقٍ جَدِيدٍ يَنْفَرِدُ بِمَعْنَاهُ الخَاصِّ بِهِ، إِلَىٰ جَانِبِ اتِّفَاقِهِ فِي المَعْنَىٰ العَامِّ مَعَ الكَلِمَاتِ الَّتِي تُشْتَقُّ مَعَهُ مِنَ الأَصْلِ نَفْسِهِ؛ فَكَلِمَةُ مُدَرِّسٍ، وَمُدَرِّسَةٍ، وَدِرَاسَةٍ... تَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَىٰ أَصْلٍ وَاحِدٍ هُوَ (دَرَسَ) فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، بَيْنَمَا لَا تَجِدُهَا تَعُودُ إِلَىٰ أَصْلٍ وَاحِدٍ فِي اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ، وَاللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ.

وَالتَّشَابُهُ المُلَاحَظُ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لَهُ فَوَائِدُ جَمَّةٌ فِي عَمَلِيَّاتِ التَّعَلُّمِ؛

لِأَنَّ مَعْرِفَةَ مَعْنَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الكَلِمَاتِ المُشْتَقَّةِ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، يُمَكِّنِنَا مِنَ الفَهْمِ التَّقْرِيبِيِّ لِمُعْظَمِ الكَلِمَاتِ الأُخَرِ.

١٣- الإِعْرَابُ:

مِنَ العُلُومِ الجَلِيلَةِ الَّتِي اخْتَصَّتْ بِهَا العَرَبُ: الإِعْرَابُ، الَّذِي هُوَ الفَارِقُ بَيْنَ المَعَانِي المُتَكَافِئَةِ فِي اللَّفْظِ، وَبِهِ يُعْرَفُ الخَبَرُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الكَلَامِ، وَلَوْلَا الإِعْرابُ مَا مُيِّزَ فَاعِلٌ مِنْ مَفْعُولٍ، وَلَا مُضَافٌ مِنْ مَنْعُوتٍ، وَلَا تَعَجُّبٌ مِنَ اسْتِفْهَامٍ، وَلَا صَدْرٌ مِنْ مَصْدَرٍ، وَلَا نَعْتٌ مِنْ تَأْكِيدٍ.

وَزَعَمَ نَاسٌ يُتَوَقَّفُ عَنْ قَبُولِ أَخْبَارِهِمْ: أَنَّ الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ الفَلَاسِفَةَ، قَدْ كَانَ لَهُمْ إِعرَابٌ وَمُؤَلَّفَاتُ نَحْوٍ.

وَهَذَا كَلَامٌ لَا يُعَرَّجُ عَلَىٰ مِثْلِهِ، وَإِنَّمَا تَشَبَّهَ القَوْمُ آنِفًا بِأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَأَخَذُوا مِنْ كُتُبِ عُلَمَائِنَا، وَغَيَّرُوا بَعْضَ أَلْفَاظِهَا، وَنَسَبُوا ذَلِكَ إِلَىٰ قَوْمٍ ذَوِي أَسْمَاءٍ مُنْكَرَةٍ، بِتَرَاجِمَ بَشِعَةٍ لَا يَكَادُ لِسَانُ ذِي دِينٍ يَنْطِقُ بِهَا.

وَادَّعَوْا مَعَ ذَلِكَ أَنَّ لِلْقَوْمِ شِعْرًا، وَقَدْ قَرَأْنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ قَلِيلَ المَاءِ، نَزْرَ الحَلَاوَةِ، غَيْرَ مُسْتَقِيمِ الوَزْنِ.

بَلِ الشِّعْرُ شِعْرُ العَرَبِ، وَدِيوَانُهُمْ وَحَافِظُ مَآثِرِهِمْ، وَمُقَيِّدُ حِسَابِهِمْ[1].

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: «فَأَمَّا الإِعْرَابُ فَبِهِ تُمَيَّزُ المَعَانِي، وَيُوقَفُ عَلَىٰ أَغْرَاضِ

(١) «الصاحبي» لابن فارس (ص٧٦)، و«المزهر» للسيوطي (١/ ٣٢٩).

المُتَكَلِّمِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ قَائِلًا لَوْ قَالَ: مَا أَحْسَن زَيْد. غَيْرَ مُعْرَبٍ، أَوْ: ضَرَب عُمَر زَيْد. غَيْرَ مُعْرَبٍ؛ لَمْ يُوقَفْ عَلَىٰ مُرَادِهِ، فَإِذَا قَالَ: مَا أَحْسَنَ زَيْدًا! أَوْ: مَا أَحْسَنُ زَيْدٍ؟ أَوْ: مَا أَحْسَنَ زَيْدٌ[1]، أَبَانَ بِالإِعْرَابِ عَنِ المَعْنَىٰ الَّذِي أَرَادَهُ.

وَلِلْعَرَبِ فِي ذَلِكَ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، فَهُمْ يُفَرِّقُونَ بِالحَرَكَاتِ وَغَيْرِهَا بَيْنَ المَعَانِي.

يَقُولُونَ: «مِفْتَح» لِلْآلَةِ الَّتِي يُفْتَحُ بِهَا، وَ«مَفْتَح» لِمَوْضِعِ الفَتْحِ.

وَ«مِقَصّ»، لِآلَةِ القَصِّ، وَ«مَقَصّ». لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ القَصُّ.

وَ«مِحْلَب» لِلْقَدَحِ يُحلَبُ فِيهِ، وَ«مَحْلَب» لِلْمَكَانِ الَّذِي يُحْتَلَبُ فِيهِ ذَوَاتُ اللَّبنِ.

وَيَقُولُونَ: «امْرَأَةٌ طَاهِرٌ» مِنَ الحَيْضِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَا يَشْرَكُهَا فِي الحَيْضِ.

وَ«طَاهِرَةٌ» مِنَ العُيُوبِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَشْرَكُهَا فِي هَذِهِ الطَّهَارَةِ.

وَكَذَلِكَ «قَاعِدٌ» مِنَ الحَبَلِ، وَ«قَاعَدَةٌ» مِنَ القُعُودِ.

ثُمَّ يَقُولُونَ: هَذَا غُلَامًا أَحْسَنُ مِنْهُ رَجُلًا، يُرِيدُونَ الحَالَ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ.

وَيَقُولُونَ: هَذَا غُلَامٌ أَحْسَنُ مِنْهُ رَجُلٌ، فَهُمَا إِذَنْ شَخْصَانِ.

---

(١) (ما) الأولىٰ التعجبية، والثانية: استفهامية، والثالثة: نافية.

وَيَقُولُونَ: كَمْ رَجُلًا رَأَيْتَ؟ فِي الاسْتِخْبَارِ، «وَكَمْ رَجُلٍ رَأَيْتَ!». فِي الخَبَرِ يُرَادُ بِهِ التَّكْثِيرَ.

وَهُنَّ حَوَاجُّ بَيْتِ اللهِ، إِذَا كُنَّ قَدْ حَجَجْنَ ، وَحَوَاجُّ بَيْتَ اللهِ إِذَا أَرَدْنَ الحَجَّ.

وَمِنْ ذَلِكَ: جَاءَ الشِّتَاءُ وَالحَطَبَ. لَمْ يُرِدْ أَنَّ الحَطَبَ جَاءَ، إِنَّمَا أَرَادَ الحَاجَةَ إِلَيْهِ، فَإِنْ أَرَادَ مَجِيئَهُمَا قَالَ: وَالحَطَبُ.

وَهَذَا دَلِيلٌ يَدُلُّ عَلَىٰ مَا وَرَاءَهُ»[١].

فَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ تَتَفَوَّقُ فِي ظَاهِرَةِ الإِعْرَابِ عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ الإِعْرَابِ: إِتَاحَةُ الفُرْصَةِ لِلَّفْظَةِ كَيْ تَأْخُذَ حُرِّيَّتَهَا تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، مَعَ احْتِفَاظِهَا بِمَوْقِعِهَا الإِعْرَابِيِّ.

وَلَا يَخْفَىٰ مَا فِي هَذِهِ الحُرِّيَّةِ مِنْ تَمَتُّعِ اللُّغَةِ بِقُدْرَةٍ فَائِقَةٍ عَلَىٰ نَقْلِ مَكْنُونِ الصَّدْرِ، وَالإِعْرَابِ عَنْ خَطَرَاتِ الذِّهْنِ، وَنَقْلِ هَوَاجِسِ النَّفْسِ.

وَالإِعْرَابُ المُفَصَّلُ فِي العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ هُوَ آيَةُ السَّلِيقَةِ فِي التَّرَاكِيبِ العَرَبِيَّةِ المُفِيدَةِ، تَوَافَرَتْ لَهَا جُمَلًا مَفْهُومَةً، بَعْدَ أَنْ تَوَافَرَتْ لَهَا حُرُوفًا تَجْمَعُ مَخَارِجَ النُّطْقِ الإِنْسَانِيِّ عَلَىٰ أَفْصَحِهَا وَأَوْفَاهَا، وَبَعْدَ أَنْ تَوَافَرَتْ لَهَا مُفْرَدَاتٍ تَرْتَبِطُ فِيهَا المَعَانِي بِضَوَابِط الحَرَكَاتِ وَالأَوْزَانِ.

---

(١) «الصاحبي» (ص٣٠٩)، وانظر: «المزهر» (١/ ٣٢٩).

١٤- التَّنَاسُقُ الصَّوْتِيُّ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالمَعْنَىٰ:

يُلَاحَظُ فِي العَرَبِيَّةِ وُجُودُ انْسِجَامٍ وَتَنَاسُقٍ صَوْتِيٍّ بَيْنَ الكَثِيرِ مِنَ الأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّنَا نَجِدُ الكَثِيرَ مِنَ الأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صَوْتٍ أَوْ فِعْلٍ تُشَابِهُ أَصْوَاتُهَا، أَصْوَاتَ الظَّوَاهِرِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْهَا، مِثْل:

الأَنِينِ، وَالمُوَاءِ، وَالعُوَاءِ، وَالشَّخِيرِ، وَالقَهْقَهَةِ، وَالبَسْمَلَةِ، وَالحَوْقَلَةِ، وَالشَّهِيقِ، وَالزَّفِيرِ، وَالوَلْوَلَةِ، وَالدَّنْدَنَةِ، وَالهَمْهَمَةِ، وَالتَّأَنُّفِ، وَالسَّبْحَلَةِ، وَالخَرِيرِ، وَالطَّنِينِ، وَغَيْرِهَا.

وَقَدْ عَقَدَ أَبُو الفَتْحِ فِي «الخَصَائِصِ» بَابًا، جَعَلَ عُنْوَانَهُ فِي:

إِمْسَاس الأَلْفَاظِ أَشْبَاهَ المَعَانِي.

قَالَ: «اعْلَمْ أَنَّ هَذَا مَوْضِعٌ شَرِيفٌ لَطِيفٌ، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَيْهِ الخَلِيلُ وَسِيبَوَيهِ، وَتَلَقَّتْهُ الجَمَاعَةُ بِالقَبُولِ لَهُ، وَالاعْتِرَافِ بِصِحَّتِهِ.

قَالَ الخَلِيلُ: كَأَنَّهُمْ تَوَهَّمُوا فِي صَوْتِ الجُنْدُبِ اسْتِطَالَةً وَمَدًّا، فَقَالُوا: صَرَّ، وَتَوَهَّمُوا فِي صَوْتِ البَازِيِّ تَقْطِيعًا فَقَالُوا : صَرْصَرَ.

وَقَالَ سِيبَوَيهِ فِي المَصَادِرِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَىٰ الفَعَلانِ: إِنَّهَا تَأْتِي لِلاضْطِرَابِ وَالحَرَكَةِ، نَحْوَ النَّقَزانِ، وَالغَلَيَانِ، وَالغَثَيَانِ.

قَالَ أَبُو الفَتْحِ: فَقَابَلُوا بِتَوَالِي حَرَكَاتِ المِثَالِ تَوَالِي حَرَكَاتِ الأَفْعَالِ»[1].

---

(١) «الخصائص» لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار (٢/ ١٥٤).

وَقَوْلُ سِيبَوِيه ذَكَرَهُ أَبُو الفَتْحِ بِالمَعْنَىٰ، وَنَصُّهُ فِي «الكِتَابِ»:

«وَمِنَ المَصَادِرِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَىٰ مِثَالٍ وَاحِدٍ حِينَ تَقَارَبَتِ المَعَانِي، قَوْلُكَ: النَّزَوانُ، وَالنَّقَزَانُ[١]، وَإِنَّمَا هَذِهِ الأَشْيَاءُ فِي زَعْزَعَةِ البَدَنِ، وَاهْتِزَازِهِ فِي ارْتِفَاعٍ، وَمِثْلُهُ: العَسَلانُ وَالرَّتَكَانُ...

وَمِثْلُ هَذَا: الغَلَيَانُ؛ لِأَنَّهُ زَعْزَعَةٌ وَتَحَرُّكٌ، وَمِثْلُهُ: الغَثَيَانُ؛ لِأَنَّهُ تَجَيُّشُ نَفْسِهِ، وَتَثَوُّرٌ.

وَمِثْلُه: الخَطَرَانُ وَاللَّمَعَانُ؛ لِأَنَّ هَذَا اضْطِرَابٌ وَتَحَرُّكٌ، وَمِثْلُ ذَلِكَ اللَّهَبَانُ وَالصَّخَدَانُ[٢]، وَالوَهَجَانُ، فَإِنَّمَا هُوَ تَحَرُّكُ الحَرِّ وَثُؤُورُهُ، فَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ الغَلَيَانِ»[٣].

قَالَ أَبُو الفَتْحِ: «وَوَجَدْتُ أَنَا مِنْ هَذَا الحَدِيثِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً عَلَىٰ سَمْتِ مَا حَدَّاهُ، وَمِنْهَاجِ مَا مَثَّلَاهُ.

وَذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ المَصَادِرَ الرُّبَاعِيَّةَ المُضَعَّفَةَ تَأْتِي لِلتَّكْرِيرِ، نَحْوَ الزَّعْزَعَةِ، وَالقَلقلَةِ، وَالصَّلْصَلَةِ، وَالقَعقَعَةِ، وَالصَّعْصَعةِ، وَالجَرْجَرَةِ، وَالقَرْقَرَةِ.

وَوَجَدْتُ أَيْضًا: (الفَعَلَىٰ) فِي المَصَادِرِ وَالصِّفَاتِ إِنَّمَا تَأْتِي لِلسُّرْعَةِ؛ نَحْوَ الجَمَزَىٰ، وَالوَلَقَىٰ، فَجَعَلُوا المِثَالَ المُكَرَّرَ لِلْمَعْنَىٰ المُكَرَّرِ -أَعْنِي: بَابَ

---

(١) النَّقزان: من نقز الظبيُ: وثَبَ صُعُدًا.

(٢) **الصَّخدان:** شدَّةُ الحرِّ، ومثلُه: اللهبانُ.

(٣) «الكتاب» لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون (٤/ ١٤).

القَلْقَلَةِ- وَالمِثَالَ الَّذِي تَوَالَتْ حَرَكَاتُهُ لِلْأَفْعَالِ الَّتِي تَوَالَتِ الحَرَكَاتُ فِيهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ -وَهُوَ أَصْنَعُ مِنْهُ-: أَنَّهُمْ جَعَلُوا: (اسْتَفْعَلَ) فِي أَكْثَرِ الأَمْرِ لِلطَّلَبِ، نَحْوَ اسْتَسْقَىٰ، وَاسْتَطْعَمَ، وَاسْتَوْهَبَ، وَاسْتَمْنَحَ، وَاسْتَقْدَمَ عَمْرًا، وَاسْتَصْرَخَ جَعْفَرًا.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ جَعَلُوا تَكْرِيرَ العَيْنِ فِي المِثَالِ دَلِيلًا عَلَىٰ تَكْرِيرِ الفِعْلِ، فَقَالُوا: كَسَّرَ، وَقَطَّعَ، وَفَتَّحَ، وَغَلَّقَ.

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا جَعَلُوا الأَلْفَاظَ دَلِيلَةَ المَعَانِي، فَأَقْوَىٰ اللَّفْظِ يَنْبَغِي أَنْ يُقَابَلَ بِهِ قُوَّةُ الفِعْلِ، وَالعَيْنُ أَقْوَىٰ مِنَ الفَاءِ وَاللَّامِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا وَاسِطَةٌ لَهُمَا وَمَكْنُوفَةٌ بِهِمَا؛ فَصَارَا كَأَنَّهُمَا سِيَاجٌ لَهَا، وَمَبْذُولَانِ لِلْعَوَارِضِ دُونَهَا؛ وَلِذَلِكَ تَجِدُ الإِعْلَالَ بِالحَذْفِ فِيهِمَا دُونَهَا.

فَأَمَّا مُقَابَلَةُ الأَلْفَاظِ بِمَا يُشَاكِلُ أَصْوَاتَهَا مِنَ الأَحْدَاثِ فَبَابٌ عَظِيمٌ، وَاسِعٌ، وَنَهْجٌ مُتْلَئِبٌّ[1] عِنْدَ عَارِفِيهِ مَأْمُومٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَثِيرًا مَا يَجْعَلُونَ أَصْوَاتَ الحُرُوفِ عَلَىٰ سَمْتِ الأَحْدَاثِ المُعَبَّرِ بِهَا عَنْهَا، فَيُعَدِّلُونَهَا بِهَا وَيَحْتَذُونَهَا عَلَيْهَا.

وَذَلِكَ أَكْثَرُ مِمَّا نُقَدِّرُهُ، وَأَضْعَافُ مَا نَسْتَشْعِرُهُ»[2].

---

(١) **اتلأَبَّ الأمرُ**: استقام.

(٢) «الخصائص» (٢/ ١٥٥).

١٥- لِلْعَرَبِ فِعْلٌ لا يَقُولُهُ غَيْرُهُمْ:

تَقُولُ: عَادَ فُلَانٌ شَيْخًا، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ قَطُّ شَيْخًا، وَعَادَ المَاءُ آجِنًا، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، فَقَالَ: عَادَ، وَلَمْ يَكُنْ عُرْجُونًا قَبْلُ.

وَفِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي نُورٍ مِنْ قَبْلُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ شُعَيْبٍ عليه السلام: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف:٨٩]، وَلَمْ يَكُنْ فِي مِلَّتِهِمْ قَطُّ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل:٧٠]، وَهُم لَمْ يَبْلُغُوا أَرْذَلَ العُمُرِ فَيُرَدُّوا إِلَيْهِ[١].

١٦- المُحَافَظَةُ عَلَىٰ الأَصْوَاتِ السَّامِيَّةِ، وَالزِّيَادَةُ عَلَيْهَا:

تَمَيَّزَتِ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ بِمُحَافَظَتِهَا عَلَىٰ الأَصْوَاتِ السَّامِيَّةِ، وَزَادَتْ عَلَيْهَا بِأَصْوَاتٍ جَدِيدَةٍ كَالثَّاءِ، وَالذَّالِ، وَالغَيْنِ، وَالضَّادِ، وَتَنَوَّعَتْ قَوَاعِدُ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ فِيهَا، وَتَشَعَّبَتْ فِي دِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ حَتَّىٰ بَزَّتْ فِي هَذَا المَجَالِ كُلَّ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ، وَانْفَرَدَتْ عَنْهَا بِصِيغَةِ التَّصْغِيرِ.

---

(١) «فقه اللغة» للثعالبي (ص٣٧٨)، و«المزهر» (١/ ٣٣٠).

١٧ - وَمِنْ خَصَائِصِ العَرَبِيَّةِ:

مَا ذَكَرَهُ ابْنُ فَارِسٍ فِي «الصَّاحِبِي»، فِي مَوَاضِعَ، وَنَقَلَهُ السّيُوطِيُّ فِي «المُزهِر»، مُحَرَّرًا مِثْل: انْفِرَاد العَرَبِ بِالهَمْزِ فِي عَرْضِ الكَلَامِ، مِثْلُ: قَرَأَ، وَلَا يَكُونُ فِي شَيءٍ مِنَ اللُّغَاتِ إِلَّا ابْتِدَاءً.

وَمِمَّا اخْتَصَّتْ بِهِ لُغَةُ العَرَبِ: الحَاءُ وَالطَّاءُ، وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ الضَّادَ مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ العَرَبِ دُونَ سَائِرِ الأُمَمِ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: قَدِ انْفَرَدَتِ العَرَبُ بِالأَلِفِ وَاللَّامِ الَّتِي لِلتَّعْرِيفِ، كَقَوْلِنَا: الرَّجُلُ وَالفَرَسُ، فَلَيْسَتَا فِي شَيءٍ مِنْ لُغَاتِ الأُمَمِ غَيْرِ العَرَبِ.

وَفِي بَيَانِ جُمْلَةٍ مِنْ سُنَنِ العَرَبِ الَّتِي لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِ لُغَتِهِمْ:

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: «**فَمِنْ سُنَنِ العَرَبِ:** مُخَالَفَةُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ مَعْنَاهُ؛ كَقَوْلِهِمْ عِنْدَ المَدْحِ: قَاتَلَهُ اللهُ مَا أَشْعَرَهُ! فَهُمْ يَقُولُونَ هَذَا، وَلَا يُرِيدُونَ وُقُوعَهُ.

وَكَذَا: هَبِلَتْهُ أُمُّهُ، وَثَكِلَتْهُ، وَهَذَا يَكُونُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ مِنْ إِصَابَةِ الرَّجُلِ فِي رَمْيِهِ، أَوْ فِي فِعْلٍ يَفْعَلُهُ».

قَالَ: «**وَمِنْ سُنَنِ العَرَبِ:** الاسْتِعَارَةُ، وَهِيَ أَنْ يَضَعُوا الكَلِمَةَ لِلشَّيءِ مُسْتَعَارَةً مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيَقُولُونَ: انْشَقَّتْ عَصَاهُمْ، إِذَا تَفَرَّقُوا، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ، وَيَقُولُونَ لِلرَّجُلِ المَذْمُومِ: هُوَ حِمَارٌ».

قَالَ: «**وَمِنْ سُنَنِ العَرَبِ:** الزِّيَادَةُ، فَمِنَ الزِّيَادَةِ فِي حُرُوفِ الاسْمِ، إِمَّا

لِلْمُبَالَغَةِ، وَإِمَّا لِلتَّسْوِئَةِ وَالتَّقْبِيحِ، نَحْوَ: رَعْشَن؛ لِلَّذِي يَرْتَعِشُ، وَزُرْقُم؛ لِلشَّدِيدِ الزَّرَقِ، وَشَدْقَم؛ لِلوَاسِعِ الشِّدْقِ، وَمِنْهُ كُبَّار، وَطُوَّال، وَطِرِمَّاح؛ لِلْمُفْرَطِ الطُّولِ.

وَمِنْ سُنَنِهِمُ: الزِّيَادَةُ فِي حُرُوفِ الفِعْلِ مُبَالَغَةً، يَقُولُونَ: حَلَا الشَّيءُ، فَإِذَا انْتَهَىٰ قَالُوا: احْلَوْلَىٰ.

وَمِنْ سُنَنِ العَرَبِ: أَنْ تُخَاطِبَ الشَّاهِدَ، ثُمَّ تُحَوِّلَ الخِطَابَ إِلَىٰ الغَائِبِ، أَوْ تُخَاطِبَ الغَائِبَ، ثُمَّ تُحَوِّلَهُ إِلَىٰ الشَّاهِدِ، وَهُوَ الالْتِفَاتُ، وَأَنْ تُخَاطِبَ المُخَاطَبَ ثُمَّ يَرْجِعَ الخِطَابُ لِغَيْرِهِ، نَحْوَ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾، الخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ لِلْكُفَّارِ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٤]».

قَالَ: «**وَمِنْ سُنَنِ العَرَبِ**: التَّوَهُّمُ، وَالإِيهَامُ، وَهُوَ أَنْ يَتَوَهَّمَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا، ثُمَّ يَجْعَلَ ذَلِكَ كَالحَقِّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: وَقَفْتُ بِالرَّبْعِ أَسْأَلُهُ.

وَهُوَ أَكْمَلُ عَقْلًا مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَسْمًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَعْقِلُ، لَكِنَّهُ تَفَجَّعَ لَمَّا رَأَىٰ السَّكْنَ رَحَلُوا، وَتَوَهَّمَ أَنَّهُ يَسْأَلُ الرَّبْعَ أَيْنَ انْتَأَوْا، وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ».

قَالَ: «**وَمِنْ سُنَنِ العَرَبِ**: الفَرْقُ بَيْنَ ضِدَّيْنِ بِحَرْفٍ أَوْ حَرَكَةٍ؛ كَقَوْلِهِمْ: يَدْوَىٰ مِنَ الدَّاءِ، وَيُدَاوِىٰ مِنَ الدَّوَاءِ، وَيُخْفِرُ إِذَا نَقَضَ مِنْ أَخْفَرَ، وَيَخْفِر إِذَا أَجَارَ، مِنْ خَفَرَ، وَلُعَنَةٌ إِذَا أَكْثَرَ اللَّعْنَ، وَلُعْنَةٌ إِذَا كَانَ يُلْعَن؛ وَهُزَأَةَ وهُزْأَة،

وَسُخَرَة وَسُخْرَة».

وَقَالَ: «**وَمِنْ سُنَنِ العَرَبِ**: أَنْ تُعِيرَ الشَّيءَ مَا لَيْسَ لَهُ، فَتَقُولُ: مَرَّ بَيْنَ سَمْعِ الأَرْضِ وَبَصَرِهَا».

وَذَكَرَ السّيُوطِيُّ سُنَنًا مِمَّا ذَكَرَ ابْنُ فَارِسٍ ثُمَّ نَقَلَ قَوْلَهُ:

«وَقَدْ جَاءَ القُرْآنُ بِجَمِيعِ هَذِهِ السُّنَنِ؛ لِتَكُونَ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ آكَدَ، وَلِئَلَّا يَقُولُوا: إِنَّمَا عَجَزْنَا عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؛ لِأَنَّهُ بِغَيْرِ لُغَتِنَا، وَبِغَيْرِ السُّنَنِ الَّتِي نَسْتَنُّهَا فَأَنْزَلَهُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- بِالحُرُوفِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا، وَبِالسُّنَنِ الَّتِي يَسْلُكُونَهَا فِي أَشْعَارِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ؛ لِيَكُونَ عَجْزُهُمْ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ أَظْهَرَ وَأَشْعَرَ»(١).

١٨- أَسْرَارُ نِظَامِ العَرَبِيَّةِ اللُّغَوِيِّ:

لَا يُرَادُ بِالنِّظَامِ -هُنَا-: الأَحْكَام الظَّاهِرَة فِي اللُّغَةِ كَالإِعْرَابِ، وَالتَّصْرِيفِ، وَالقَوَاعِدِ اللِّسَانِيَّةِ، فَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا أَسْبَابًا لِلنِّظَامِ اللُّغَوِيِّ المُرَادِ هُنَا، وَهُوَ يُشْبِهُ النِّظَامَ النَّفْسِيَّ مِنْ حَيْثُ تَعَلُّقُهُ بِالحِكْمَةِ الَّتِي تَضْبِطُ عَوَاطِفَ النَّفْسِ وَخَطَرَاتِهَا.

وَقَدْ جَعَلَ الرَّافعيُّ النِّظَامَ اللُّغَوِيَّ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ:

١- نِظَامُ الأَلْفَاظِ بِالمَعَانِي.

٢- نِظَامُ المَعَانِي بِالأَلْفَاظِ.

---

(١) «المزهر» للسيوطي (١/ ٣٤٢).

٣- النِّظَامُ المُطْلَقُ، وَهُوَ نِظَامُ القَرِينَةِ، أَوِ الحِسُّ النَّفْسِيُّ.

نِظَامُ الأَلْفَاظِ بِالمَعَانِي:

وَالمُرَادُ بِهِ: مُسَاوَقَةُ الصِّيَغِ اللَّفْظِيَّةِ لِلْمَعَانِي المَوْضُوعَةِ لَهَا، وَلِابْنِ جِنِّيٍّ فِي «الخَصَائِص» كَلَامٌ فِي هَذَا المَعْنَىٰ، وَابْنُ جِنيٍّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ نَاهَضَ هَذَا البَحْثَ إِتْقَانًا، وَتَخَلَّىٰ بِأَمْرِهِ افْتِنَانًا وَإِنَّمَا كَانَ العُلَمَاءُ قَبْلَهُ يَسْتَرْوِحُونَ إِلَىٰ أَشْيَاءَ مِنْهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَيَتَعَلَّلُونَ بِهِ، وَلِهَذَا وَضَعَ ابْنُ جِنيٍّ كِتَابَهُ «الخَصَائِص» لِبَيَانِ مَا أُودِعَتْهُ هَذِهِ اللُّغَةُ مِنْ خَصَائِصِ الحِكْمَةِ، وَنِيطَتْ بِهِ مِنْ عَلَائِمِ الإِتْقَانِ وَالصَّنْعَةِ.

وَقَالَ فِي مَعْنَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ: «إِنَّهُ غَوْرٌ مِنَ العَرَبِيَّةِ لَا يُنْتَصَفُ مِنْهُ[1]، وَلَا يَكَادُ يُحَاطُ بِهِ، وَأَكْثَرُ كَلَامِ العَرَبِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ غُفْلًا مَسْهُوًّا عَنْهُ».

وَالبَابُ الَّذِي عَقَدَهُ ابْنُ جِنِّيٍّ فِي «الخَصَائِص» لِذَلِكَ هُوَ: «بَابٌ فِي تَصَاقُبِ الأَلْفَاظِ لِتَصَاقُبِ المَعَانِي»[2].

مِمَّا حَاوَلَهُ ابْنُ جِنِّيٍّ فِي كِتَابِهِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِغَرَضِنَا سَبْعَةُ أُمُورٍ:

١- أَنَّ العَرَبَ كَانَتْ تُقَارِبُ حُرُوفَ الأَلْفَاظِ مَتَىٰ تَقَارَبَتْ مَعَانِيهَا.

قَالَ ابْنُ جِنِّيٍّ: «وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ

---

(١) لا يُنتصف منه؛ أي: لا يُدرك كلُّه، يقال: انتصف منه: استوفَىٰ منه حقَّه كاملًا.

(٢) «الخصائص» (٢/ ١٤٧).

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣].

أَيْ: تُزْعِجُهُمْ وَتُقْلِقُهُمْ، فَهَذَا فِي مَعْنَىٰ: تَهُزُّهُمْ هَزًّا.

وَالهَمْزَةُ أُخْتُ الهَاءِ، فَكَأَنَّهُمْ خَصُّوا هَذَا المَعْنَىٰ بِالهَمْزَةِ؛ لِأَنَّهَا أَقْوَىٰ مِنَ الهَاءِ، كَمَا أَنَّ المَعْنَىٰ نَفْسَهُ أَعْظَمُ فِي النُّفُوسِ مِنَ الهَزِّ؛ لِأَنَّكَ قَدْ تَهُزُّ مَا لَا حَرَاكَ لَهُ؛ كَالجِذْعِ وَنَحْوِهِ؛ أَيْ: فَيَبْقَىٰ الهَزُّ المَقْرُونُ بِالإِزْعَاجِ خَاصًّا بِذِي الحَيَاةِ؛ لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالشُّعُورِ؛ وَذَلِكَ مَا أَفَادَتْهُ الهَمْزَةُ وَحْدَهَا»[1].

٢- أَنَّ هَذِهِ المُقَارَبَةَ بَيْنَ الحُرُوفِ تَقَعُ فِيهَا المُرَاعَاةُ حَتَّىٰ فِي الحُرُوفِ البَعِيدَةِ الَّتِي لَا تَتَشَابَهُ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ، كَقَوْلِهِ: إِنَّ تَرْكِيبَ (ع ل م) فِي العَلَامَةِ وَالعَلَمِ، وَقَالُوا مَعَ ذَلِكَ: بَيْضَةٌ عَرْمَاءُ، وَقَطِيعٌ أَعْرَمُ، إِذَا كَانَ فِيهِ سَوَادٌ وَبَيَاضٌ، وَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ بَانَ أَحَدُ اللَّوْنَيْنِ مِنْ صَاحِبِهِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا (عَلَمًا) لِلْآخَرِ، وَهَذَا المَعْنَىٰ مِنْ (ع ر م)، وَلَكِنَّهُ مُقَارِبٌ لِتَرْكِيبِ (علم) كَمَا تَرَىٰ[2].

٣- أَنَّ المُقَارَبَةَ تَكُونُ بِالمُضَارَعَةِ فِي الأَصْلِ الوَاحِدِ بِالحَرْفَيْنِ، كَسَحَلَ، وَصَهَلَ (فِي مَعَانِي الصَّوْتِ)، وَالصَّادُ أُخْتُ السِّينِ، كَمَا أَنَّ الهَاءَ أُخْتُ الحَاءِ، وَنَحْوٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ: (سَحَلَ) فِي الصَّوْتِ، وَ(زَحَرَ)، وَالسِّينُ أُخْتُ الزَّايِ، كَمَا أَنَّ اللَّامَ أُخْتُ الرَّاءِ[3].

---

(١) «الخصائص» (٢/ ١٤٨).

(٢) «الخصائص» (٢/ ١٤٩).

(٣) «الخصائص» (٢/ ١٥١).

٤- أَنَّ المُقَارَبَةَ تَكُونُ بِالأُصُولِ الثُّلَاثِيَّةِ فِي الفِعْلِ (الفَاء وَالعَيْن وَاللَّام)، نَحْوَ: عَصَرَ الشَّيءَ، وَأَزَلَهُ، إِذَا حَبَسَهُ، وَالعَصْرُ ضَرْبٌ مِنَ الحَبْسِ، وَذَاكَ مِنْ (ع ص ر)، وَهَذَا مِنْ (أزل)، وَالعَيْنُ أُخْتُ الهَمْزَةِ، وَالصَّادُ أُخْتُ الزَّايِ، وَالرَّاءُ أُخْتُ اللَّامِ[1].

وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: أُخْتُ كَذَا وَكَذَا؛ أَيْ: فِي المَخَارِجِ.

٥- أَنَّ العَرَبَ يُصَوِّرُونَ اللَّفْظَ عَلَىٰ هَيْئَةِ المَعْنَىٰ: وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جِنِّيٍّ فِي «الخَصَائِص» فِي بَابٍ سَمَّاهُ: «بَابٌ فِي إِمْسَاسِ الأَلْفَاظِ أَشْبَاهَ المَعَانِي»[2].

وَقَدْ ذَكَرْتُ طَرَفًا مِنْ كَلَامِهِ فِي خَصِيصَةِ: التَّنَاسُقِ الصَّوْتِيِّ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالمَعْنَىٰ.

٦- وَمِنْ نِظَامِ الأَلْفَاظِ بِالمَعَانِي: أَنَّهُمْ يُقَابِلُونَ الأَلْفَاظَ بِمَا يُشَاكِلُ أَصْوَاتَهَا مِنَ الأَحْدَاثِ، فَيَجْعَلُونَ كَثِيرًا أَصْوَاتَ الحُرُوفِ عَلَىٰ سَمْتِ الأَحْدَاثِ المُعَبَّرِ عَنْهَا، كَقَوْلِهِمْ: خَضَمَ، وقَضَمَ.

فَالخَضْمُ لِأَكْلِ الشَّيءِ الرَّطْبِ، وَالقَضْمُ لِأَكْلِ الشَّيءِ الصُّلْبِ اليَابِسِ، فَاخْتَارُوا الخَاءَ لِأَجْلِ رَخَاوَتِهَا لِلرَّطْبِ، وَالقَافَ مِنْ أَجْلِ صَلَابَتِهَا لِلْيَابِسِ، فَحَذَوا بِمَسْمُوعِ الأَصْوَاتِ عَلَىٰ حَذْوِ مَسْمُوعِ الأَحْدَاثِ[3].

(١) «الخصائص» (٢/ ١٥٢).
(٢) «الخصائص» (٢/ ١٥٤).
(٣) «الخصائص» (٢/ ١٥٩).

وَنَقَلَ السّيُوطِيُّ فِي أَوَائِلِ «المُزهِر»[١] عَنْ غَيْرِهِ أَشْيَاءَ أُخْرَىٰ، وَكُلُّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يَضْبِطُونَ نِظَامَ الأَلْفَاظِ المُقْتَرِنَةِ المُتَقَارِبَةِ بِالمَعَانِي، فَيَجْعَلُونَ الحَرْفَ الأَضْعَفَ فِيهَا، وَالأَلْيَنَ الأَخْفَىٰ وَالأَسْهَلَ وَالأَهْمَسَ، لِمَا هُوَ أَدْنَىٰ وَأَقَلُّ وَأَخَفُّ عَمَلًا أَوْ صَوْتًا.

وَيَجْعَلُونَ الحَرْفَ الأَقْوَىٰ وَالأَشَدَّ وَالأَظْهَرَ وَالأَجْهَرَ، لِمَا هُوَ أَقْوَىٰ عَمَلًا وَأَعْظَمُ حِسًّا.

وَمِنْ أَجْمَعِ الأَمْثِلَةِ لِذَلِكَ مَا أَوْرَدَهُ الثَّعَالِبِيُّ فِي «فِقْه اللُّغَةِ»، قَالَ: «إِذَا أَخْرَجَ المَكْرُوبُ أَوِ المَرِيضُ صَوْتًا رَقِيقًا فَهُوَ الرَّنِينُ، فَإِذَا أَخْفَاهُ فَهُوَ الهَنِينُ فَإِذَا أَظْهَرَهُ فَخَرَجَ خَافِيًا فَهُوَ الحَنِينُ، فَإِنْ زَادَ فَهُوَ الأَنِينُ، فَإِنْ زَادَ فِي رَفْعِهِ فَهُوَ الخَنِينُ»[٢].

٧- أَنَّهُمْ قَدْ يُضِيفُونَ إِلَىٰ اخْتِيَارِ الحُرُوفِ تَشْبِيهَ أَصْوَاتِهَا بِالأَحْدَاثِ المُعَبَّرِ عَنْهَا، وَتَقْدِيمَ مَا يُضَاهِي أَوَّلَ الحَدَثِ (المَعْنَىٰ) وَتَأْخِيرَ مَا يُضَاهِي آخِرَهُ؛ سَوْقًا لِلْحُرُوفِ عَلَىٰ سَمْتِ المَعْنَىٰ المَقْصُودِ وَالغَرَضِ المَطْلُوبِ؛ كَقَوْلِهِمْ: شَدَّ الحَبْلَ.

فَالشِّينُ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّفَشِّي تُشَبِّهُ بِصَوْتِ أَوَّلِ انْجِذَابِ الحَبْلِ قَبْلَ اسْتِحْكَامِ العَقْدِ، ثُمَّ يَلِيهَا إِحْكَامُ الشَّدِّ وَالجَذْبِ، فَيُعَبَّرُ بِالدَّالِ الَّتِي هِيَ أَقْوَىٰ مِنَ الشِّينِ،

(١) «المزهر» (١/ ٤٨).

(٢) «فقه اللغة» (ص٢١٧).

لَاسِيَّمَا وَهِيَ مُدْغَمَةٌ فَهِيَ أَقْوَىٰ لِصِيغَتِهَا، وَأَدَلُّ عَلَىٰ المَعْنَىٰ الَّذِي أُرِيدَ بِهَا.

وَكَذَلِكَ جَرُّ الشَّيءِ، قَدَّمُوا الجِيمَ لِأَنَّهَا حَرْفٌ شَدِيدٌ، وَأَوَّلُ الجَرِّ مَشَقَّةٌ عَلَىٰ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ جَمِيعًا، ثُمَّ عَقَّبُوا ذَلِكَ بِالرَّاءِ وَهُوَ حَرْفُ تَكْرِيرٍ وَكَرَّرُوهَا مَعَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهَا.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّيءَ إِذَا جُرَّ عَلَىٰ الأَرْضِ اضْطَرَبَ فِي غَالِبِ الأَمْرِ صَاعِدًا عَنْهَا وَنَازِلًا، وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَىٰ مَا فِيهِ مِنَ التَّعْتَعَةِ وَالقَلَقِ؛ فَكَانَتِ الرَّاءُ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّكْرِيرِ، وَلِأَنَّهَا أَيْضًا قَدْ كُرِّرَتْ فِي نَفْسِهَا، أَوْفَقَ بِهَذَا المَعْنَىٰ مِنْ جَمِيعِ الحُرُوفِ[1].

نِظَامُ المَعَانِي بِالأَلْفَاظِ:

قَالَ الرَّافِعِيُّ: «وَالأَلْفَاظُ فِي هَذَا النَّوْعِ هِيَ الَّتِي تَسُوسُ المَعَانِي، وَتُنْزِلُهَا فِي مَنَازِلِهَا، وَتَضَعُهَا عَلَىٰ أَقْدَارِهَا، لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّ اللَّفْظَ هُوَ الَّذِي يُوجِدُ المَعْنَىٰ، فَذَلِكَ ظَاهِرُ الاسْتِحَالَةِ، وَلَكِنْ عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُخصِّصُ المَعْنَىٰ إِذَا كَانَ جِنْسًا.

وَهُوَ الَّذِي يُؤَكِّدُ مُبَالَغَةً فِي تَلْوِينِ صُورَتِهِ النَّفْسِيَّةِ حَتَّىٰ تَنْطِقَ أَجْزَاؤُهُ، وَحَتَّىٰ يَقُومَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي البَيَانِ اللُّغَوِيِّ مَقَامَ الكُلِّ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ الشُّعُورِ الطَّبِيعِيِّ»[2].

---

(١) «الخصائص» (٢/ ١٦٥)، و«تاريخ آداب العرب» للرافعي (١/ ٢٢٦).

(٢) «تاريخ آداب العرب» (١/ ٢٢٧).

وَقَالَ: «وَالعَرَبِيَّةُ تُعْتَبَرُ أَحْكَمَ اللُّغَاتِ نِظَامًا فِي أَوْضَاعِ المَعَانِي، وَسِيَاسَتِهَا بِالأَلْفَاظِ، وَهِيَ مِنْ هَذَا القَبِيلِ أَعْظَمُهَا ثَرْوَةً، وَأَبْلَغُهَا مِنْ حَقِيقَةِ التَّمَدُّنِ بِحَيْثُ لَا تُدَانِيهَا فِي ذَلِكَ لُغَةٌ أُخْرَىٰ كَائِنَةً مَا كَانَتْ.

فَالعَرَبُ لَمْ يَدَعُوا مَعْنًىٰ مِنَ المَعَانِي الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ أَوِ البَدَنِيَّةِ مِمَّا تَهَيَّأَ لَهُمْ إِلَّا رَتَّبُوا أَجْزَاءَهُ، وَأَبَانُوا عَنْ صِفَاتِهِ بِأَلْفَاظٍ مُتَبَايِنَةٍ، تُعَيِّنُ تِلْكَ الأَجْزَاءَ وَالصِّفَاتِ عَلَىٰ مَقَادِيرِهَا؛ فَأَوَّلُ مَعَانِي الحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ: الحُبُّ، وَهَذِهِ مَرَاتِبُهُ عِنْدَهُم: الهَوَىٰ، ثُمَّ العَلَاقَةُ؛ وَهِيَ الحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ.

ثُمَّ الكَلَفُ؛ وَهُوَ شِدَّةُ الحُبِّ، ثُمَّ العِشْقُ؛ وَهُوَ اسْمٌ لِمَا فَضَلَ عَنِ المِقْدَارِ الَّذِي اسْمُهُ الحُبُّ، ثُمَّ الشَّغَفُ؛ وَهُوَ إِحْرَاقُ الحُبِّ لِلْقَلْبِ مَعَ لَذَّةٍ يَجِدُهَا، وَكَذَلِكَ اللَّوْعَةُ، وَاللَّاعِجُ؛ فَإِنَّ تِلْكَ حُرْقَةُ الهَوَىٰ وَهَذَا هُوَ الهَوَىٰ المُحْرِقُ، ثُمَّ الشَّغَفُ؛ وَهُوَ أَنْ يَبْلُغَ الحُبُّ شِغَافَ القَلْبِ وَهِيَ جِلْدَةٌ دُونَهُ،ثُمَّ الجوىٰ؛ وَهُوَ الهَوَىٰ البَاطِنُ، ثُمَّ التَّتَيُّمُ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ الحُبُّ، ثُمَّ التَّبَالَةُ؛ وَهُوَ أَنْ يُسْقِمَهُ الهَوَىٰ، ثُمَّ التَّدْلِيهُ، وَهُوَ ذَهَابُ العَقْلِ مِنَ الهَوَىٰ، ثُمَّ الهُيَامُ؛ وَهُوَ أَنْ يَذْهَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَا يَسْتَقِرُّ، وَذَلِكَ لِغَلَبَةِ الهَوَىٰ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ: رَجُلٌ هَائِمٌ[(١)].

وَكَذَا فَعَلُوا فِي مَعَانِي السُّرُورِ، وَالعَدَاوَةِ، وَالغَضَبِ، وَالحُزْنِ، وَالسُّرْعَةِ وَغَيْرِهَا.

(١) ذكر ابن القيم أسماءَ المحبةِ وفصَّلها وبيَّن اشتقاقَهَا في كتابه «روضَة المُحبِّين» (ص٢٩ وما بعدها).

وَمِنْ مَعَانِي الحَيَاةِ البَدَنِيَّةِ: أُصُولُ المَعَاشِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي هِيَ قِوَامُ أَمْرِهِمْ: كَاللَّبَنِ، فَإِنَّ لَهُ نَحْوَ سَبْعِينَ اسْمًا بِاعْتِبَارِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ، وَقَدْ ذَكَرَهَا كُلَّهَا السّيُوطِيُّ فِي «المُزهِر».

وَكَذَلِكَ الخَيْلُ وَالإِبِلُ وَالشَّاءُ، ثُمَّ صِفَاتُهَا وَتَسْمِيَةُ أَجْزَائِهَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا نَكْتَفِي لِشُهْرَتِهِ بِالإِشَارَةِ إِلَيْهِ.

وَعَلَىٰ أَكْثَرِ هَذَا النَّوعِ مِنْ نِظَامِ المَعَانِي بِالأَلْفَاظِ بَنَىٰ الثَّعَالِبِيُّ كِتَابَهُ: «فِقْه اللُّغَةِ»، وَهُوَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُنَبَّهَ عَلَيْهِ، وَالحَقِيقَةُ تَنْهَضُ بِهَا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ[1].

نِظَامُ القَرِينَةِ:

وَهُوَ فِي ظَاهِرِهِ نَوْعٌ مِنَ الفَوْضَىٰ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْتَمِدُونَ فِي ضَرْبٍ مِنْ كَلَامِهِمْ عَلَىٰ اللَّمْحَةِ الدَّالَّةِ وَالإِشَارَةِ الَّتِي تَقَعُ مَوْقِعَ الوَحْيِ، وَعَلَىٰ أَضْعَفِ أَثَرٍ يُشِيرُ إِلَىٰ وَجْهِ الكَلَامِ وَمَذْهَبِهِ، وَيَهْدِي إِلَىٰ طَرِيقِ المَعْنَىٰ فِيهِ، ثُمَّ يُطْلِقُونَ الكَلَامَ إِطْلَاقًا غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِنِظَامٍ، وَلَا مُتَّبعٍ لِطَرِيقٍ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الكَلَامِ، وَذَلِكَ نَظْمٌ يَنْفَرِدُونَ بِهِ، وَلَا تَجِدُ القَلِيلَ مِنْهُ فِي لُغَةِ غَيْرِهِمْ.

وَقَدْ سَمَّاهُ عُلَمَاؤُنَا: «سُنَنَ العَرَبِ»، وَعَقَدَ الثَّعَالِبِيُّ عَلَىٰ أَمْثِلَةٍ مِنْهُ القِسْمَ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ «فِقْه اللُّغَةِ»، وَسَمَّاهُ «سِرَّ العَرَبِيَّةِ».

وَهَذَا النَّوعُ لَمْ يَكُنْ فِي اللُّغَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنِ انْصَرَفَ العَرَبُ إِلَىٰ صَنْعَةِ

(١) «تاريخ آداب العرب» للرافعي (١/ ٢٢٧).

الكَلَامِ، وَهَذَّبُوا حَوَاشِيَهِ، وَبَلَغُوا الغَايَةَ فِي تَنْمِيقِ الشِّعْرِ وَإِجَادَتِهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ الإِسْلَامِ بِمَا لَا يَتَجَاوَزُ مِئَةَ سَنَةٍ عَلَىٰ الأَكْثَرِ؛ لِأَنَّ التَّفَنُّنَ فِي العِبَارَاتِ لَا يَأْتِي إِلَّا مِنْ كَمَالِ صَنْعَةِ الأَلْفَاظِ، وَلِأَنَّ مَا عُرِفَ لِلْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلٌ فِي جَنْبِ مَا أَتَىٰ بِهِ القُرْآنُ الكَرِيمُ.

وَهَذَا مَعْنًىٰ مِنْ مَعَانِي إِعْجَازِهِ، إِذْ جَعَلَ مِنْ عِبَارَتِهِ أَزِمَّةً لِعُقُولِهِمْ، فَكَانَ يَلْفِتُهَا فَجْأَةً عَنِ المَعْنَىٰ الظَّاهِرِ، ثُمَّ يَبْغَتُهَا بِرُوحِ الكَلَامِ، فَتَكُونُ لَهُ بَيْنَهُمَا هِزَّةٌ مِنَ الوَعْيِ الَّذِي يَنْشَأُ عَنْ إِدْرَاكِ العَقْلِ لِمَا لَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ مَعَ رَغْبَتِهِ فِيهِ[1].

وَقَدْ ذَكَرْتُ طَرَفًا مِنْ نِظَامِ القَرِينَةِ، فِيمَا ذَكَرْتُهُ تَحْتَ عُنْوَانِ: «مِنْ خَصَائِصِ العَرَبِيَّةِ».

وَبَعْدُ: فَهَذَا طَرَفٌ مِنْ خَصَائِصِ العَرَبِيَّةِ، وَوَرَاءَهُ مَا يَجِدُهُ المُتَتَبِّعُ عَلَىٰ طَرَفِ البَنَانِ، وَذَلِكَ «لِأَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ جَاءَتْ إِلَيْنَا مُعَبِّرَةً عَنْ تَارِيخٍ بَعِيدٍ، وَتُرَاثٍ عَرِيقٍ، نَاطِقَةً بِأَلْسِنَتِنَا، كَمَا كَانَتْ تُنْطَقُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ أَجْدَادِنَا، دُونَ أَنْ تُسْتَغْرَبَ، أَوْ تُسْتَعْجَمَ، فَأَصْوَاتُهَا، وَصِيَغُهَا، وَتَرَاكِيبُهَا، هِيَ هِيَ كَمَا كَانَتْ، لَمْ يُصِبْهَا كَثِيرٌ مِنَ التَّغْيِيرِ رَغْمَ تَطَاوُلِ القُرُونِ، وَتَتَابُعِ الأَجْيَالِ، وَهُوَ أَمْرٌ نَادِرُ الحُدُوثِ فِي عَالَمِ اللُّغَاتِ، لَمْ يُسَجِّلْهُ التَّارِيخُ إِلَّا لِلْعَرَبِيَّةِ، الَّتِي نَقْرَأُ نُصُوصَهَا، فَلَا نُحِسُّ بِقِدَمِهَا، بَلْ إِنَّنَا نَأْنَسُ بِهَا وَنَلْتَذُّ تَكْرَارَهَا وَتَمَثُّلَهَا، وَاسْتِخْدَامَهَا فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ.

عَلَىٰ حِينَ أَنَّ نُصُوصَ اللُّغَاتِ الأُخْرَىٰ تَسْتَغْلِقُ عَلَىٰ الفَهْمِ إِذَا مَضَىٰ

(١) «تاريخ آداب العرب» (١/ ٢٢٩).

عَلَيْهَا قَرْنَانِ، بَلْ قَرْنٌ وَاحِدٌ، فَتُصْبِحُ مِنْ مُخَلَّفَاتِ التَّارِيخِ، وَتُوضَعُ لِتَفْسِيرِهَا المَعَاجِمُ الكِلَاسِيكِيَّةُ، فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ بِنْتَ ثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ قُرُونٍ، فَإِنَّهَا تُعَدُّ مِنْ مُقْتَنَيَاتِ المَتَاحِفِ.

لَمْ تَعْرِفْ لُغَتُنَا العَرَبِيَّةُ هَذِهِ الغُرْبَةَ الَّتِي عَرَفَتْهَا اللُّغَاتُ الأُخْرَىٰ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ تَكَفَّلَ بِحِفْظِهَا وَصِيَانَتِهَا حِينَ وَعَدَ بِحِفْظِ كِتَابِهِ الكَرِيمِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

فَكَانَ حِفْظُ اللهِ لِكِتَابِهِ حِفْظًا لِلْعَرَبِيَّةِ، بِمَا أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ خَصَائِصِ المُرُونَةِ وَالخُصُوبَةِ وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ التَّجَدُّدِ.

وَلَمْ تَعْرِفِ الإِنْسَانِيَّةُ عَلَىٰ طُولِ تَارِيخِهَا لُغَةً خَلَّدَهَا كِتَابٌ، إِلَّا اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، وَتِلْكَ مُعْجِزَةُ القُرْآنِ، أَوْ إِعْجَازُهُ، إِذَا أَخَذْنَا الإِعْجَازَ بِمَفْهُومٍ عَامٍّ يَلْزَمُ البَشَرَ جَمِيعًا وَيُخَاطِبُهُمْ، ذَلِكَ أَنَّ المَأْلُوفَ وَالمَعْهُودَ فِي تَارِيخِ الإِنْسَانِ أَنَّ اللُّغَاتِ تَبْقَىٰ بِقَدْرِ مَا يَتَعَاظَمُ رَصِيدُهَا أَوْ مَذْخُورُهَا مِنَ الآثَارِ الأَدَبِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ الَّتِي أَلَّفَهَا النَّابِغُونَ مِنْ أَبْنَائِهَا، رَغْمَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَحُولُ دُونَ تَغَيُّرِ أَصْوَاتِهَا، وَمَبَانِيهَا، حَتَّىٰ تُصْبِحَ خَلْقًا آخَرَ.

وَتَبْقَىٰ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مِثَالًا فَرِيدًا عَلَىٰ تَخَلُّفِ هَذِهِ القَاعِدَةِ؛ فَقَدْ بَدَأَتْ بِكِتَابِ اللهِ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً فِي حَيَاتِهَا الخَالِدَةِ، وَكَأَنَّمَا تَعَاطَتْ مِنْ آيَاتِهِ سِرَّ البَقَاءِ، وَإِكْسِيرَ الحَيَاةِ، وَاسْتَمَدَّتْ مِنْ كَلِمَاتِهِ شَجَاعَةَ المُوَاجَهَةِ، وَرُوحَ الثَّبَاتِ.

فَكَانَ القُرْآنُ الكَرِيمُ السَّبَبَ الَّذِي جَعَلَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَىٰ لُغَةَ كُلِّ العُصُورِ.

وَكُلُّ مَا جَاءَنَا مِنْ تُرَاثِ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَىٰ القُرْآنِ، الَّذِي فَجَّرَ عُلُومَهَا، وَأَطْلَقَ أَلْسِنَةَ أَبْنَائِهَا، فَبَقِيَتِ العَرَبِيَّةُ كَمَا كَانَتْ، رَاسِخَةَ القَدَمِ مَبْنًىٰ وَمَعْنًىٰ، قَادِرَةً عَلَىٰ مُوَاكَبَةِ الحَضَارَةِ، تَأْخُذُ مِنْ غَيْرِهَا مَا يَلْزَمُهَا، وَتُعْطِي لِغَيْرِهَا مَا يَلْزَمُهُ[1].

وَخُلُودُ العَرَبِيَّةِ يَعْنِي أَنَّهَا لُغَةٌ تَتَمَتَّعُ بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الثَّبَاتِ، نَتِيجَةَ ارْتِبَاطِ عَمَلِيَّةِ نَقْلِ اللُّغَاتِ بِالمُشَافَهَةِ وَالسَّمَاعِ؛ إِذْ يَعْمَلُ كُلُّ جِيلٍ عَلَىٰ أَنْ يُؤَدِّيَ اللُّغَةَ أَدَاءً دَقِيقًا، يُمَاثِلُ أَدَاءَ الجِيلِ السَّابِقِ عَلَيْهِ، أَوْ يُقَارِبُهُ.

وَقَدْ أَسَّسَتْ تِلَاوَةُ القُرْآنِ قَاعِدَةً أَدَائِيَّةً فِي الجَانِبِ الصَّوْتِيِّ، وَهُوَ أَكْثَرُ جَوَانِبِ اللُّغَةِ تَعَرُّضًا لِلتَّغْيِيرِ وَالانْحِرَافِ وَالتَّشْوِيهِ، وَظَلَّ الأُسْلُوبُ القُرْآنِيُّ دُسْتُورًا لِلْأَسَالِيبِ العَرَبِيَّةِ عَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ.

❀ ❀ ❀

(١) «اللغة العربية لغة العلوم والتقنية» (ص٤٣).

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ لُغَةٌ مُيَسَّرَةٌ

مُنْذُ صَدَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَمْرِ رَبِّهِ، فَقَامَ مُبَلِّغًا رِسَالَتَهُ، وَالصِّرَاعُ بَيْنَ الإِسْلَامِ، وَالمِلَلِ الكَافِرَةِ، وَالنِّحَلِ الفَاسِدَةِ، مُسْتَعِرٌ، لَا تَنْطَفِئُ لَهُ جَذْوَةٌ، مُحْتَدِمٌ، لَا تَهْدَأُ لَهُ ثَوْرَةٌ.

وَلَقَدْ كَانَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مِنْ أَهَمِّ مَيَادِينِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَخُصُومِهِ؛ لِأَنَّهَا لُغَةُ القُرْآنِ العَظِيمِ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ الكَرِيمِ ﷺ.

قَالَ الأُسْتَاذُ مَحْمُود شَاكِر عَنْ هَذِهِ المَعْرَكَةِ: «أَكْبَرُ مَعْرَكَةٍ تَدُورُ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ وَالإِسْلَامِيِّ، وَهِيَ مَعْرَكَةُ البِنَاءِ أَوِ الهَدْمِ، مَعْرَكَةُ الحَيَاةِ أَوِ المَوْتِ، مَعْرَكَةُ الحُرِّيَّةِ أَوِ الاسْتِعْبَادِ، مَعْرَكَةُ وَحْدَةِ العَرَبِ وَالمُسْلِمِينَ بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الفُصْحَىٰ، أَوْ تَفَرُّقِ العَرَبِ وَالمُسْلِمِينَ أَشْتَاتًا بِلُغَاتٍ مُتَنَابِذَةٍ هِيَ العَامِّيَّةِ...

مَعْرَكَةٌ قَاسِيَةٌ خَبِيثَةٌ، إِذَا وَقَانَا اللهُ شَرَّهَا بِاليَقَظَةِ فَقَدْ نَجَوْنَا مِنَ المِحْنَةِ السَّاحِقَةِ، وَإِذَا أَسَأْنَا فَابْتُلِينَا بِتَمَامِ الغَفْلَةِ، فَذَلِكَ ذُلُّ الأَبَدِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ وَحْدَهُ»[1].

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٥٤).

وَذَلِكَ لِأَنَّ «الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اتِّخَاذِ العَامِّيَّةِ أَدَاةً لِلتَّعْبِيرِ الأَدَبِيِّ، وَإِحْلَالِهَا مَحَلَّ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ مِنْ أَخْطَرِ الدَّعْوَاتِ الَّتِي تَعَرَّض فِيهَا التَّعْبِيرُ الأَدَبِيُّ لِأَعْنَفِ أَزْمَةٍ عَرَفَهَا خِلَالَ تَارِيخِهِ الطَّوِيلِ، وَتَعَرَّضَتْ فِيهَا الأُمَمُ العَرَبِيَّةُ لِأَعْنَفِ انْقِلَابٍ ثِقَافِيٍّ بَعْدَ الإِسْلَامِ»[1].

«وَالعَامِّيَّةُ ظَاهِرَةٌ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ، وَهِيَ لَازَمَتِ العَرَبِيَّةَ مُنْذُ أَقْدَمِ عُصُورِهَا دُونَ أَنْ تُزَحْزِحَهَا عَنْ مَيْدَانِهَا الأَدَبِيِّ، وَكَانَ اهْتِمَامُ العُلَمَاءِ القُدَامَىٰ بِدِرَاسَتِهَا جُزْءًا مِنَ اهْتِمَامِهِمْ بِالفُصْحَىٰ.

لَكِنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ -أَيْ: وُجُودَ الفُصْحَىٰ وَالعَامِّيَّةِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ- اعْتُبِرَتْ فِي عَصْرِنَا مُشْكِلَةً أُرْجِعَ إِلَيْهَا أَسْبَابُ تَأَخُّرِ أَبْنَاءِ العَرَبِيَّةِ، وَاقْتُرِحَ لِحَلِّهَا اتِّخَاذُ العَامِّيَّةِ لُغَةً لِلأَدَبِ وَالكِتَابَةِ، حَتَّىٰ تَكُونَ لَنَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْحَدِيثِ وَالكِتَابَةِ.

قَدْ تَبْدُو هَذِهِ الدَّعْوَةُ غَرِيبَةً فِي هَذَا العَصْرِ الَّذِي نَعْتَبِرُهُ عَصْرَ إِحْيَاءٍ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَالَّذِي تُرَىٰ فِيهِ الشَّخْصِيَّةُ العَرَبِيَّةُ تَزْدَادُ تَمَاسُكًا وَتَرَابُطًا.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الغَرَابَةَ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَزُولَ عِنْدَمَا نَعْرِفُ أَنَّ مَصْدَرَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ أَجْنَبِيٌّ، كَمَا اتَّضَحَ مِنْ دِرَاسَةِ الكُتُبِ الأَجْنَبِيَّةِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ دِرَاسَةَ اللَّهْجَةِ المِصْرِيَّةِ، وَخَاصَّةً مَا كَانَ مِنْهَا فِي أَوَائِلِ عَهْدِ الاحْتِلَالِ البِرِيطَانِيِّ فِي مِصْرَ»[2].

---

(١) «تاريخ الدعوة إلىٰ العامية وآثارها في مصر» (ص٣).

(٢) «تاريخ الدعوة إلىٰ العامية» (ص١٩).

«وَوُجُودُ العَامِّيَّةِ بِجَانِبِ الفُصْحَىٰ عَلَىٰ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ اخْتِلَافٍ، ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ فَلَيْسَ وُجُودُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ إِذَنْ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِالأَمْرِ الشَّاذِّ، وَنَحْنُ لَوْ تَتَبَّعْنَا تَارِيخَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لَوَجَدْنَا أَنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ تُلَازِمُهَا مُنْذُ أَقْدَمِ عُصُورِهَا.

فَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الَّتِي انْقَسَمَ المُتَكَلِّمُونَ بِهَا مُنْذُ أَقْدَمِ عُصُورِهِمْ إِلَىٰ قَبَائِلَ مُتَعَدِّدَةٍ، اخْتَصَّتْ كُلٌّ مِنْهَا بِلَهْجَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ عَنِ الأُخْرَىٰ فِي بَعْضِ مَظَاهِرِهَا، كَانَتْ لَهُمْ لُغَةٌ أَدَبِيَّةٌ مُوَحَّدَةٌ، ذَلِكَ أَنَّ لَهْجَةً مِنْ لَهْجَاتِهِمْ، وَهِيَ اللَّهْجَةُ القُرَشِيَّةُ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَغَلَّبَ عَلَىٰ لَهَجَاتِ القَبَائِلِ المُتَعَدِّدَةِ بِفَضْلِ مَا كَانَ لِأَهْلِهَا مِنْ سُلْطَانٍ دِينِيٍّ وَاقْتِصَادِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ، وَبِفَضْلِ مَا كَانَ لَهَا مِنْ تَفَوُّقٍ عَلَىٰ سَائِرِ اللَّهْجَاتِ العَرَبِيَّةِ مِنْ حَيْثُ غَزَارَةُ المَادَّةِ، وَرِقَّةُ الأُسْلُوبِ، وَالقُدْرَةُ عَلَىٰ التَّعْبِيرِ فِي مُخْتَلَفِ فُنُونِ القَوْلِ.

وَقَدْ تَرَتَّبَ عَلَىٰ تَغَلُّبِهَا عَلَىٰ بَقِيَّةِ اللَّهْجَاتِ العَرَبِيَّةِ أَنْ أَصْبَحَتْ لُغَةَ الأَدَبِ عِنْدَ جَمِيعِ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ، وَأَصْبَحَ العَرَبِيُّ أَيًّا كَانَتْ قَبِيلَتُهُ يَنْظِمُ شِعْرَهُ وَيَخْطُبُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، وَقَدْ تَمَّتْ لَهَا هَذِهِ السِّيَادَةُ الأَدَبِيَّةُ قَبْلَ نُزُولِ القُرْآنِ.

فَلَمَّا نَزَلَ القُرْآنُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ عَزَّزَ سِيَادَتَهَا، وَثَبَّتَ دَعَائِمَهَا، وَقَوَّىٰ سُلْطَانَهَا؛ فَبِفَضْلِهِ ازْدَادَتْ ضَبْطًا وَإِحْكَامًا، وَغَزُرَتْ مَادَّتُهَا، وَاتَّسَعَتْ أَغْرَاضُهَا، وَارْتَقَتْ مَعَانِيهَا وَأَخْيِلَتُهَا وَأَسَالِيبُهَا، وَبِفَضْلِهِ ظَلَّتْ لُغَةَ الأَدَبِ وَالكِتَابَةِ حَتَّىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَصَارَ القُرْآنُ هُوَ الحَافِظَ لَهَا مِنَ الضَّيَاعِ، وَهِيَ مُعْجِزَةٌ لَمْ تَتَّفِقْ لِغَيْرِهَا

مِنَ اللُّغَاتِ، وَسَتَظَلُّ بَاقِيَةً عَلَىٰ سِيَادَتِهَا مَا بَقِيَ الْقُرْآنُ، وَالْقُرْآنُ مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

هَذِهِ اللُّغَةُ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا فِي عُنْفُوَانِ اكْتِمَالِهَا وَعَظَمَتِهَا، فِي أَقْدَمِ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ آثَارِهَا، وَهُوَ الأَدَبُ الجَاهِلِيُّ، لَمْ تَكُنْ هِيَ اللُّغَة الَّتِي يَتَحَدَّثُ بِهَا النَّاسُ، كَمَا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بَعِيدَةً عَنْهَا بُعْدَ عَامِّيَّتِنَا عَنْ فُصْحَانَا.

فَلَمَّا انْتَشَرَ الإِسْلَامُ وَامْتَدَّتْ فُتُوحَاتُهُ، ازْدَادَ اخْتِلَافُ لَهْجَاتِ المُحَادَثَةِ بِسَبَبِ اخْتِلَاطِ العَرَبِ بِالأَعَاجِمِ، وَانْتِقَالِ العَرَبِيَّةِ إِلَىٰ الأَمْصَارِ، وَاخْتِلَافِ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ النَّازِلَةِ بِتِلْكَ الأَمْصَارِ، وَاخْتِلَافِ الشُّعُوبِ الأَعْجَمِيَّةِ المُجَاوِرَةِ لَهَا، **وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَظَاهِرِ ابْتِعَادِهَا عَنِ الفُصْحَىٰ اللَّحْنُ، وَهُوَ أَوَّلُ أَدْوَاءِ العَامِّيَّةِ**»[1].

فَالازْدِوَاجِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ، وَهِيَ اسْتِخْدَامُ الفُصْحَىٰ فِي الأَدَبِ وَالثَّقَافَةِ وَالعُلُومِ وَاسْتِخْدَامُ العَامِّيَّةِ فِي الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ: ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ، وَلَيْسَ وُجُودُهَا فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِالأَمْرِ الشَّاذِّ.

«وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ نَكَدْ نُشْرِفُ عَلَىٰ نِهَايَةِ القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ حَتَّىٰ أَخَذَ الأُورُبِّيُّونَ يُطَالِعُونَنَا بِدِرَاسَاتِهِمْ فِي العَامِّيَّةِ المِصْرِيَّةِ، وَأَخَذَتْ كُتُبُهُمْ وَرَسَائِلُهُمْ تَتَتَابَعُ فِي الظُّهُورِ.

وَكَانَ مُعْظَمُ الدَّارِسِينَ: مِنَ الأُورُبِّيِّينَ الَّذِينَ عَاشُوا فِي مِصْرَ، وَتَوَلَّوا فِيهَا مَنَاصِبَ عَالِيَةً، خَاصَّةً إِبَّانَ الاحْتِلَالِ البِرِيطَانِيِّ فِي مِصْرَ.

---

(١) «تاريخ الدعوة إلىٰ العامية» (ص١٥).

مِنْهُمْ (ولهلم سبيتا) الأَلْمَانِيُّ الجِنْسِيَّةِ، الَّذِي كَانَ مُدِيرًا لِدَارِ الكُتُبِ المِصْرِيَّةِ!!

وَمِنْهُمْ: (كارل فولرس)، الأَلْمَانِيُّ الجِنْسِيَّةِ، وَكَانَ مُدِيرًا أَيْضًا لِدَارِ الكُتُبِ المِصْرِيَّةِ!! كَمَا أَنَّهُ أَحَدُ كُتَّابِ دَائِرَةِ المَعَارِفِ الإِسْلَامِيَّةِ (مَادَّة الأَزْهَرِ)!!

وَمِنْهُمْ: (سلدن ولمور)، الأَلْمَانِيُّ الجِنْسِ، وَكَانَ قَاضِيًا بِالمَحَاكِمِ الأَهْلِيَّةِ بِالقَاهِرَةِ!!

وَمِنْهُمْ: (باول)، الإِنْجِلِيزِيُّ الجِنْسِ، وَكَانَ قَاضِيًا بِالمَحَاكِمِ الأَهْلِيَّةِ بِالقَاهِرَةِ!!

وَمِنْهُمْ: (وليم ولكوكس)، الإِنْجِلِيزِيُّ الجِنْسِ، وَكَانَ مُهَنْدِسًا لِلرَّيِّ بِالقَاهِرَةِ!!

وَيُعْتَبَرُ (ولهلم سبيتا) الرَّائِدَ الأَوَّلَ لِكُلِّ مَنْ كَتَبَ فِي العَامِّيَّةِ المِصْرِيَّةِ، فَفِي سَنَةِ ١٨٨٠، وَضَعَ كِتَابًا عَنْ «قَوَاعِد العَرَبِيَّةِ العَامِّيَّةِ فِي مِصْرَ»، وَمِنْ هَذَا الكِتَابِ انْبَثَقَتِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ اتِّخَاذِ العَامِّيَّةِ لُغَةً أَدَبِيَّةً، وَمِنْ هَذَا الكِتَابِ انْبَعَثَتِ الشَّكْوَىٰ مِنْ صُعُوبَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ.

وَفِي هَذَا الكِتَابِ أَيْضًا وُضِعَ أَوَّلُ اقْتِرَاحٍ لِاتِّخَاذِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ لِكِتَابَةِ العَامِّيَّةِ بِتِلْكَ الحُرُوفِ، الَّتِي نُودِيَ بِاسْتِخْدَامِهَا فِيمَا بَعْدُ... لِكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ»[1].

---

(١) «تاريخ الدعوة إلىٰ العامية» (ص٣١).

لَقَدْ بَدَأَ (سبيتا) بِالتَّرْكِيزِ عَلَىٰ الازْدِوَاجِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَقَارَنَ بَيْنَ الفُصْحَىٰ وَاللَّاتِينِيَّةِ، وَاتَّخَذَ مِنْ هَجْرِ اللَّاتِينِيَّةِ وَاسْتِخْدَام لَهْجَاتِهَا المَحَلِّيَّةِ: الإِيطَالِيَّةِ، وَالفَرَنْسِيَّةِ، وَالإِسْبَانِيَّةِ، وَغَيْرِهَا، لُغَاتٍ قَوْمِيَّةً لِتِلْكَ البِلَادِ؛ اتَّخَذَ ذَلِكَ نَمُوذَجًا طَالَبَ أَهْلَ مِصْرَ بِالاقْتِدَاءِ بِهِ؛ أَيْ: بِهَجْرِ الفُصْحَىٰ، وَاتِّخَاذِ العَامِّيَّةِ المِصْرِيَّةِ لُغَةً لِلْأَدَبِ وَالثَّقَافَةِ.

وَجَاءَ بَعْدَهُ (ولكوكس) لِيَدَّعِيَ أَنَّ سَبَبَ تَخَلُّفِ أَهْلِ مِصْرَ هُوَ حَدِيثُهُمْ بِلُغَةٍ، وَقِرَاءَتُهُمْ وَكِتَابَتُهُمْ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ، وَادَّعَىٰ أَنَّ اتِّخَاذَ العَامِّيَّةِ لُغَةً لِلْعُلُومِ وَالآدَابِ سَيَقُودُ المِصْرِيِّينَ إِلَىٰ التَّقَدُّمِ وَالرُّقِيِّ.

وَسَارَ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمَا عَلَىٰ دَرْبِهِمَا، حَتَّىٰ إِنَّ أَنِيس فريحة -مَثَلًا- يَرَىٰ أَنَّ مُشْكِلَتَنَا اللُّغَوِيَّةَ فِي «وُجُودِ لُغَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ»: عَامِّيَّةٍ وَفُصْحَىٰ، فَاعْتَبَرَهُمَا لُغَتَيْنِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ العَامِّيَّةَ مُسْتَوًىٰ مُتَدَنٍّ مِنَ العَرَبِيَّةِ، وَالفُصْحَىٰ مُسْتَوًىٰ رَاقٍ مِنْهَا.

إِنَّ الهُجُومَ عَلَىٰ الفُصْحَىٰ فِي حَقِيقَتِهِ: هُجُومٌ عَلَىٰ الإِسْلَامِ وَالأُمَّةِ العَرَبِيَّةِ، وَقَدْ تَنَبَّهَ أَبْنَاءُ العَرَبِيَّةِ وَالحَرِيصُونَ عَلَىٰ لُغَتِهِمْ وَدِينِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ إِلَىٰ شُرُورِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ المَاكِرَةِ الخَبِيثَةِ، فَتَصَدَّوا لَهَا بِالنِّقَاشِ وَبَيَانِ خَطَرِهَا، وَتَفْنِيدِ حُجَجِ المُنَادِينَ بِهَا، وَإِبْرَازِ قُصُودِهِمُ الحَقِيقِيَّةِ.

وَالهُبُوطُ بِلُغَةِ الكِتَابَةِ إِلَىٰ لُغَةِ الحَدِيثِ، وَاسْتِخْدَامُ العَامِّيَّةِ فِي الشُّئُونِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِيهَا الفُصْحَىٰ حَلٌّ سَاذَجٌ لِظَاهِرَةِ الازْدِوَاجِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَهُوَ لَا يَقُومُ فِي

الوَاقِعِ إِلَّا عَلَىٰ مُجَرَّدِ الرَّغْبَةِ الآثِمَةِ فِي القَضَاءِ عَلَىٰ أَهَمِّ دِعَامَةٍ مِنْ دَعَائِمِ الدِّينِ فِي الأُمَمِ العَرَبِيَّةِ والإسلَامِيَّةِ.

وَاللُّغَةُ العَامِّيَّةُ الَّتِي يَرَىٰ القَائِلُونَ بِإِحْلَالِهَا مَحَلَّ الفُصْحَىٰ لُغَةٌ فَقِيرَةٌ كُلَّ الفَقْرِ فِي مُفْرَدَاتِهَا، وَلَا يَشْتَمِلُ مَتْنُهَا عَلَىٰ أَكْثَرَ مِنَ الكَلِمَاتِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْحَدِيثِ العَادِيِّ.

وَهِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ مُضْطَرِبَةٌ أَشَدَّ الاضْطِرَابِ فِي قَوَاعِدِهَا، وَأَسَالِيبِهَا، وَمَعَانِي أَلْفَاظِهَا، وَتَحْدِيدِ وَظَائِفِ الكَلِمَاتِ فِي جُمَلِهَا، وَرَبْطِ الأَلْفَاظِ وَالجُمَلِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ.

وَأَدَاةٌ هَذَا شَأْنُهَا لَا تَقْوَىٰ مُطْلَقًا عَلَىٰ التَّعْبِيرِ عَنِ المَعَانِي الدَّقِيقَةِ، وَلَا عَنْ حَقَائِقِ العُلُومِ وَالآدَابِ وَالإِنْتَاجِ الفِكْرِيِّ المُنَظَّمِ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَنَّنَا فِي حَدِيثِنَا العَادِيِّ نَفْسِهِ كَثِيرًا مَا نُضْطَرُّ إِلَىٰ اسْتِخْدَامِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ، عِنْدَمَا نَكُونُ بِصَدَدِ التَّعْبِيرِ عَنْ حَقَائِقَ مُنَظَّمَةٍ وَأَفْكَارٍ مُسَلْسَلَةٍ: لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ تَبَاهِيًا وَلَا تَفَاصُحًا؛ وَإِنَّمَا نَفْعَلُهُ مُضْطَرِّينَ اضْطِرَارًا؛ لِأَنَّنَا نَرَىٰ أَنَّ العَامِّيَّةَ لَا تُسْعِفُنَا فِي مُفْرَدَاتِهَا وَلَا فِي قَوَاعِدِهَا بِمَا يَضْبِطُ تَفْكِيرَنَا، وَيَنْقُلُهُ نَقْلًا صَحِيحًا إِلَىٰ الأَذْهَانِ.

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا العَامِّيَّةُ نَسْتَخْدِمُهَا فِي شُئُونِ تَفْكِيرِنَا وَتَعْبِيرِنَا، تَقَطَّعَتْ بِنَا أَسْبَابُ التَّفْكِيرِ الصَّحِيحِ، وَالإِبَانَةِ الوَاضِحَةِ، وَالصِّلَةُ بِمَاضِينَا وَعُلُومِ سَلَفِنَا، وَنَكَصْنَا إِلَىٰ الوَرَاءِ قُرُونًا عَدِيدَةً، وَقُضِيَ عَلَىٰ نَشَاطِنَا الفِكْرِيِّ قَضَاءً مُبْرَمًا؛ لِأَنَّ

الفِكْرَ إِذَا لَمْ تُسْعِفْهُ أَدَاةٌ مُوَاتِيَةٌ فِي التَّعْبِيرِ خَمَدَتْ جَذْوَتُهُ، وَضَعُفَ شَأْنُهُ، وَضَاقَ نِطَاقُهُ، وَاقْتَصَرَ نَشَاطُهُ عَلَىٰ تَوَافِهِ البُحُوثِ، وَسَفَاسِفِ التَّأَمُّلَاتِ.

فَاللُّغَةُ هِيَ القَالَبُ الَّذِي يُصَبُّ فِيهِ التَّفْكِيرُ؛ فَكُلَّمَا ضَاقَ هَذَا القَالَبُ، وَاضْطَرَبَتْ أَوْضَاعُهُ، ضَاقَ نِطَاقُ الفِكْرِ، وَاخْتَلَّ إِنْتَاجُهُ.

وَاصْطِنَاعُ العَامِّيَّةِ فِي الآدَابِ وَالعُلُومِ وَالكِتَابَةِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحُولَ -عَاجِلًا أَوْ آجِلًا- بَيْنَ الأَجْيَالِ القَادِمَةِ، وَالانْتِفَاعِ بِالتُّرَاثِ العَرَبِيِّ المُدَوَّنِ بِالعَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ، إِذْ تُصْبِحُ هَذِهِ اللُّغَةُ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ إِلَّا لِطَائِفَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ خَاصَّةِ النَّاسِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَتَوَفَّرُونَ عَلَىٰ دِرَاسَتِهَا، كَمَا يَتَوَفَّرُ بَعْضُ عُلَمَاءِ الفِرِنْجَةِ الآنَ عَلَىٰ دِرَاسَةِ اللَّاتِينِيَّةِ أَوِ اليُونَانِيَّةِ القَدِيمَةِ.

وَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ بَيَانِ الكَارِثَةِ الَّتِي تُصِيبُ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ، وَثَقَافَةَ المُسْلِمِينَ بِضَيَاعِ التُّرَاثِ، وَعَدَمِ الانْتِفَاعِ بِهِ لِمُعْظَمِ المُتَعَلِّمِينَ.

وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ مِنْ أَهَمِّ الدِّعَامَاتِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الآصِرَةُ الإِسْلَامِيَّةُ، وَالرَّابِطَةُ الدِّينِيَّةِ، وَفِي القَضَاءِ عَلَيْهَا قَضَاءٌ عَلَىٰ أَقْوَىٰ رَابِطَةٍ تَرْبِطُ شُعُوبَ أُمَّتِنَا بَعْضَهَا بِبَعْضٍ.

وَزِيَادَةً عَلَىٰ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنَّ اللُّغَةَ العَامِّيَّةَ فِي بَلَدٍ مَا غَيْرُ ثَابِتَةٍ عَلَىٰ حَالٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ هِيَ عُرْضَةٌ لِلتَّطَوُّرِ فِي أَصْوَاتِهَا، وَمُفْرَدَاتِهَا، وَدَلَالَاتِهَا، وَقَوَاعِدِهَا.

وَتَطَوُّرُ اللُّغَةِ العَامِّيَّةِ سَرِيعٌ جِدًّا، حَتَّىٰ إِنَّنَا لَنَجِدُ فِي العَصْرِ الوَاحِدِ فُرُوقًا غَيْرَ يَسِيرَةٍ بَيْنَ عَامِّيَّةِ الشُّبَّانِ وَعَامِّيَّةِ الشُّيُوخِ!

فَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّنَا اصْطَنَعْنَا فِي الكِتَابَةِ اللُّغَةَ العَامِّيَّةَ الَّتِي نَسْتَخْدِمُهَا فِي العَصْرِ الحَاضِرِ، فَإِنَّنَا لَا نَلْبَثُ بَعْدَ وَقْتٍ غَيْرِ طَوِيلٍ أَنْ نَرَىٰ أَنْفُسَنَا أَمَامَ المُشْكِلَةِ نَفْسِهَا الَّتِي الْتَجَأْنَا فِي حَلِّهَا إِلَىٰ هَذِهِ الوَسِيلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ لُغَةَ الحَدِيثِ سَوْفَ تَتَطَوَّرُ، وَسَوْفَ يَنَالُهَا كَثِيرٌ مِنَ التَّغَيُّرِ فِي أَصْوَاتِهَا وَدَلَالَاتِهَا وَقَوَاعِدِهَا وَأَسَالِيبِهَا.

وَلَنْ تَزَالَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ تَبْعُدَ بُعْدًا كَبِيرًا عَنْ لُغَةِ الكِتَابَةِ؛ فَنُصْبِحَ وَإِذَا بِنَا نَكْتُبُ بِلُغَةٍ، وَنَتَخَاطَبُ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ.

فَإِذَا صَبَرْنَا عَلَىٰ هَذَا الازْدِوَاجِ ذَهَبَ كُلُّ مَا عَمِلْنَاهُ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ.

وَإِذَا أَخَذْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا العَمَلَ عَلَىٰ القَضَاءِ عَلَيْهِ كُلَّمَا ظَهَرَ؛ بِاسْتِخْدَامِ الوَسِيلَةِ نَفْسِهَا الَّتِي اسْتَخْدَمْنَاهَا فِي المَرَّةِ الأُولَىٰ، كَانَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّنَا نُضْطَرُّ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ خَمْسِينَ سَنَةً، أَوْ كُلِّ قَرْنٍ عَلَىٰ أَكْثَرِ تَقْدِيرٍ إِلَىٰ تَغْيِيرِ لُغَةِ الكِتَابَةِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ.

وَهَذَا هُوَ أَقْصَىٰ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ الفَوْضَىٰ فِي شَعْبٍ إِنْسَانِيٍّ.

وَالعَامِّيَّةُ -بَعْدُ- تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الشُّعُوبِ العَرَبِيَّةِ، وَتَخْتَلِفُ فِي الشَّعْبِ الوَاحِدِ بِاخْتِلَافِ مَنَاطِقِهِ.

فَعَامِّيَّةُ العِرَاقِ لَا يَكَادُ يَفْهَمُهَا المِصْرِيُّونَ أَوِ المَغَارِبَةُ، وَعَامِّيَّةُ المِصْرِيِّينَ لَا يَكَادُ يَفْهَمُهَا العِرَاقِيُّونَ وَلَا المَغَارِبَةُ، وَعَامِّيَّةُ المَغَارِبَةِ لَا يَكَادُ يَفْهَمُهَا العِرَاقِيُّونَ وَلَا المِصْرِيُّونَ.

وَفِي البَلَدِ الوَاحِدِ تَخْتَلِفُ اللَّهْجَاتُ العَامِّيَّةُ بِاخْتِلَافِ طَوَائِفِ النَّاسِ، وَبِاخْتِلَافِ المَنَاطِقِ، فَعَامِّيَّةُ «المِنْيَا» غَيْرُ عَامِّيَّةِ «جِرْجَا»، بَلْ إِنَّ المُحَافَظَةَ الوَاحِدَةَ لَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ المَنَاطِقِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي تَخْتَلِفُ فِيمَا بَيْنَهَا اخْتِلَافًا غَيْرَ يَسِيرٍ.

فَالقَضَاءُ عَلَىٰ الازْدِوَاجِ لَا يَكُونُ -إِذَنْ- إِلَّا بِأَنْ تَصْطَنِعَ كُلُّ مِنْطَقَةٍ، بَلْ كُلُّ مَدِينَةٍ، بَلْ كُلُّ قَرْيَةٍ، لُغَةَ كِتَابَةٍ تَتَّفِقُ مَعَ لُغَةِ حَدِيثِهَا، وَبِذَلِكَ يُصْبِحُ فِي البِلَادِ العَرَبِيَّةِ آلَافٌ مِنْ لُغَاتِ الكِتَابَةِ بِمِقْدَارِ مَا فِيهَا مِنْ مَنَاطِقَ وَمُدُنٍ وَقُرًىٰ، وَلَا يُظَنُّ أَنَّ عَاقِلًا يَنْصَحُ بِمِثْلِ هَذِهِ الفَوْضَىٰ.

وَإِذَا لَجَأْنَا إِلَىٰ جَعْلِ لُغَةِ الكِتَابَةِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ كُلِّهِ مُمَاثِلَةً لِلَهْجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ اللَّهْجَاتِ العَامِّيَّةِ الحَاضِرَةِ، كَلَهْجَةِ القَاهِرَةِ مَثَلًا، فَإِنَّنَا بِذَلِكَ لَا نَكُونُ قَدْ قَضَيْنَا عَلَىٰ الازْدِوَاجِ إِلَّا فِي مِنْطَقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ المَنَاطِقِ، وَهِيَ الَّتِي جَعَلْنَا لُغَةَ الكِتَابَةِ مُتَّفِقَةً مَعَ حَدِيثِهَا.

أَمَّا مَا عَدَاهُ مِنَ المَنَاطِقِ فَسَتَظَلُّ مُشْكِلَةُ الازْدِوَاجِ قَائِمَةً فِيهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا سَتَكْتُبُ بِلُغَةٍ غَيْرِ اللُّغَةِ الَّتِي يَجْرِي بِهَا حَدِيثُ أَهْلِهَا[1].

وَادِّعَاءُ أَنَّ الاسْتِكْشَافَاتِ كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ فِي العَرَبِيَّةِ كَلِمَاتٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا، اعْتِرَاضٌ ضَخْمٌ فِي الظَّاهِرِ، فَارِغٌ فِي الحَقِيقَةِ، وَهَذَا الاعْتِرَاضُ يَصْدُقُ عَلَىٰ جَمِيعِ اللُّغَاتِ؛ لِأَنَّ اللُّغَاتِ مَا دَامَتْ مَوْضُوعَةً فَأَلْفَاظُهَا إِنَّمَا وُضِعَتْ طِبْقًا لِمَا

(١) انظر تفصيل ذلك في: «فقه اللغة» لعلي عبد الواحد وافي (ص١٥٦)، و«تاريخ الدعوة إلىٰ العامية» (ص١١١).

هُوَ مَعْلُومٌ، لَا لِمَا هُوَ مَكْنُونٌ فِي طَيِّ الخَفَاءِ وَالغَيْبِ.

فَكُلُّ مُسْتَكْشَفٍ كَانَ غَيْرَ مَعْلُومٍ، وَمُسْتَكْشِفُهُ يَصْطَلِحُ لَهُ عَلَىٰ لَفْظٍ يَتَّخِذُهُ اسْمًا لَهُ، وَبَابُ الاصْطِلَاحِ لَيْسَ مُغْلَقًا فِي العَرَبِيَّةِ مَفْتُوحًا فِي غَيْرِهَا.

وَلَوْ أَمْعَنَّا النَّظَرَ لَوَجَدْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأُمَّةٍ أَنْ تَدَّعِيَ أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي يُوضَعُ اصْطِلَاحًا لِمَعْنًىٰ جَدِيدٍ هُوَ مِنْ لُغَةِ تِلْكَ الأُمَّةِ دُونَ غَيْرِهَا، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فِي لُغَتِهَا.

وَهَلْ يَجُوزُ لِلْإِيطَالِيِّينَ -مَثَلًا- أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ لَفْظَ (بوجنفليا) إِيطَالِيٌّ، فِي حِينَ أَنَّ اللَّفْظَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ فِي الإِيطَالِيَّةِ؟

وَغَايَةُ الأَمْرِ أَنَّ النَّبَاتَ الَّذِي سُمِّيَ هَذَا الاسْمَ، اسْتَكْشَفَهُ شَخْصٌ اسْمُهُ (جنفل)، وَضَمَّ إِلَيْهِ كَلِمَةَ (بو)؛ أَيْ: جَمِيلٌ، وَجَعَلَهُ بِهَيْئَةِ الكَلِمَاتِ اللَّاتِينِيَّةِ وَكَانَ ذَلِكَ غَرِيبًا عَنْ جَمِيعِ اللُّغَاتِ.

وَيَجُوزُ لِأَيِّ أُمَّةٍ أَنْ تَصْطَلِحَ عَلَىٰ أَيِّ لَفْظٍ مِنْ لُغَاتِهَا لِذَلِكَ النَّبَاتِ، فَفِي مِصْرَ اسْتُعْمِلَ لَهُ لَفْظُ (جهنمية) مِنْ بَابِ الاصْطِلَاحِ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، وَمَا يُقَالُ فِي هَذِهِ الكَلِمَةِ الاصْطِلَاحِيَّةِ يُقَالُ فِي بَاقِي الاصْطِلَاحَاتِ.

فَادِّعَاءُ العُدُولِ عَنِ الفُصْحَىٰ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ لِمِثْلِ هَذِهِ الاصْطِلَاحَاتِ لَا مَحَلَّ لَهُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الاصْطِلَاحَاتِ الَّتِي كَانَتْ مَجْهُولَةً فِي الفُصْحَىٰ لَمْ تَكُنْ مَعْلُومَةً لِلْعَامَّةِ، وَمُسَمَّاةً فِي لُغَتِهِمْ، وَالمَعْقُولُ أَنَّ هَذِهِ الاصْطِلَاحَاتِ يَسْتَعْمِلُهَا العُلَمَاءُ أَوَّلًا، ثُمَّ تَصِلُ إِلَىٰ العَامَّةِ بِنَشْرِ العُلَمَاءِ لَهَا، وَبَثِّهَا بَيْنَ النَّاسِ.

وَادِّعَاءُ أَنَّ العَامِّيَّةَ يُمْكِنُ ضَبْطُهَا وَاسْتِخْدَامُهَا فِي الكِتَابَةِ ادِّعَاءٌ بَاطِلٌ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الكَلِمَاتِ المُسْتَحْدَثَةَ عَنِ الخَلْطِ فِي العَامِّيَّةِ قَلِيلَةٌ جِدًّا لَا تَتَأَلَّفُ مِنْهَا لُغَةٌ.

وَالكَلِمَاتُ وَالتَّرَاكِيبُ العَرَبِيَّةُ المُحَرَّفَةُ فِي العَامِّيَّةِ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّ هَذَا التَّحْرِيفَ وَعَدَمَ مُرَاعَاةِ القَوَاعِدِ لَيْسَ وَاحِدًا عِنْدَ النَّاسِ وَلَا مُتَّفَقًا عَلَيْهِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يَذْهَبُ فِيهِ مَا شَاءَ، فَهُوَ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ الأَفْوَاهِ مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ وَلَا رَابِطَةٍ، شَأْنَ كُلِّ تَغْيِيرٍ يَكُونُ حَصَلَ لَا عَنْ ضَرُورَةٍ إِلَيْهِ، بَلْ عَنِ الجَهْلِ، وَالجَهْلُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عَدَمِ التَّعَلُّمِ.

وَبِسَبَبِ حُصُولِ هَذِهِ التَّرَاكِيبِ عَلَىٰ غَيْرِ قَوَاعِدِ اللُّغَةِ نَرَىٰ المُتَكَلِّمَ مُضْطَرًّا دَائِمًا -حَسَبَ المَوْضُوعِ- إِلَىٰ الإِشَارَةِ بِاليَدِ وَالوَجْهِ وَإِجْهَادِ نَفْسِهِ لِبَيَانِ حَقِيقَةِ المَعْنَىٰ المَقْصُودِ، وَالكَاتِبُ يَسْتَعِيضُ عَنْ هَذِهِ الإِشَارَاتِ وَالحَرَكَاتِ، وَالإِجْهَادِ، بِتَخْرِيجِ عِبَارَتِهِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ القَوَاعِدِ، فَيَتَأَنَّقُ فِي إِحْكَامِ المَعْنَىٰ، وَتَجْوِيدِ الأُسْلُوبِ، وَذَلِكَ شَأْنُ الكُتَّابِ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ.

فَإِذَا كَتَبْنَا بِاللُّغَةِ المُحَرَّفَةِ غَيْرَ مُرَاعِينَ رَفْعَ الفَاعِلِ وَنَصْبَ المَفْعُولِ وَجَرَّ المُضَافِ إِلَيْهِ، وَبِغَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ مَا يُمَيِّزُ المُضَارِعَ مِنَ المَاضِي، كَانَتِ الكِتَابَةُ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ بِمَثَابَةِ العُدُولِ بِالعَرَبِيَّةِ عَنْ شَكْلِهَا الاشْتِقَاقِيِّ إِلَىٰ شَكْلٍ مُتَأَخِّرٍ.

وَعَلَىٰ فَرْضِ أَنَّنَا جَمَعْنَا تَحْرِيفَاتِ العَامَّةِ، وَأَحْصَيْنَاهَا، وَنَظَرْنَا فِي

تَشَابُهَاتِهَا، وَوَضَعْنَا لَهَا رَوَابِطَ وَقَوَاعِدَ، وَاتَّفَقْنَا عَلَىٰ اسْتِعْمَالِهَا، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَضْمَنُ لَنَا عَدَمَ خُرُوجِ العَامَّةِ عَنْهَا مَدْفُوعِينَ إِلَىٰ ذَلِكَ بِالأَسْبَابِ الَّتِي أَخْرَجَتْهُمْ عَنْ قَوَاعِدِ لُغَةِ القُرْآنِ؟!»[1].

وَقَدْ أَرْجَفَ دُعَاةُ العَامِّيَّةِ بِأَكَاذِيبِهِمْ، وَأَجْلَبَ أَعْدَاءُ الفُصْحَىٰ بِخَيْلِهِمْ وَرَجْلِهِمْ، فَاسْتَقَرَّ فِي أَذْهَانِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ اسْتِقْرَارَ العَقِيدَةِ فِي القُلُوبِ أَنَّ العَرَبِيَّةَ لُغَةٌ صَعْبَةٌ، تَنْدَقُّ دُونَ تَحْصِيلِهَا الأَعْنَاقُ، وَتَنْقَطِعُ دُونَ بُلُوغِ الغَايَةِ مِنْهَا المَطَايَا.

وَاعْتَقَدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَىٰ صَعْبَةُ المُرْتَقَىٰ، عَصِيَّةُ المَنَالِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ طَيِّعَةً كُلَّ الطَّوَاعِيَةِ، وَلَا مَرِنَةً كُلَّ المُرُونَةِ لِمُلَاءَمَةِ حَاجَاتِ الحَيَاةِ فِي تَطَوُّرِهَا الدَّءُوبِ.

وَمَنْزِلَةُ العَرَبِيَّةِ قَضَتْ أَنْ يُسَيَّجَ حَوْلَهَا بِسِيَاجٍ مِنَ الأَحْكَامِ وَالقَوَاعِدِ الشَّدِيدَةِ، وَشَأْنُ العَرَبِيَّةِ فِي هَذَا شَأْنُ كُلِّ لُغَةٍ أُخْرَىٰ، يَحْرِصُ أَهْلُوهَا عَلَىٰ حِفْظِهَا مِنَ التَّجَزُّؤِ وَالتَّفَكُّكِ، وَلَكِنَّ دُعَاةَ العَامِّيَّةِ جَأَرُوا بِالشَّكْوَىٰ مِنْ أَحْكَامِ اللُّغَةِ وَقَوَانِينِهَا!!

«لَقَدْ كَانَتِ الدَّعْوَاتُ الهَدَّامَةُ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ قَتْلَ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ مَحْصُورَةً فِي ثَلَاثِ شُعَبٍ: تَتَنَاوَلُ أُولَاهَا: اللُّغَةَ؛ فَيُطَالِبُ بَعْضُهَا بِإِصْلَاحِ

---

(١) انظر: الرد علىٰ (وليم ويلكوكس) في مجلة الأزهر، السنة السادسة (١٨٩٣) (ص٣٦-٤٦)، و«تاريخ الدعوة إلىٰ العامية» (ص١١٥).

قَوَاعِدِهَا، وَيُطَالِبُ بَعْضُهَا الآخَرُ بِالتَّحَوُّلِ عَنْهَا إِلَىٰ العَامِّيَّةِ.

وَتَتَنَاوَلُ ثَانِيَتُهَا: الكِتَابَةَ، فَيَدْعُو بَعْضُهَا إِلَىٰ إِصْلَاحِ قَوَاعِدِهَا، وَيَدْعُو بَعْضُهَا الآخَرُ لِلتَّحَوُّلِ عَنْهَا إِلَىٰ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ.

وَتَتَنَاوَلُ الشُّعْبَةُ الثَّالِثَةُ: الأَدَبَ، فَيَدْعُو بَعْضُهَا إِلَىٰ العِنَايَةِ بِالآدَابِ الحَدِيثَةِ، وَمَا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِالقَوْمِيَّةِ خَاصَّةً، وَيَدْعُو بَعْضُهَا الآخَرُ إِلَىٰ العِنَايَةِ بِمَا يُسَمُّونَهُ (الأَدَبَ الشَّعْبِيَّ).

وَيَقْصِدُونَ بِهِ كُلَّ مَا هُوَ مُتَدَاوَلٌ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ، مِمَّا يَخْتَلِفُ فِي البَلَدِ الوَاحِدِ بِاخْتِلَافِ القُرَىٰ، وَبِتَعَدُّدِ البِيئَاتِ.

أَمَّا مَا يَتَنَاوَلُ اللُّغَةَ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ، فَقَدْ أَثَارَهُ (المقتطف) أَوَّلًا سَنَةَ (١٨٨١)، ثُمَّ أَثَارَهُ القَاضِي الإِنْجِلِيزِيُّ (ولمور) سَنَةَ (١٩٠٢)، ثُمَّ أَثَارَهُ المُهَنْدِسُ الإِنْجِلِيزِيُّ (وُلكوكس) سَنَةَ (١٩٢٦)، وَأَثَارَهُ بَعْضُ الكُتَّابِ وَبَعْضُ الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ فِي خِلَالِ ذَلِكَ وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ.

وَلَا يَزَالُ يَثُورُ حَتَّىٰ الآنَ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ، فَيَهِيجُ بَعْدَ سُكُونٍ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَىٰ الكُمُونِ، كَمَا تَتَحَصَّنُ الجَرَاثِيمُ دَاخِلَ أَغْلِفَتِهَا وَأَكْيَاسِهَا الَّتِي تُحِيطُ نَفْسَهَا بِهَا، حِينَ تَأْنَسُ مِنْ قُوَىٰ الجِسْمِ الدِّفَاعِيَّةِ صَلَابَةً وَعِنَادًا، مُنْتَظِرَةً سُنُوحَ الفُرْصَةِ لِهُجُومٍ جَدِيدٍ فِي نَوْبَةِ تَعَبٍ أَوْ إِجْهَادٍ أَوِ اضْطِرَابٍ»[(١)].

(١) انظر: «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٦٨).

وَلَقَدْ كَانَتِ الشَّكْوَىٰ مِنَ النَّحْوِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ القُيُودِ النَّحْوِيَّةِ، وَتَنَوُّعِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ، وَكَثْرَةِ الاخْتِلَافَاتِ بَيْنَ القَبَائِلِ فِي الظَّاهِرَةِ الوَاحِدَةِ، مِمَّا أَوْجَدَ كَثِيرًا مِنَ الشَّوَاهِدِ المُخَالِفَةِ لِلْقَاعِدَةِ العَامَّةِ، بَلْ وَتَعَدُّدِ الرِّوَايَاتِ فِي الشَّاهِدِ الوَاحِدِ أَحْيَانًا، وَكَذَلِكَ اخْتِلَافُ النُّحَاةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الحَالَاتِ النَّحْوِيَّةِ، وَوُجُودُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالحَذْفِ وَالتَّقْدِيرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

لَقَدْ وَضَعَتْ تِلْكَ الدَّعْوَاتُ الهَدَّامَةُ وَلِيدَ سُوئِهَا، وَاسْتَقَرَّ فِي الأَذْهَانِ أَنَّ العَرَبِيَّةَ لُغَةٌ صَعْبَةٌ، وَعَلَىٰ وَجْهِ التَّحْدِيدِ نَحْوُهَا وَصَرْفُهَا.

وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ قَوَاعِدَ اللُّغَةِ قَدْ صِيغَتْ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهَا صِيَاغَةً عَسِيرَةً عَلَىٰ الفَهْمِ، وَلَكِنَّ الحَمْلَ عَلَىٰ الفُصْحَىٰ بِالصُّعُوبَةِ وَالشُّذُوذِ، دُونَ لُغَاتِ العَالَمِينَ، أَمْرٌ لَا يَخْفَىٰ مَا فِيهِ مِنَ الحَيْفِ وَالجَوْرِ، بَلْ غَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ أَعْرَقُ فِي الصُّعُوبَةِ مِنْهَا، وَأَمْعَنُ فِي العُسْرِ مِنْهَا.

ثُمَّ، إِذَا كَانَ هُنَاكَ عُسْرٌ فَلْنَدْعُ إِلَىٰ التَّيْسِيرِ، لا إِلَىٰ الهَجْرِ أَوِ التَّغْيِيرِ!

قَالَ الأُسْتَاذُ عَبْد السَّلَام هَارُون:

«لَيْسَ مَعْنَىٰ تَيْسِيرِ النَّحْوِ أَنْ نَقْضِيَ عَلَىٰ قَوَاعِدِهِ الأَسَاسِيَّةِ، وَعَلَىٰ اصْطِلَاحَاتِ جُمْهُورِ النُّحَاةِ، الَّتِي تَشَرَّبَتْهَا الأَجْيَالُ، وَسَرَتْ فِي العُرُوقِ وَالدِّمَاءِ، وَأَعْنِي: عُرُوقَ التُّرَاثِ الإِسْلَامِيِّ وَدِمَاءَ الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ، فَالتَّرَابُطُ وَثِيقٌ شَدِيدُ الصِّلَةِ بَيْنَ عِلْمِ النَّحْوِ، وَالبَلَاغَةِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالحَدِيثِ، وَالفِقْهِ الإِسْلَامِيِّ، وَنُصُوصِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ، جَاهِلِيَّةٍ وَإِسْلَامِيَّةٍ، وَبَيْنَ كَثِيرٍ غَيْرِهَا مِنْ فُرُوعِ الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ.

إِنَّنَا نُنَادِي بِتَيْسِيرِ النَّحْوِ، وَبِتَيْسِيرِ غَيْرِ النَّحْوِ، بَلْ بِتَيْسِيرِ كُلِّ صَعْبٍ فِي هَذَا الوُجُودِ، وَلَكِنَّا لَا نَغْفِرُ أَنْ تُمَسَّ أُصُولُ العَرَبِيَّةِ اسْتِنَادًا إِلَىٰ آرَاءِ بَعْضِ شُذَّاذِ النَّحْوِيِّينَ، وَارْتِكَانًا إِلَىٰ آرَاءٍ فَرْدِيَّةٍ لَا تَمُتُّ إِلَىٰ مَدَارِسَ ذَاتِ قَدْرٍ مَوْزُونٍ»[1].

وَقَوَاعِدُ النَّحْوِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا مُعَقَّدَةٌ، قَدِ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَعِيشَ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ، أَنْتَجَ النَّاسُ خِلَالَهَا فِي مُخْتَلَفِ الأَمْصَارِ العَرَبِيَّةِ وَغَيْرِ العَرَبِيَّةِ ثَرْوَةً مِنَ الكُتُبِ الصَّحِيحَةِ العَرَبِيَّةِ لَا تُحْصَىٰ.

وَهَذِهِ القُرُونُ العَشْرُ أَصْدَقُ شَهَادَةٍ لِصَلَاحِيَةِ النَّحْوِ مِنْ كُلِّ مَا يَزْعُمُونَ، وَيُؤَيِّدُ هَذِهِ الشَّهَادَةَ وَيُقَوِّيهَا: أَنَّ النَّاسَ كَانُوا مُنْذُ قَرْنٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ قَلِيلًا لَا يَكَادُونَ يُقِيمُونَ العَرَبِيَّةَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ كِتَابَةِ مَقَالٍ سَلِيمِ اللُّغَةِ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْهُمْ.

وَقَدِ اسْتَطَاعُوا رَغْمَ مَا لَقِيَتِ العَرَبِيَّةُ فِي أَوْطَانِهَا مِنْ حَرْبِ الاحْتِلَالِ الجَائِرِ، خِلَالَ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ أَنْ يُجِيدُوهَا؛ فَهْمًا وَكِتَابَةً، فِي هَذِهِ الفَتْرَةِ القَصِيرَةِ.

وَهُمْ لَمْ يُجِيدُوهَا بِتَبْسِيطِ النَّحْوِ، وَلَا بِتَبْسِيطِ قَوَاعِدِ الكِتَابَةِ، وَلَكِنَّهُمْ أَجَادُوهَا بِحِفْظِ النَّحْوِ وَبِحِفْظِ قَوَاعِدِ الكِتَابَةِ.

وَمِنَ المُحَقَّقِ أَنَّ الجِيلَ الَّذِي نَشَأَ عَلَىٰ تَوْقِيرِ قَوَاعِدِ النَّحْوِ وَإِتْقَانِهَا، خَيْرٌ مِنْ هَذَا الجِيلِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ مَشَارِيعَ وَتَجَارِيبَ لِلتَّبْسِيطِ وَالتَّيْسِيرِ،

---

(١) «قطوف أدبية» لعبد السلام هارون (ص١٤٩).

تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَلْفِ عَامٍ لِكَيْ تُثْبِتَ أَنَّهَا لَا تَقِلُّ عَنِ القَوَاعِدِ الَّتِي يُقْتَرَحُ الاسْتِغْنَاءُ عَنْهَا، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَفْضُلَهَا وَتَرْجُحَ عَلَيْهَا.

ثُمَّ إِنَّ مُزَاحَمَةَ العَامِّيَّةِ لِلْعَرَبِيَّةِ لَيْسَتْ شَيْئًا جَدِيدًا، فَقَدْ كَانَتِ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ دَائِمًا لُغَةً أَدَبِيَّةً، وَكَانَ العَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لَا يَتَحَدَّثُونَهَا فِي أَسْمَارِهِمْ، وَلَا فِي مُعَامَلَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ وَقْفًا عَلَىٰ الشِّعْرِ الرَّفِيعِ، الَّذِي يَفِدُ بِهِ أَصْحَابُهُ عَلَىٰ المُلُوكِ وَالأَشْرَافِ، أَوْ يَرحَلُونَ بِهِ إِلَىٰ المَوَاسِمِ وَالأَسْوَاقِ.

وَكَانَ لَهُمْ إِلَىٰ جَانِبِهِ، أَدَبٌ مَحَلِّيٌّ يَتَمَثَّلُ فِي أَرْجَازِهِمْ وَفِيمَا يُنْشِدُونَهُ فِي أَسْمَارِهِمْ، مِمَّا أَهْمَلَتْهُ كُتُبُ الأَدَبِ؛ لِتَفَاهَةِ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ المَعَانِي وَالأَغْرَاضِ، وَلِضِيقِ مَجَالِهِ، وَقِلَّةِ عَدَدِ المُتَذَوِّقِينَ لَهُ.

عَلَىٰ أَنَّهُ إِنْ أَعْوَزَتْنَا الأَدِلَّةُ القَاطِعَةُ عَلَىٰ وُجُودِ لَهْجَةٍ سُوقِيَّةٍ إِلَىٰ جَانِبِ اللُّغَةِ الفَصِيحَةِ الأَدَبِيَّةِ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَلَيْسَتْ تُعْوِزُنَا الأَدِلَّةُ عَلَىٰ امْتِيَازِ لُغَةِ الأَدَبِ مِنْ لَهَجَاتِ الأَمْصَارِ، الَّتِي كَانَ يَسْتَخْدِمُهَا النَّاسُ فِي حَاجَاتِهِمُ اليَوْمِيَّةِ مُنْذُ القَرْنِ الأَوَّلِ الهِجْرِيِّ.

وَهُنَا يُكَذِّبُ التَّارِيخُ مَزَاعِمَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنْ لَا حَيَاةَ لِلْعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ جَانِبِ اللَّهَجَاتِ السُّوقِيَّةِ؛ الَّتِي يُسَمُّونَهَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ بِالعَامِّيَّةِ[(١)].

وَلَيْسَتِ العَرَبِيَّةُ بِدْعًا فِي صُعُوبَةِ نَحْوِهَا وَصَرْفِهَا، بَلْ غَيْرُهَا أَصْعَبُ كَثِيرًا مِنْهَا، وَأَبْعَدُ مَنَالًا.

---

(١) راجع في ذلك: «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٧٥).

قَالَ الدُّكْتُور رَمَضَان عَبْد التَّوَّابِ:

«يَسُودُ بَيْنَ جَمْهَرَةِ المُثَقَّفِينَ العَرَبِ، شُعُورٌ مُدَمِّرٌ بِأَنَّ لُغَتَنَا الجَمِيلَةَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَىٰ، لُغَةٌ مُعَقَّدَةُ القَوَاعِدِ، صَعْبَةُ التَّعْلِيمِ، كَثِيرَةُ الشُّذُوذِ فِي مَسَائِلِهَا وَقَضَايَاهَا، بِحَيْثُ تَجْعَلُ مِنْ تَعَلُّمِهَا، أَوِ اسْتِخْدَامِهَا وَالتَّحَدُّثِ بِهَا، عِبْئًا ثَقِيلًا عَلَىٰ أَهْلِهَا.

وَلَقَدِ انْتَهَزَ المُغْرِضُونَ هَذِهِ الفُرْصَةَ، وَأَخَذُوا يَصِيدُونَ فِي المَاءِ العَكِرِ، وَيَدْعُونَ إِلَىٰ اسْتِخْدَامِ العَامِّيَّةِ، وَهَجْرِ الفُصْحَىٰ، أَوْ خَلْطِهَا بِالعَامِّيَّةِ، وَهِيَ دَعْوَةٌ حَمَلَ لِوَاءَهَا مُنْذُ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، المُعَادُونَ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ.

فَادَّعَوْا أَنَّ إِعْرَابَ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ، أَمْرٌ عَسِيرُ التَّعْلِيمِ، لِيَصْرِفُوا المُسْلِمِينَ عَنْ مَنْبَعِ دِينِهِمْ، وَعِمَادِ شَرِيعَتِهِمْ، وَدُسْتُورِ حَيَاتِهِمْ، وَهُوَ القُرْآنُ الكَرِيمُ، الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ ﷻ بِهَذِهِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ.

وَالحَقُّ أَنَّ هَذَا الإِعْرَابَ، الَّذِي يُوصَفُ بِأَنَّهُ مُعَقَّدٌ وَصَعْبٌ، لَا تَنْفَرِدُ بِهِ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَىٰ وَحْدَهَا، بَلْ إِنَّ هُنَاكَ لُغَاتٍ كَثِيرَةً، لَا تَزَالُ تَحْيَا بَيْنَنَا، وَفِيهَا مِنْ ظَوَاهِرِ الإِعْرَابِ المُعَقَّدِ، مَا يَفُوقُ إِعْرَابَ العَرَبِيَّةِ بِكَثِيرٍ.

فَهَذِهِ هِيَ اللُّغَةُ الأَلْمَانِيَّةُ -مَثَلًا- تُقَسِّمُ أَسْمَاءَهَا اعْتِبَاطًا إِلَىٰ مُذَكَّرٍ وَمُؤَنَّثٍ، وَجِنْسٍ ثَالِثٍ لَا تَعْرِفُهُ العَرَبِيَّةُ، وَهُوَ المُحَايِدُ، وَتَضَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الأَجْنَاسِ الثَّلَاثَةِ، أَرْبَعَ حَالَاتٍ إِعْرَابِيَّةٍ، هِيَ حَالَاتُ: الفَاعِلِيَّةِ، وَالمَفْعُولِيَّةِ، وَالإِضَافَةِ، وَالقَابِلِيَّةِ.

وَهَذِهِ الحَالَةُ الأَخِيرَةُ، لَا تَعْرِفُهَا العَرَبِيَّةُ، وَهِيَ إِعْرَابُ المَفْعُولِ الثَّانِي، فَهِيَ مِنْ حَالَاتِ المَفْعُولِيَّةِ فِي العَرَبِيَّةِ، وَلَيْسَتْ حَالَةً خَاصَّةً فِيهَا.

تِلْكَ هِيَ حَالَاتُ إِعْرَابِ الاسْمِ المُفْرَدِ المُعَرَّفِ فِي الأَلْمَانِيَّةِ.

وَالمُفْرَدُ المُنَكَّرُ لَهُ أَرْبَعُ حَالَاتٍ أُخْرَىٰ، وَكَذَلِكَ الجَمْعُ المُعَرَّفُ وَالجَمْعُ المُنَكَّرُ.

وَبِنَاءُ الجُمْلَةِ فِي اللُّغَةِ الأَلْمَانِيَّةِ لَهُ نِظَامٌ صَارِمٌ، فَالفِعْلُ يَحْتَلُّ فِيهَا المَرْتَبَةَ الثَّانِيَةَ دَائِمًا، إِلَّا فِي الجُمَلِ الفَرْعِيَّةِ، كَالجُمَلِ التَّعْلِيلِيَّةِ مَثَلًا، فَإِنَّ الفِعْلَ يُؤَخَّرُ فِيهَا إِلَىٰ نِهَايَةِ الجُمْلَةِ.

وَإِنَّ مَنْ يَشْكُو مِنْ كَثْرَةِ جُمُوعِ التَّكْسِيرِ فِي العَرَبِيَّةِ، وَغَلَبَةِ الشُّذُوذِ عَلَىٰ قَوَاعِدِ هَذَا الجَمْعِ فِيهَا، سَيَحْمَدُ لِلْعَرَبِيَّةِ الاطِّرَادَ النِّسْبِيَّ فِي هَذِهِ القَوَاعِدِ، إِذَا دَرَسَ اللُّغَةَ الأَلْمَانِيَّةَ، وَرَأَىٰ كَثْرَةَ صِيَغِ هَذِهِ الجُمُوعِ فِيهَا، وَفِقْدَانَ القَاعِدَةِ الَّتِي تَخْضَعُ لَهَا تَمَامًا، إِلَىٰ دَرَجَةِ أَنَّ كُلَّ كِتَابٍ فِي تَعلِيمِ قَوَاعِدِ الأَلْمَانِيَّةِ، تَبْدَأُ صَفْحَاتُهُ الأُولَىٰ بِهَذِهِ العِبَارَةِ: «احْفَظْ مَعَ كُلِّ اسْمٍ أَدَاةَ تَعْرِيفِهِ، وَصِيغَةَ جَمْعِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ هُنَاكَ قَاعِدَةٌ لِذَلِكَ».

فَلَيْسَتِ العَرَبِيَّةُ -إِذَنْ- بِدْعًا بَيْنَ اللُّغَاتِ، فِي صُعُوبَةِ القَوَاعِدِ، غَيْرَ أَنَّ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الصُّعُوبَةِ يَعُودُ بِالتَّأْكِيدِ إِلَىٰ طَرِيقَةِ عَرْضِ النَّحْوِيِّينَ لِقَوَاعِدِهَا، فَقَدْ خَلَطُوا فِي هَذِهِ القَوَاعِدِ بَيْنَ الوَاقِعِ اللُّغَوِيِّ، وَالمَنْطِقِ العَقْلِيِّ.

وَبَعُدُوا عَنْ وَصْفِ هَذَا الوَاقِعِ إِلَىٰ المُمَاحَكَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، وَامْتَلَأَتْ كُتُبُهُمْ بِالجَدَلِ وَالخِلَافَاتِ العَظِيمَةِ، فَضَلَّ المُتَعَلِّمُ وَسَطَ هَذَا الرُّكَامِ الهَائِلِ مِنَ الآرَاءِ المُتَنَاقِضَةِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ.

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ القَوَاعِدَ الأَسَاسِيَّةَ لِنَحْوِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَخْلَصَ فِي صَفْحَاتٍ قَلِيلَةٍ، مُصَفَّاةٍ مِنْ هَذَا الحَشْوِ، الَّذِي لَا طَائِلَ وَرَاءَهُ»[١].

وَلَا شَكَّ أَنَّ جَمْهَرَةَ المُعَلِّمِينَ وَطَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ، مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ نُفُورِ النَّاشِئَةِ مِنَ اللُّغَةِ وَعُزُوفِهِمْ عَنْهَا، فَيَجِبُ عَلَىٰ المُعَلِّمِينَ أَنْ يَصِلُوا فِكْرَ النَّاشِيءِ بِالفُصْحَىٰ فِي جَمِيعِ أَطْوَارِ عُمُرِهِ المَدْرَسِيِّ؛ فَيَسْمَعُ بِهَا دُرُوسَهُ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّمُ، وَيُؤَدِّي بِهَا أَفْكَارَهُ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُ.

أَمَّا تَعْلِيمُ الفُصْحَىٰ بِالعَامِّيَّةِ، وَتَحْفِيظُ القَوَاعِدِ لِيَقْرَأَ بِهَا الطَّالِبُ كِتَابَ المُطَالَعَةِ دُونَ أَيِّ كِتَابٍ، وَيَكْتُبَ بِهَا مَوْضُوعَ الإِنْشَاءِ دُونَ أَيِّ مَوْضُوعٍ، وَتَدْرِيسُ الأَدَبِ عَلَىٰ أَنَّهُ سِجِلُّ وِلَادَاتٍ وَوَفَيَاتٍ، وَدِيوَانُ حَوَادِثَ وَرِوَايَاتٍ، فَذَلِكَ هُوَ الَّذِي كَرَّهَ الدَّارِسِينَ فِي اللُّغَةِ، وَزَهَّدَ النَّاشِئِينَ فِي الأَدَبِ، وَصَرَفَ أُدَبَاءَ الشَّبَابِ إِلَىٰ الآدَابِ الأُورُبِّيَّةِ.

فَالمُتَفَرْنِسُونَ -مَثَلًا- يَحْفَظُونَ (هوجو) وَلَا يَحْفَظُونَ المُتَنَبِّي، وَيَدْرُسُونَ (فولتير) وَلَا يَدْرُسُونَ الجَاحِظَ، وَيَقْرَءُونَ (لامارتين) وَلَا يَقْرَءُونَ البَدِيعَ.

---

(١) «فصول في فقه العربية» لرمضان عبد التواب (ص٤١٥).

وَمِنْ هُنَا نَشَأَتْ هَذِهِ التَّبَعِيَّةُ المَعِيبَةُ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَىٰ أَدبِنَا لِآدَابِ الغَرْبِ، فَأَسَالِيبُ الكِتَابَةِ اليَوْمَ هِيَ أَسَالِيبُ الكِتَابَةِ فِي الغَرْبِ، وَمَذَاهِبُ الأَدَبِ عِنْدَنَا هِيَ مَذَاهِبُ الأَدَبِ فِي الغَرْبِ، مَعَ أَنَّ أَدَبَهُمْ فِي جُمْلَتِهِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الإِلْحَادِ، وَالوَثَنِيَّةِ الإِغْرِيقِيَّةِ.

وَأَدَبُنَا -فِي جُمْلَتِهِ- مَبْنِيٌّ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَالفَضِيلَةِ، وَالقُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ، فَأَنَّىٰ يَلْتَقِيَانِ؟!

إِنَّ الشَّرِيعَةَ السَّمْحَاءَ الَّتِي هَزَمَتِ الفَسَادَ، وَقَهَرَت الاسْتِبْدَادَ، وَحَرَّرَتِ الإِنْسَانَ، جَدِيرَةٌ بِأَنْ تَكْفُلَ الإِصْلَاحَ لِلتَّعْلِيمِ، وَالاسْتِقْلَالَ لِلأَدَبِ، وَالاسْتِقَامَةَ لِلْفِكْرِ، لِتَسِيرَ الأُمَّةُ صَحِيحَةَ الجَسَدِ وَالرُّوحِ، قَوِيَّةَ الذَّاتِ وَالمَعْنَىٰ، مُتَّحِدَةَ الرَّأْيِ وَالهَوَىٰ، إِلَىٰ مَا يُرْجَىٰ لَهَا مِنْ سُلْطَانٍ وَعُمْرَانٍ وَعِزَّةٍ.

وَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ تَيْسِيرِ النَّحْوِ، أَوَّلُ مَنْ نَادَىٰ بِهَا، ابْنُ مَضَاءٍ القُرْطُبِيُّ (ت٥٩٢هـ)، وَذَلِكَ عِنْدَمَا أَلَّفَ كِتَابَهُ المَشْهُورَ: «الرَّدُّ عَلَىٰ النُّحَاةِ».

وَخُلَاصَةُ كِتَابِ ابْنِ مَضاءٍ أَنَّهُ دَعَا إِلَىٰ إِلْغَاءِ بَعْضِ القَوَاعِدِ وَالقَضَايَا النَّحْوِيَّةِ، وَأَوْدَعَهُ جُمْلَةً مِنْ آرَائِهِ المُنَاهِضَةِ لِنُحَاةِ العَرَبِيَّةِ، وَبِخَاصَّةٍ نُحَاةُ البَصْرَةِ، مُحَاوِلًا أَنْ يَرُدَّ بَعْضَ أُصُولِ النَّحْوِ، وَأَنْ يُخَلِّصَهُ مِنَ العِلَلِ، وَكَثْرَةِ الفُرُوعِ وَالتَّأْوِيلِ، مُقْتَفِيًا أَثَرَ أَمِيرِ الظَّاهِرِيَّةِ يَعْقُوبَ بْنِ يُوسُفَ، فَأَخَذَ يُطَبِّقُ ظَاهِرِيَّتَهُ عَلَىٰ النَّحْوِ!!

وَمِنْ أَوَّلِ هَذِهِ القَضَايَا قَضِيَّةُ العَامِلِ[1]؛ أَي: العَامِلِ المَعْنَوِيِّ أَوِ اللَّفْظِيِّ، فَطَالَبَ ابْنُ مَضَاءٍ بِعَدَمِ الاهْتِمَامِ بِالعَامِلِ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ، وَطَالَبَ النُّحَاةَ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُ، وَيُلْغُوهُ، وَنَفَىٰ العِلَلَ وَالقِيَاسَ فِي النَّحْوِ، كَمَا رَفَضَهَا فِي الفِقْهِ!!

وَعَلَىٰ هَذَا فَابْنُ مَضَاءٍ القُرْطُبِيُّ أَوَّلُ مَنْ نَادَىٰ بِتَيْسِيرِ النَّحْوِ، وَلَكِنَّ مَقْصِدَهُ لَمْ يَكُنْ مَقْصِدَ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي اللُّغَةِ، وَيُرِيدُونَ إِقْصَاءَهَا.

وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ الأُسْتَاذُ عَبْد السَّلَام هَارُون:

«إِنَّ ابْنَ مَضَاءٍ الَّذِي اتُّخِذَ إِمَامًا فِي هَذَا التَّيْسِيرِ رَجُلٌ لَا يَكَادُ يَعِي مَا يَقُولُهُ فِي النَّحْوِ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ كَلَامَهُ حِينَ يَشُنُّ هُجُومًا عَنِيفًا عَلَىٰ نَظَرِيَّةِ العَامِلِ، وَيَتَخَيَّلُ أَمَامَهُ مَيْدَانَ حَرْبٍ يَصُولُ فِيهِ وَيَجُولُ، لِيَقْضِيَ عَلَىٰ كَلِمَةِ النَّحْوِيِّينَ:

---

(١) العاملُ: لفظٌ أو معنًىٰ، يؤثران في الكلمةِ تأثيرًا ينشأ عنه علامةٌ إعرابيةٌ، ترمز إلىٰ معنًىٰ خاصٍّ كالفاعلية أو المفعولية أو غيرهما.

والعاملُ نوعان:

لفظيٌّ: ظاهرٌ في النطقِ والكتابةِ، يتمثل بحروفٍ وأفعالٍ وأسماءٍ لها تأثيرٌ علىٰ غيرها من الكلمات: حروف المعاني، كحروف الجرِّ والنصب والجزم...، وجميع الأفعال، وبعض الأسماء كالمشتقاتِ وأسماء الشرط والظروف...

ومعنوي: يدرك بالعقل لا بالحسِّ، ويتمثل بمعنىٰ الابتداء، والتجرد من العوامل اللفظية.

وأثر العامل في معموله نوعان:

ظاهر: تكون علامات الإعراب واضحةً في آخره.

ومقدَّرٌ: تكون علاماتُ الإعرابِ غيرَ واضحةٍ في آخره، وإنما يقتضي تقديرها ضمنَ قواعد الثِّقلِ والتعذر واشتغال المحلِّ وغيرها.

إِنَّ العَامِلَ يَعْمَلُ فِي المَعْمُولِ، فَنَرَىٰ قَوْلًا مُتَهَالِكًا، فَأَيُّ فُكَاهَةٍ هَذِهِ الَّتِي نَسْتَخْرِجُهَا مِنْ هَذَا الهُجُومِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ: «وَأَمَّا القَوْلُ بِأَنَّ الأَلْفَاظَ يُحْدِثُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَبَاطِلٌ عَقْلًا وَشَرْعًا لَا يَقُولُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ العُقَلَاءِ، لِمَعَانٍ يَطُولُ ذِكْرُهَا فِيمَا المَقْصِدُ إِيجَازُهُ.

مِنْهَا: أَنَّ شَرْطَ الفَاعِلِ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا حِينَمَا يَفْعَلُ فِعْلَهُ، وَلَا يَحْدُثُ الإِعرَابُ فِيمَا يَحْدُثُ إِلَّا بَعْدَ عَدَمِ الفَاعِلِ، فَلَا يُنْصَبُ زَيْدٌ بَعْدَ إِنَّ فِي قَوْلِنَا: إِنَّ زَيْدًا، إِلَّا بَعْدَ عَدَمِ إِنَّ.

فَإِنْ قِيلَ: بِمَ يُرَدُّ عَلَىٰ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَانِي هَذِهِ الأَلْفَاظِ هِيَ العَامِلَةُ؟

قِيلَ: الفَاعِلُ عِنْدَ القَائِلِينَ بِهِ إِمَّا أَنْ يَعْمَلَ بِإِرَادَةٍ كَالحَيَوَانِ، وَإِمَّا أَنْ يَفْعَلَ بِالطَّبْعِ كَمَا تَحْرِقُ النَّارُ وَيُبَرِّدُ المَاءُ، وَلَا فَاعِلَ إِلَّا اللهُ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ، وَفِعْلُ الإِنْسَانِ وَسَائِرِ الحَيَوَانِ فِعْلُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَكَذَلِكَ المَاءُ وَالنَّارُ وَسَائِرُ مَا يَعْمَلُ.

وَقَدْ تَبَيَّنَ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ -يَعْنِي: كُتُبَ الكَلَامِ!- وَأَمَّا العَوَامِلُ النَّحْوِيَّةُ فَلَمْ يَقُلْ بِعَمَلِهَا عَاقِلٌ، لَا أَلْفَاظِهَا، وَلَا مَعَانِيهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَفْعَلُ بِإِرَادَةٍ وَلَا طَبْعٍ». اهـ

وَهَكَذَا نَمَطُ كَلَامِهِ فِي زَوَايَا كِتَابِهِ العَجِيبِ.

أَفَنَجْعَلُ مَنْ يُفَكِّرُ بِهَذِهِ العَقْلِيَّةِ المُنْحَرِفَةِ إِمَامًا لَنَا فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ مِنْ تَيْسِيرٍ؟!

إِنَّ مَذْهَبَ ابْنِ مَضَاءٍ الظَّاهِرِيِّ، وَعَقِيدَتَهُ الدِّينِيَّةَ الخَاصَّةَ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ

تَفْكِيرَهُ فِي تَعْبِيرٍ مَجَازِيٍّ اسْتَعْمَلَهُ النُّحَاةُ؛ لِيَدُلُّوا عَلَىٰ أَنَّ العَوَامِلَ دَلَائِلُ تُعِينُنَا عَلَىٰ ضَبْطِ مَا يَأْتِي بَعْدَهَا أَوْ قَبْلَهَا مِنْ مَعْمُولَاتٍ، لَكِنَّهُ خَلَّطَ وَأَخْرَجَ دِينَهُ وَعَقِيدَتَهُ الخَاصَّةَ لِيَسْتَخْدِمَهُمَا فِي مُهَاجَمَةِ النَّحْوِيِّينَ فِي أَقْوَىٰ مَعَاقِلِهِمْ، فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَىٰ قَرْنَهُ الوَعْلُ!

فِي اسْتِطَاعَةِ التَّيْسِيرِ الصَّالِحِ أَنْ يُقَدِّمَ هَذَا النَّحْوَ فِي ثَوْبٍ جَدِيدٍ مِنْ حُسْنِ الأَدَاءِ، أَوْ فِي تَرْتِيبٍ بَدِيعٍ مِنْ نِظَامِ العِلْمِ، وَأُسْلُوبٍ عَصْرِيٍّ مُلَائِمٍ، وَأَنْ يُجَارِيَ المَنْهَجِيَّةَ الحَدِيثَةَ التَّرْبَوِيَّةَ، وَيَسِيرَ مَعَهَا مُحْتَفِظًا بِأُصُولِهِ وَعَنَاصِرِهِ[1].

وَأَصْحَابُ النَّحْوِ الجَدِيدِ، أَوْ مَا يُسَمُّونَهُ «تَيسِيرَ النَّحْوِ»، شُعْبَةٌ مِنْ تِلْكَ الفِرْقَةِ المُوَكَّلَةِ بِهَدْمِ تُرَاثِنَا، وَقَطْعِ كُلِّ صِلَةٍ تَرْبطنَا بِهِ.

فَهُمْ لَا يَهْدِمُونَ لأَنَّ الهَدْمَ وَسِيلَتُهُم إِلَىٰ البِنَاءِ مِنْ جَدِيدٍ كَمَا يَزْعُمُونَ، وَلَكِنَّهُم يَهْدِمُونَ فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ لأَنَّ الهَدْمَ هَدَفُهُم وَغَايَتُهُم.

وَهُمْ بِهَذَا الهَدْمِ يُمَهِّدُون الأَرْضَ ويُسَوُّونَهَا لِبِنَاءٍ جَدِيدٍ، وَلَكنَّه لِلأَجنَبِيِّ لَا لَنَا، وَيَمْحُونَ كُلَّ مَا فِي صُحُفِنَا لتُصبِحَ صُحُفًا بَيضَاءَ يَسْطُرونَ فِيهَا، أَوْ يَسْطُرُ فِيهَا الَّذِينَ يُسَخِّرونَهُم لِمَا يَعْمَلُونَ مِنْ بُعدٍ كَمَا يَشَاءُونَ.

إِنَّ أَصْحَابَ القَوَاعِدِ الجَدِيدَةِ شُعْبَةٌ مِنْ فِرْقَةِ الهَدَّامِينَ، وَقَوَاعِدُهُمُ الجَدِيدَةُ لَيسَتْ إِلَّا أَسْلُوبًا فِي الهَدْمِ.

---

(١) «قطوف أدبية» لعبد السلام هارون (ص١٥٥).

وَمِمَّا شَغَبَ بِهِ الهَدَّامُونَ وَصَانِعُو الفِتَنِ مِنْ دُعَاةِ العَامِّيَّةِ: مَا يَتَعَلَّقُ بِالكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ، «وَقَالُوا: إِنَّ الكِتَابَةَ فِيهَا غَيْرُ مُيَسَّرَةٍ، مَعَ أَنَّ مُطَابَقَةَ الصَّوْتِ المَسْمُوعِ لِلصُّورَةِ المَقْرُوءَةِ هِيَ فِي العَرَبِيَّةِ أَوْضَحُ مِنْهَا فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ وَفِي الفَرَنْسِيَّةِ، اللَّتَيْنِ يُتْقِنُهُمَا مُعْظَمُ المُتَذَمِّرِينَ وَصَانِعِي الفِتَنِ مِنَ الهَدَّامِينَ.

فَالفَرَنْسِيُّ يُسْقِطُ مِنَ النُّطْقِ أَرْبَعَةَ حُرُوفٍ مِنْ أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ.

وَالإِنْجِلِيزِيُّ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي مِثْلِ حَرْفَي (H) وَ(O) فِي (HONOUR)، وَحَرْفَي (GH) فِي (RIGHT) وَفِي (THROUGH)، وَهُوَ بَعْدَ ذَلِكَ يَكْتُبُ الصَّوْتَ الوَاحِدَ فِي سِتِّ صُوَرٍ أَحْيَانًا، مِثْلَ اليَاءِ الَّتِي تُصَوِّرُ الكَسْرَةَ الطَّوِيلَةَ فِي مِثْلِ (كَبِيرٍ).

إِنَّ هَذَا الصَّوْتَ يُكْتَبُ فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ عَلَىٰ سِتِّ صُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لَا يُمَيِّزُ إِحْدَاهَا عَنِ الأُخْرَىٰ مَنْطِقٌ أَوْ قَوَاعِدُ، وَهِيَ (Y-E, E-E, IE, EI, EA, EE)، بَيْنَمَا هُوَ لَا يُكْتَبُ فِي العَرَبِيَّةِ إِلَّا يَاءً.

وَحَرْفُ (ك) لَا يُكْتَبُ فِي العَرَبِيَّةِ إِلَّا كَافًا، وَهُوَ يُكْتَبُ فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ عَلَىٰ صُوَرٍ عِدَّةٍ هِيَ (ch, q, ck, k, c).

وَحَرْفُ (ف) لَا يُكْتَبُ فِي العَرَبِيَّةِ إِلَّا فَاءً، وَهُوَ يُكْتَبُ فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ (ph, f, gh).

وَقِسْ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا لَا سَبِيلَ إِلَىٰ إِحْصَائِهِ مِنَ الأَمْثِلَةِ العَدِيدَةِ فِي مُخْتَلَفِ

الأَصْوَاتِ.

ثُمَّ إِنَّ لِكُلِّ صَوْتٍ فِي العَرَبِيَّةِ حَرْفًا وَاحِدًا يُصَوِّرُهُ، وَبَعْضُ الأَصْوَاتِ العَرَبِيَّةِ لَا يُصَوِّرُهَا إِلَّا حَرْفَانِ فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ، مِثْلَ حَرْفِ (ش) العَرَبِيِّ، الَّذِي يُقَابِلُهُ فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ (sh)، وَحَرْفِ (ذ) الَّذِي يُقَابِلُهُ حَرْفَا (th).

وَمِيزَةٌ ثَالِثَةٌ لِلْكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ، هِيَ أَنَّ الحَرْفَ لَا يُقْرَأُ إِلَّا عَلَىٰ صُورَةٍ صَوْتِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الحَرْفُ الإِنْجِلِيزِيُّ (c) يُنْطَقُ (س) حِينًا، وَيُنْطَقُ (ك) حِينًا آخَرَ، وَ(th) يُنْطَقُ (ذ) حِينًا، وَيُنْطَقُ (ث) حِينًا آخَرَ، وَ(g) يُنْطَقُ جِيمًا قَاهِرِيَّةً تَمِيلُ نَحْوَ الكَافِ، وَيُنْطَقُ جِيمًا مُعَطَّشَةً حِينًا آخَرَ.

أَيُقَالُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ: إِنَّ العَرَبِيَّةَ مُعَقَّدَةٌ نَحْوًا أَوْ كِتَابَةً، وَالَّذِينَ يَشْكُونَ مِنْ صُعُوبَتِهَا، أَوْ يَتَشَاكَوْنَ، يُتْقِنُونَ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهَا تَعْقِيدًا وَلَا يُخْطِئُونَ فِيهِ؟ بَلْ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُتْقِنُ لُغَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ لُغَاتٍ أَجْنَبِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، يُقِيمُونَهَا وَيَخْجَلُونَ أَنْ يُخْطِئُوا فِيهَا، حِينَ لَا يُقِيمُونَ لُغَتَهُمْ وَلَا يَخْجَلُونَ أَنْ يُخْطِئُوا فِيهَا، بَلْ رُبَّمَا فَاخَرُوا بِهِ، وَقَالُوا سَاخِرِينَ: نَحْنُ لَا نَتَكَلَّمُ لُغَةَ سِيبَوَيهِ!

وَلَعَلَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ سِيبَوَيهِ كَانَ فَارِسِيَّ الأَصْلِ»[1].

الشَّكْوَىٰ مِنَ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ تَرْجِعُ إِلَىٰ بَعْضِ الأَجَانِبِ، فِي المُحَاوَلَاتِ الَّتِي قَامُوا بِهَا لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ، وَلَمْ يَكْتَفِ هَؤُلَاءِ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ

(١) انظر: «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٦٦).

لِإِحْلَالِهَا مَحَلَّ العَرَبِيَّةِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا دَعَوْا أَيْضًا إِلَىٰ تَبْدِيلِ حُرُوفِهَا لِكَيْ يَطْمِسُوا مَعَالِمَهَا، وَيَقْضُوا بِذَلِكَ عَلَىٰ جَمِيعِ مُقَوِّمَاتِهَا.

أَمَّا عَيْبُ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي وَصَفُوهَا أَنَّهَا عَقِيمَةٌ مُعَقَّدَةٌ، فَهُوَ فِي نَظَرِهِمْ خُلُوُّهَا مِنْ حُرُوفِ الحَرَكَاتِ.

أَثَارَ هَذِهِ الشَّكْوَىٰ (ولهلم سبيتا) سَنَةَ١٨٨٠، فِي كِتَابِهِ «قَوَاعِد اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ العَامِّيَّةِ فِي مِصْرَ» وَاقْتَرَحَ لِحَلِّهَا اسْتِبْدَالَ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ، وَقَامَ فِعْلًا بِوَضْعِ طَرِيقَةِ الكِتَابَةِ بِالحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ، وَطَبَّقَهَا فِي النُّصُوصِ العَامِّيَّةِ الَّتِي مَثَّلَ بِهَا فِي كِتَابِهِ.

ثُمَّ رَدَّدَ الشَّكْوَىٰ وَنَادَىٰ بِالاقْتِرَاحِ نَفْسِهِ كَثِيرٌ مِنَ البَاحِثِينَ الأَجَانِبِ الَّذِي تَنَاوَلُوا دِرَاسَةَ العَامِّيَّةِ، فَكَانَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ أَنِ اشْتَغَلَ البَاحِثُونَ عِنْدَنَا مُنْذُ أَوَاخِرَ القَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ بِمَسْأَلَةِ تَيْسِيرِ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ، وَمَا زَالُوا يَشْتَغِلُونَ بِهَا إِلَىٰ الآنَ.

وَقَدِ اهْتَمَّ مَجْمَعُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِالقَاهِرَةِ بِهَذِهِ المَسْأَلَةِ، وَجَعَلَهَا مَدَارَ كَثِيرٍ مِنَ المُقْتَرَحَاتِ وَالمُنَاقَشَاتِ، وَأَسْهَمَ أَعْضَاؤُهُ بِدَوْرِهِمْ فِي إِيجَادِ حُلُولٍ لَهَا، كَمَا أَنَّهُ قَرَّرَ فِي إِحْدَىٰ جَلْسَاتِهِ (٢١ مِنْ نُوفَمْبر سَنَةَ ١٩٤٤) وَضْعَ جَائِزَةٍ قَدْرُهَا أَلْفُ جُنَيْهٍ لِأَحْسَنِ اقْتِرَاحٍ لِتَيْسِيرِ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ.

وَكَانَ عَبْدُ العَزِيزِ فَهْمِي اقْتَرَحَ اسْتِبْدَالَ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ، وَذَلِكَ فِي الجَلْسَةِ الَّتِي عَقَدَهَا مَجْمَعُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ (٣ مايو سنة ١٩٤٣)،

وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ العَزِيزِ فَهْمِي أَوَّلَ مَنْ فَكَّرَ فِي مَشْرُوعِ اسْتِبْدَالِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنِ اهْتَمَّ بِالفِكْرَةِ اهْتِمَامًا جِدِّيًّا فِي مِصْرَ، أَدْخَلَ عَلَيْهَا بَعْضَ التَّعْدِيلَاتِ، وَبَذَلَ جُهُودًا كَبِيرَةً لِتَدْعِيمِهَا لِكَيْ يُغْرِيَ النَّاسَ بِقَبُولِهَا.

اسْتَهَلَّ عَرْضَ فِكْرَتِهِ بِحَمْلَةٍ قَاسِيَةٍ عَلَىٰ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صُعُوبَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِنَحْوِ العَرَبِيَّةِ وَصَرْفِهَا، انْتَقَلَ إِلَىٰ التَّنْدِيدِ بِرَسْمِ كِتَابَتِهَا، وَفِي رَأْيِهِ أَنَّ هَذَا الرَّسْمَ هُوَ أَهَمُّ أَسْبَابِ مَرَضِ العَرَبِيَّةِ، وَأَنَّهُ الكَارِثَةُ الحَائِقَةُ بِنَا فِي لُغَتِنَا...

وَاخْتَتَمَ كَلَامَهُ عَنْ هَذِهِ الصُّعُوبَاتِ بِالنَّعْيِ عَلَىٰ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَأَهْلِهَا، فَقَالَ:

«وَهَذِهِ المَشَقَّةُ تَحمِلُنِي عَلَىٰ الاعْتِقَادِ بِأَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ مِنْ أَسْبَابِ تَأَخُّرِ الشَّرْقِيِّينَ، لِأَنَّ قَوَاعِدَهَا عَسِيرَةٌ، وَرَسْمَهَا مُضَلِّلٌ، فَمَنْ تَحَدَّثَ فِي نَفْسِهِ فِكْرَةً مُفِيدَةً لِلنَّاسِ، وَيُحِبُّ نَشْرَهَا فِيهِم بِالكِتَابَةِ أَوِ الخَطَابَةِ، يَأْخُذُهُ خَوْفُ انْتِقَادِ عِبَارَتِهِ، فَيَكْتُمُ فِكْرَتَهُ فِي نَفْسِهِ، وَيُمِيتُهَا، أَوْ هُوَ يَنْشُرُهَا بِلُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الشَّرْقِيِّينَ أَيْسَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ لُغَتِهِمُ العَرَبِيَّةِ».

وَانْتَهَىٰ إِلَىٰ القَوْلِ بِوُجُوبِ تَغْيِيرِ رَسْمِ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ.

أَمَّا الطَّرِيقَةُ الَّتِي اهْتَدَىٰ إِلَيْهَا بَعْدَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ -كَمَا يَقُولُ- لِإِحْدَاثِ هَذَا التَّغْيِيرِ، فَهِيَ اتِّخَاذُ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ حُرُوفِ الحَرَكَاتِ بَدَلَ حُرُوفِنَا العَرَبِيَّةِ، زَاعِمًا أَنَّ جَمِيعَ الأُمَمِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُ حُرُوفَ الحَرَكَةِ فِي

كِتَابَتِهَا هِيَ الأُمَمُ الرَّاقِيَةُ عِلْمِيًّا وَصِنَاعِيًّا، هُمْ أَهْلُ أُورُبَّا وَأَمرِيكَا إِطْلَاقًا، أَمَّا الأُمَمُ الَّتِي لَا حُرُوفَ حَرَكَاتٍ عِنْدَهَا؛ كَالصِّينِ وَإِيْرَانَ وَالتُّرْكِ (قَبْلَ الآنَ) وَالعَرَبِ، فَكُلُّهَا مِنَ الأُمَمِ المُتَأَخِّرَةِ عِلْمِيًّا وَصِنَاعِيًّا»[1].

وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ تَتَرَدَّدَ أَصْدَاءُ اسْتِبْدَالِ الحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ فِي المَجْمَعِ الَّذِي أُنْشِئَ لِحِمَايَةِ العَرَبِيَّةِ!!

وَقَدْ كَانَ أَحْمَد لُطْفِي السَّيِّد قَدْ تَقَدَّمَ بِاقْتِرَاحٍ لِإِصْلَاحِ الخَطِّ العَرَبِيِّ سَنَةَ (١٨٩٩)، بِالدَّلَالَةِ بِالحُرُوفِ عَلَىٰ الحَرَكَاتِ.

وَقَدْ كَتَبَ مَجْمَعِيٌّ آخَرُ وَهُوَ عِيسَىٰ إِسْكَنْدَر المَعْلُوفُ سِلْسِلَةً مِنَ المَقَالَاتِ عَنِ اللَّهْجَةِ العَرَبِيَّةِ العَامِّيَّةِ، وَالمَعْلُوفُ هَذَا وَأَبُوهُ -المَعْلُوفُ الكَبِيرُ- مِنْ أَصْحَابِ العَدَاءِ الصَّرِيحِ لِلْعَرَبِيَّةِ.

وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يَكُونَ المُسْتَشْرِقُ الإِيطَالِيُّ «نَلِّينو»، أَوْعَىٰ بِأَثَرِ اسْتِبْدَالِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ، فَقَدْ نَاهَضَ اقْتِرَاحَ الاسْتِبْدَالِ مُبَيِّنًا آثَارَهُ وَأَخْطَارَهُ.

كَتَبَ «نَلِّينو» عَنِ: الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ هَلْ تَصْلُحُ لِلْكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ؟

وَبَدَأَ حَدِيثَهُ بِالكَلَامِ عَنِ الانْقِلَابِ التُّرْكِيِّ فِي الحُكُومَةِ الكَمَالِيَّةِ، وَاسْتِبْدَالِهَا الحُرُوفَ اللَّاتِينِيَّةَ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ، وَبَيَّنَ أَنَّ سَبَبَ هَذَا التَّغَيُّرِ

(١) راجع: «تاريخ الدعوة إلىٰ العامية» (ص٢٠٨).

سِيَاسِيٌّ، وَهُوَ مُحَارَبَةُ العُنْصُرِ العَرَبِيِّ وَالدِّينِ الإِسْلَامِيِّ؛ فَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّ المَدَنِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ أَقْدَمُ المَدَنِيَّاتِ، فَهِيَ تَتَّصِلُ بِالمَدَنِيَّاتِ البَابِلِيَّةِ وَالآشُورِيَّةِ القَدِيمَةِ، وَلَا اتِّصَالَ لَهَا بِالتَّمَدُّنِ الإِسْلَامِيِّ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ جُمْلَةً قَوِيَّةً تَمَثَّلَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَظَاهِرِ؛ كَإِبْطَالِ الأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ، وَتَطْبِيقِ القَانُونِ المَدَنِيِّ السِّوِيسْرِيِّ، وَتَغْيِيرِ الزِّيِّ، وَمُحَاكَمَةِ مَنْ يَلْبَسُونَ الطَّرْبُوشَ، وَالْتِزَامِ مَوَاعِيدِ العَمَلِ فِي رَمَضَانَ كَالعَادَةِ، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ.

وَقَدْ عَارَضَ «نلّلينو» اقْتِرَاحَ كِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ بِالحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ، وَبَنَىٰ مُعَارَضَتَهُ عَلَىٰ أَسْبَابٍ مِنْهَا:

١- أَنَّ الخَطَّ العَرَبِيَّ مُوَافِقٌ لِطَبِيعَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَلَو أَرَدْنَا استِبْدَالَ الحُرُوفِ اللاتِينِيَّةِ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ؛ لَتَحَتَّمَ عَلَينَا إِيجَادُ حُرُوفٍ جَدِيدَةٍ نُضِيفُهَا إِلَىٰ الأبجَدِيَّةِ اللاتِينِيَّةِ الحَالِيَّةِ؛ لِكَي تُعَبِّرَ عَنِ الأَصْوَاتِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا حُرُوف: (ج، ح، خ، ش، ط، ظ، ص، ض، ع، غ)، وَلَاحْتَجْنَا كَذَلِكَ إِلَىٰ التَّمييزِ بَيْنَ الحُرُوفِ المُتَحَرِّكَةِ المَمدُودَةِ، وَالحُرُوفِ القَصِيرَةِ.

٢- وَمِنْهَا: أَنَّ الخَطَّ العَرَبِيَّ يَمْتَازُ بِمِيزَةٍ فَذَّةٍ، فَهُوَ قَرِيبٌ مِمَّا يُسَمَّىٰ بِالاخْتِزَالِ، وَالخَطُّ العَرَبِيُّ لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ اخْتِزَالٍ؛ لِأَنَّ طَبِيعَتَهُ تُغْنِيهِ عَنْ طُرُقِ الاخْتِزَالِ.

٣- وَمِنْهَا: أَنَّ اسْتِبْدَالَ الخَطِّ اللَّاتِينِيِّ بِالخَطِّ العَرَبِيِّ يَسْتَتْبِعُ نَتَائِجَ خَطِيرَةً، فَكَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُ الكُنُوزِ العَظِيمَةِ الَّتِي خَلَّفَتْهَا الآدَابُ الإِسْلَامِيَّةُ فِي

الدِّينِ وَالعُلُومِ وَالآدَابِ وَغَيْرِهَا، وَكُلُّهَا مُدَوَّنَةٌ بِالخَطِّ العَرَبِيِّ؟!

وَأَمْرٌ كَهَذَا فَوْقَ أَنَّهُ خَطِرٌ فَهُوَ مُتَعَذِّرٌ؛ لِأَنَّ الحَرَكَاتِ لَهَا شَأْنُهَا الكَبِيرُ فِي الخَطِّ العَرَبِيِّ، وَهِيَ غَيْرُ كَبِيرَةِ الأَهَمِّيَّةِ فِي اللَّاتِينِيِّ...»(١).

لَقَدْ رَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالأَدَبِ عَلَىٰ عَبْدِ العَزِيزِ فَهْمِي اقْتِرَاحَهُ بِاسْتِبْدَالِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ، وَمِمَّنْ رَدَّ الأُسْتَاذُ مَحْمُود شَاكِر، فَرَدَّ بِمَقَالٍ فِي «الرِّسَالَة» (أبريل سنة ١٩٤٤)، فَقَالَ:

«غَايَةُ المَشْرُوعِ الَّذِي انْتَحَلَهُ، أَنْ يُيَسِّرَ نُطْقَ الكَلِمَةِ المَكْتُوبَةِ فِي حَالِ إِفْرَادِهَا، غَيرَ نَاظِرٍ إِلَىٰ سُهُولَةِ الاهْتِدَاءِ إِلَىٰ الاشْتِقَاقِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ العَرَبِيَّةِ، وَأَرَادَ أَنْ يَأْمَنَ الخَطَأَ فِي الإِعْرَابِ، وَالتَّحْرِيفَ فِي ضَبْطِ الكَلِمَةِ، فَنَسِيَ كُلَّ شَيءٍ، وَلَمْ يَنْظُرْ مَاذَا يَجْلِبُ مَشْرُوعُهُ مِنَ التَّضْلِيلِ وَالتَّشْوِيهِ وَالتَّعْسِيرِ وَالاسْتِحَالَةِ، وَالغُمُوضِ الأَعْمَىٰ الَّذِي لَا يَهْدِي إِلَىٰ شَيءٍ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ! وَهَذَا وَحْدَهُ عَجَبٌ مِنَ العَجَبِ.

ثُمَّ زَعَمَ صَاحِبُ المَشْرُوعِ أَنَّ الحُرُوفَ العَرَبِيَّةَ تَعُوقُ القِرَاءَةَ، فَمَهْمَا تَعَلَّمَهَا الإِنْسَانُ فَلَابُدَّ أَنْ يُخْطِئَ! وَأَنَّ هَذَا المُشْكِلَ قَدْ عَالَجَهُ الأَقْدَمُونَ بِوَضْعِ الشَّكْلِ، وَلَكِنَّ هَذَا الشَّكْلَ قَدْ أَفْلَسَ، بَلْ كَانَ مَجْلَبَةً لِزِيَادَةِ التَّحْرِيفِ وَالتَّصْحِيفِ!

هُمَا عِلَّتَانِ، ثُمَّ عِلَّتَانِ مُلَفَّقَتَانِ قَدْ غَلْغَلَ فِيهِمَا البُطْلَانُ، وَنَخَرَتْهُمَا المُغَالَطَةُ

---

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٨١).

فِي الصَّمِيمِ وَفِي المَنْطِقِ، وَنَحْنُ لَنْ نُنَاقِشَ اليَوْمَ هَاتَيْنِ العِلَّتَيْنِ إِلَّا مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ يَظْهَرُ بِهِ فَسَادُهُمَا، فَالخَطَأُ عِنْدَنَا لَا يَعُودُ إِلَىٰ صُعُوبَةِ الحَرْفِ المَكْتُوبِ، وَإِنَّمَا يَعُودُ إِلَىٰ القَارِئِ المُخْطِئِ نَفْسِهِ، وَهَذَا هُوَ وَضْعُ القَضِيَّةِ عِنْدَنَا: إِذَا كَانَ المُتَكَلِّمُ حِينَ يَتَكَلَّمُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسُوقَ كَلَامَهُ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ الصَّحِيحَةِ غَيْرَ مُخْطِئٍ، فَمُحَالٌ أَنْ يُخْطِئَ فِيهَا عِنْدَ القِرَاءَةِ مَهْمَا اخْتَلَفَ الخَطُّ عَلَيْهِ سُهُولَةً وَصُعُوبَةً؛ لِأَنَّ النُّطْقَ سَابِقُ القِرَاءَةِ.

فَالَّذِي لَا يُخْطِئُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ، لَا يَتَأَتَّىٰ لَهُ أَنْ يُخْطِئَ وَهُوَ يَقْرَأُ حَرْفًا مَكْتُوبًا ظَاهِرًا مُمَيَّزًا بِبَعْضِ الدَّلَالَاتِ.

وَإِذَا عُولِجَ بَعْضُ العُسْرِ بِوَضْعِ الشَّكْلِ عَلَىٰ الحَرْفِ، فَالخَطَأُ عِنْدَئِذٍ أَشَدُّ اسْتِحَالَةً لِوُجُودِ دَلَالَاتٍ صَرِيحَةٍ لَا تَقِلُّ فِي إِفْصَاحِهَا وَبَيَانِهَا عَنْ حُرُوفِ الحَرَكَاتِ الَّتِي أَرَادَهَا صَاحِبُ هَذَا المَشْرُوعِ اللَّاتِينِيِّ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ لَيْسَتْ مَجْلَبَةً لِزِيَادَةِ التَّصْحِيفِ وَالتَّحْرِيفِ كَمَا زَعَمَ.

أَمَّا قَوْلُهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ: «إِنَّ الشَّكْلَ قَدْ أَفْلَسَ»؛ فَهَذَا حُكْمٌ بَاطِلٌ فِي قَضِيَّةٍ بَاطِلَةٍ بِطَبِيعَتِهَا، وَمَا دَامَتِ القَضِيَّةُ فِي أَصْلِهَا لَا تَصِحُّ عَلَىٰ الوَضْعِ الَّذِي لَفَّقَهُ، فَالحُكْمُ نَفْسُهُ لَمْ يَدْخُلْ إِلَّا زِيَادَةً فِي التَّلْفِيقِ.

لَقَدْ نَسِيَ صَاحِبُ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ أَنَّ الإِعْرَابَ فِي العَرَبِيَّةِ شَيْءٌ يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كَبِيرًا عَنْ سَائِرِ اللُّغَاتِ المَكْتُوبَةِ بِالحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ، وَأَنَّ الخَطَأَ فِيهِ لَنْ يَكُونَ مِنْ قِبَلِ الكِتَابَةِ سَهْلَةٍ أَوْ صَعْبَةٍ، بَلْ هُوَ رَاجِعٌ إِلَىٰ المُتَكَلِّمِ

أَوِ القَارِئِ مِنْ قِبَلِ الضَّعْفِ وَالقُوَّةِ، وَالعِلْمِ وَالجَهْلِ لَيْسَ غَيْر»[١].

وَرَدَّ الشَّيْخُ أَحْمَد شَاكِر رَدًّا مَتِينًا بَيَّنَ فِيهِ حَقِيقَةَ الدَّعْوَةِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا عَبْدُ العَزِيزِ فَهْمِي، وَبَعْضَ مَا دَارَ حَوْلَهَا مِنْ أَخْذٍ، وَرَدٍّ.

قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَد شَاكِر: «وَلَمْ يَكْتَفِ صَاحِبُ الاقْتِرَاحِ بِمَا اقْتَرَحَ، بَلْ رَاحَ يَرُدُّ عَلَىٰ مُعَارِضِيهِ فِي كِتَابٍ خَرَجَ فِي بَعْضِ مَسَائِلِهِ إِلَىٰ الإِزْرَاءِ بِالتَّشْرِيعِ الإِسْلَامِيِّ وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهُ، وَمِمَّنْ يَدْعُو إِلَىٰ العَمَلِ بِهِ فِي هَذِهِ العُصُورِ فِي بِلَادِ الإِسْلَامِ.

وَالتَّارِيخُ، مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَثلثِمِئَةِ سَنَةٍ، مُنْذُ أَنْ أَشْرَقَ نُورُ الإِسْلَامِ، يَرْبِطُ الإِسْلَامَ بِلُغَةِ العَرَبِ أَوْثَقَ رِبَاطٍ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَتَخَيَّلَ أُمَّةً مُسْلِمَةً غَيْرَ عَرَبِيَّةٍ، وَلَا أَنْ يَتَخَيَّلَ لُغَةَ العَرَبِ مُنْفَصِلَةً عَنِ الإِسْلَامِ، وَالقُرْآنُ أَوْثَقُ سَبَبٍ يَصِلُ الإِسْلَامَ بالعُرُوبَةِ، لَا تَنْفَصِمُ عُرَاهُ، فَلَا تَكُونُ أُمَّةٌ عَرَبِيَّةً، وَلَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةً إِلَّا بِهَذَا القُرْآنِ.

وَالمُثُلُ مُتَوَافِرَةٌ فِيمَنْ مَضَىٰ، وَفِيمَنْ بَقِيَ.

وَسَيَكُونُ مِنْ أَثَرِ اتِّحَادِ الأُمَمِ العَرَبِيَّةِ اتِّحَادُ الأُمَمِ الإِسْلَامِيَّةِ، حَتْمًا مَقْضِيًّا، وَإِنْ أَبَىٰ مَنْ أَبَىٰ، وَإِنْ كَرِهَ مَنْ كَرِهَ، فَذَلِكَ الَّذِي تَقْتَضِيهِ فِطْرَةُ الدِّينِ، وَفِطْرَةُ اللُّغَةِ، وَوَحْدَةُ الرُّوحِ، وَوَحْدَةُ التَّفْكِيرِ، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون:٥٢].

(١) «جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر» (١/ ٢٥٨).

وَأَرَدْتُ أَنْ أَكْشِفَ عَنْ مَقْصِدِهِ الحَقِيقِيِّ بِاقْتِرَاحِهِ، مِنْ كَلَامِهِ وَأَلْفَاظِهِ، وَأَنْ أَنْقُدَ بَعْضَ مَا عَرَضَ لَهُ مِنْ مَسَائِلَ فِي العِلْمِ ظَهَرَ أَنَّهُ لا يَعْرِفُ فِيهَا شَيْئًا، عَرَضَ لَهَا عَرْضًا عَجِيبًا، لَوْ تَرَكَهُ سَتَرَ نَفْسَهُ.

أَمَّا اقْتِرَاحُهُ المَيِّتُ السَّخِيفُ فَمَا أُبَالِي أَلَّا أَرُدَّ عَلَيْهِ، اكْتِفَاءً بِمَا قِيلَ مِنْ قَبْلُ، وَثِقَةً مِنِّي أَلَّا تَقُومَ لَهُ قَائِمَةٌ مِنْ بَعْدُ.

وَلَا أَظُنُّ عَاقِلًا يُخْدَعُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَيُصَدِّقَ البَاشَا فِي ادِّعَائِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ المُحَافَظَةَ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ، وَهُوَ يَسْخَطُ عَلَيْهَا كُلَّ هَذَا السَّخَطِ، وَيُنَدِّدُ بِهَا كُلَّ هَذَا التَّنْدِيدِ.

بَلْ يُنَدِّدُ بِالأُمَمِ المُنْفَصِلَةِ سِيَاسِيًّا أَنْ لَمْ يَدُرْ بِخَلَدِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا أَنْ يَجْعَلَ مِنْ لَهْجَتِهِ لُغَةً قَائِمَةً بِذَاتِهَا لَهَا نَحْوُهَا وَصَرْفُهَا!!

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ دَعْوَةً صَرِيحَةً إِلَىٰ تَمْزِيقِ العَرَبِيَّةِ إِلَىٰ لُغَاتٍ عِدَّةٍ -كَمَا فَعَلَ الفَرَنْسِيُّونَ وَالإِيطَالِيُّونَ وَالأَسْبَانُ- فَمَا نَدْرِي كَيْفَ تَكُونُ الدَّعْوَةُ، بَلْ لَا يَدْرِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ!...

إِذَنْ؛ فَالأَمْرُ وَاضِحٌ، لَيْسَ الأَمْرُ أَمْرَ تَيْسِيرِ الكِتَابَةِ العَرَبِيَّةِ حَتَّىٰ تُمَثِّلَ النُّطْقَ بِهَا تَمْثِيلًا صَحِيحًا، وَلَكِنَّ الأَمْرَ أَخْطَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَبْعَدُ أَثَرًا...

الأَمْرُ أَنَّ لِهَذِهِ اللُّغَةِ جَرْسًا وَلُوكَةً يَضْرِبَانِ صِمَاخَ أُذُنِ الطِّفْلِ، فَيَجِبُ أَنْ نُغَيِّرَ هَذَا، وَأَنْ نُمَهِّدَ لَهُ بِاصْطِنَاعِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ الَّتِي لَهَا جَرْسٌ يُخَالِفُ

جَرْسَ الحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ فِي المَخَارِجِ وَالحَرَكَاتِ وَتَوْقِيتِ الكَلِمَةِ فِي أَثْنَاءِ نُطْقِهَا، وَهُوَ شَيءٌ فِي صَمِيمِ اللُّغَةِ، كَالمَعْنَىٰ وَرَسْمِ الكَلِمَةِ عَلَىٰ السَّوَاءِ.

حَتَّىٰ إِذَا مَا تَبَلْبَلَتِ الأَلْسُنُ العَرَبِيَّةُ، وَمَرَنَتْ عَلَىٰ هَذِهِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ وَلَهْجَاتِهَا وَجَرْسِهَا، وَعَلَىٰ الحُرُوفِ المُسْتَحْدَثَةِ الَّتِي ابْتَكَرَهَا المَجْمَعُ اللُّغَوِيُّ فِي قَرَارِهِ العَجِيبِ بِشَأْنِ كِتَابَةِ الأَعْلَامِ الأَعْجَمِيَّةِ بِحُرُوفٍ عَرَبِيَّةٍ، أَمْكَنَ التَّدَرُّجُ فِي الانْتِقَالِ إِلَىٰ اصْطِنَاعِ لُغَةٍ أُخْرَىٰ أَعْجَمِيَّةٍ، أَوْ خَلْقِ لُغَةٍ بَيْنَ بَيْنَ، لَا هِيَ عَرَبِيَّةٌ وَلَا هِيَ أَعْجَمِيَّةٌ، وَتَفَرَّقَتِ الأُمَّةُ العَرَبِيَّةُ شَذَرَ مَذَرَ.

وَنَسُوا هَذَا القُرْآنَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَيُوَحِّدُ لِسَانَهُمْ؛ إِذْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا إِخْضَاعَهُ لِهَذِهِ اللُّكْنَةِ الأَعْجَمِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الحُرُوفُ اللَّاتِينِيَّةُ!!!

وَإِذَنْ؛ فَلَيْسَ الأَمْرُ أَمْرَ المُحَافَظَةِ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ كَمَا يَقُولُ دِفَاعًا عَنْ نَفْسِهِ...

أَيُّهَا الرَّجُلُ:

اقْرَأْ كِتَابَكَ، تَجِدْ أَنَّكَ رَضِيتَ عَنْ كُلِّ لُغَةٍ حَتَّىٰ العِبْرِيَّة، وَمَا اصْطَفَيْتَ لِسَخَطِكَ وَسُخْرِيَتِكَ إِلَّا العَرَبِيَّةَ»[1].

وَلَقَدْ حَاوَلَ الهَدَّامُونَ مِنْ دُعَاةِ العَامِّيَّةِ صَرْفَ أَبْنَاءِ الأُمَّةِ عَن الاهْتِمَامِ بِالأَدَبِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، فَدَعَوْا تَارَةً إِلَىٰ أَنْ تُخَصَّ الآدَابُ القَوْمِيَّةُ بِمَزِيدٍ مِنْ

(١) «الشرع واللغة» لأحمد محمد شاكر (ص٤٧).

عِنَايَةِ الدَّارِسِينَ، فَتُعْنَىٰ مِصْرُ بِالأَدَبِ المِصْرِيِّ، وَيُعْنَىٰ العِرَاقُ بِالأَدَبِ العِرَاقِيِّ، وَيُعْنَىٰ الشَّامُ بِالأَدَبِ الشَّامِيِّ.

وَدَعَوْا تَارَةً إِلَىٰ تَوْجِيهِ عِنَايَةٍ خَاصَّةٍ لِلآدَابِ الحَدِيثَةِ.

وَدَعَوْا تَارَةً أُخْرَىٰ إِلَىٰ العِنَايَةِ بِمَا يَحْلُو لِبَعْضِ النَّاسِ أَنْ يُسَمِّيَهُ «الأَدَبَ الشَّعْبِيَّ».

وَالهَدَفُ الأَوَّلُ وَالأَخِيرُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ المُحَاوَلَاتِ هُوَ صَرْفُ النَّاسِ عَنِ الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ القَدِيمَةِ، وَتَقْلِيلُ العِنَايَةِ بِالمَاضِي العَرَبِيِّ الإِسْلَامِيِّ، شِعْرِهِ وَنَثْرِهِ وَتَارِيخِهِ وَعُلُومِهِ، بِزَعْمِ أَنَّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ شَيْئًا قَدِيمًا لَا يُلَائِمُ حَيَاتَنَا وَلَا يَتَّصِلُ بِهَا.

وَالجَانِبُ الهَدَّامُ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ هُوَ أَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَىٰ تَفْرِيقِ المُجْتَمَعِ العَرَبِيِّ، بَلْ وَالإِسْلَامِيِّ الَّذِي يَلْتَقِي عِنْدَ الاشْتِرَاكِ فِي مَنَاهِجِ دِرَاسَةِ العَرَبِيَّةِ وَتَذَوُّقِ أَسَالِيبِهَا.

فَلَيْسَ فِي العَرَبِ كُلِّهِمْ وَاحِدٌ لَا يَعْرِفُ الأَعْلَامَ الشَّامِخَةَ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ.

وَلَيْسَ فِيهِمْ وَاحِدٌ لَا يَقَعُ هَؤُلَاءِ الأَعْلَامُ مِنْ نَفْسِهِ مَوْقِعَ الإِكْبَارِ وَالتَّقْدِيرِ.

وَكُلُّ العَرَبِ يُسَمُّونَ الفَاعِلَ فَاعِلًا، وَيُسَمُّونَ المَفْعُولَ بِهِ مَفْعُولًا، وَيُسَمُّونَ كُلَّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ النَّحْوِ بِاسْمٍ وَاحِدٍ، وَيُسَمُّونَ التَّشْبِيهَ تَشْبِيهًا، وَالاسْتِعَارَةَ اسْتِعَارَةً، وَيُسمُّونَ كُلَّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ البَلَاغَةِ بِاسْمِهِ.

فَإِذَا انْصَرَفَ النَّاسُ عَنْ دِرَاسَةِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، وَذَهَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَذْهَبَهُ فِي دِرَاسَةِ آدَابِ بَلَدِهِ، أَوْ فِي دِرَاسَةِ الآدَابِ الحَدِيثَةِ، أَوْ مَا يُسَمَّىٰ بِالآدَابِ الشَّعْبِيَّةِ، لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ ثَقَافَاتِ الجِيلِ القَادِمِ مِنَ العَرَبِ، بَلِ المُسْلِمِينَ.

وَهَذَا القَدْرُ المُشْتَرَكُ مِنَ الثَّقَافَةِ هُوَ الَّذِي يُكَوِّنُ القَدْرَ المُشْتَرَكَ مِنَ الذَّوْقِ وَمِنَ التَّفْكِيرِ، الَّذِي لَا تَفَاهُمَ وَلَا تَوَاصُلَ بِغَيْرِهِ.

وَإِذَا انْصَرَفَ النَّاسُ عَنْ دِرَاسَةِ عُلُومِ الآدَابِ العَرَبِيَّةِ القَدِيمَةِ؛ كَالنَّحْوِ وَالبَلَاغَةِ، وَجَرَوْا وَرَاءَ كُلِّ نَاعِقٍ بِزَعْمِ أَنَّ القَوَاعِدَ مُعَقَّدَةٌ، وَذَهَبَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَذْهَبَهُ فِي اسْتِنْبَاطِ قَوَاعِدَ جَدِيدَةٍ، وَتَسْمِيَةِ المُسَمَّيَاتِ بِأَسْمَاءٍ مُبْتَكَرَةٍ، لَمْ يَفْهَمْ أَحَدُهُمْ عَنِ الآخَرِ.

لَقَدْ كَانَتِ الدَّعْوَاتُ الهَدَّامَةُ كُلُّهَا تَسْتَهْدِفُ غَايَتَيْنِ:

١ - تَفْرِيقُ المُسْلِمِينَ عَامَّةً، وَالعَرَبِ خَاصَّةً، بِتَفْرِيقِهِمْ فِي الدِّينِ، وَتَفْرِيقِهِمْ فِي اللُّغَةِ، وَتَفْرِيقِهِمْ فِي الثَّقَافَةِ، وَقَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَىٰ تَوَسُّعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ المُحْتَمَلِ بَيْنَ مُسْلِمِي العَالَمِ، حَتَّىٰ لَا تَتِمَّ وَحْدَتُهُمُ الكَامِلَةُ.

وَالمُسْلِمُونَ لَا يَصِيرُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً حَتَّىٰ تَكُونَ لُغَتُهُمْ وَاحِدَةً، وَإِذَا كَانَ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ العَرَبِيَّةَ الآنَ يُنَادُونَ بِالتَّخَلِّي عَنْهَا، فَلِأَيِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّمُهَا الَّذِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَهَا، وَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا لِيَتَيَسَّرَ لَهُمُ التَّفَاهُمُ مَعَ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَهَا؟

وَالعَجَبُ أَنَّنَا نُطَالِبُ بِالاعْتِرَافِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي المَجَامِعِ الدَّوْلِيَّةِ، فَأَيُّ هَذِهِ اللَّهْجَاتِ فِي زَعْمِ دُعَاةِ السُّوقِيَّةِ، يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ هِيَ اللُّغَةَ المُعْتَرَفَ بِهَا؟!

٢- قَطْعُ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَدِيمِهِمْ، وَالحُكْمُ عَلَىٰ كِتَابِهِمْ -القُرْآنِ العَظِيمِ- وَكُلِّ تُرَاثِهِمْ بِالمَوْتِ؛ لِأَنَّ هَذَا القَدِيمَ المُشْتَرَكَ هُوَ الَّذِي يَرْبِطُهُمْ، وَيَضُمُّ بَعْضَهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ.

وَلَيْسَ الخَطَرُ الكَبِيرُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ، وَلَا هُوَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ؛ فَمِثْلُ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ ظَاهِرُ الخَطَرِ، وَأَصْحَابُهَا مِنْ مُغَفَّلِي الهَدَّامِينَ.

وَلَكِنَّ الخَطَرَ الحَقِيقِيَّ هُوَ مِنْ أَنْصَافِ الحُلُولِ.

الخَطَرُ الحَقِيقِيُّ: فِي الدَّعْوَاتِ الَّتِي يَتَوَلَّاهَا خُبَثَاءُ الهَدَّامِينَ، مِمَّنْ يُخْفُونَ أَغْرَاضَهُمُ الخَطِيرَةَ وَيَضَعُونَهَا فِي أَحَبِّ الصُّوَرِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَلَا يَطْمَعُونَ فِي كَسْبٍ عَاجِلٍ، وَلَا يَطْلُبُونَ انْقِلَابًا كَامِلًا سَرِيعًا، وَلَكِنَّهُمْ يَقْنَعُونَ بِالتَّحَوُّلِ الهَادِئِ الَّذِي لَا يَكَادُ يَسْتَرْعِي الانْتِبَاهَ.

الخَطِرُونَ مِنْ خُبَثَاءِ الهَدَّامِينَ هُمُ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُشْفِقُونَ عَلَىٰ العَرَبِيَّةِ، وَأَنَّهُمْ يَحْمُونَهَا مِنْ خَطَرِ الدَّاعِينَ إِلَىٰ العَامِّيَّةِ، وَإِلَىٰ كِتَابَتِهَا بِاللَّاتِينِيَّةِ.

وَلِذَلِكَ فَهُمْ لَا يُطَالِبُونَ إِلَّا بِتَطْعِيمِهَا بِالعَامِّيَّةِ، وَلَا يُطَالِبُونَ بِأَكْثَرَ مِنْ

تَعْدِيلِ بَعْضِ قَوَاعِدِهَا، وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَىٰ اسْتِبْدَالِ الحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ بِحُرُوفِهَا، وَلَكِنَّهُمْ يَقْتَرِحُونَ تَغْيِيرَ قَوَاعِدِ الإِمْلَاءِ.

هَؤُلَاءِ هُمْ أَصْحَابُ الحَلِّ الوَسَطِ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ فِي هَذِهِ المُؤَامَرَةِ عُضْوَ العِصَابَةِ الَّذِي تَنْحَصِرُ مُهِمَّتُهُ فِي التَّظَاهُرِ أَمَامَ الضَّحِيَّةِ بِالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ، وَالحِرْصِ عَلَىٰ مَصْلَحَتِهِ، لِتَسْكُنَ نَفْسُهُ إِلَيْهِ فِرَارًا مِنْ حَمَلَةِ السَّكَاكِينِ الَّذِينَ يَتَهَدَّدُونَهُ، وَالوَاقِعُ أَنَّهُمْ جَمِيعًا عَلَىٰ سَوَاءٍ.

وَالمَسْأَلَةُ لا تَحْتَمِلُ حَلًّا وَسَطًا، إِمَّا أَنْ نَتَمَسَّكَ بِدِينِنَا وَوَحْدَتِنَا، فَنَتَمَسَّكَ بِالعَرَبِيَّةِ؛ كِتَابَةً وَلُغَةً وَنَحوًا وَأَدَبًا وَثَقَافَةً، وَإِمَّا أَنْ نُسْقِطَ هَذِهِ الاعْتِبَارَاتِ مِنْ حِسَابِنَا، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْتَوِي أَنْ يَكُونَ الَّذِي نَعْدِلُ إِلَيْهِ هُوَ هَذَا أَوْ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَرِحُونَ.

يَقُولُونَ: إِنَّ اللُّغَاتِ الأُورُبِّيَّةَ قَدْ تَطَوَّرَتْ، فَيَجِبَ أَنْ تَتَطَوَّرَ لُغَتُنَا كَمَا تَطَوَّرَت لُغَاتُهُمْ.

وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ (التَّطَوُّرِ)، وَ(التَّطْوِيرِ).

تَتَطَوَّرُ اللُّغَةُ بِأَنْ تَفرِضَ عَلَيْهَا قَوَانِينُ قَاهِرَةٌ هَذَا التَّطَوُّرَ.

أَمَّا التَّطْوِيرُ فَهُوَ سَعْيٌ مُفْتَعَلٌ إِلَىٰ التَّطَوُّرِ، هُوَ إِرَادَةُ إِحْدَاثِ هَذَا التَّطَوُّرِ دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ مُبَرِّرَاتٌ تَسْتَدْعِيهِ.

وَالتَّطَوُّرُ لا يُسْعَىٰ إِلَيْهِ وَلَا يُصْطَنَعُ، وَلَكِنَّهُ يَفْرِضُ نَفْسَهُ، فَلَا نَجِدُ بُدًّا مِنَ

الخُضُوعِ لَهُ، وَأَيُّ نِعْمَةٍ وَأَيُّ مَزِيَّةٍ فِي تَطَوُّرِ اللُّغَاتِ الأُورُبِّيَّةِ حَتَّىٰ نَسْعَىٰ إِلَىٰ افْتِعَالِ نَظِيرِهِ فِي لُغَتِنَا؟!

إِنَّ هَذَا التَّطَوُّرَ كَانَ نَكْبَةً عَلَىٰ أَصْحَابِهِ، قَطَّعَهُمْ أُمَمًا بَعْدَ أَنْ كَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً، فَمَا زَالُوا فِي خِلَافٍ وَحُرُوبٍ مُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَحْكُمْ عَلَىٰ تُرَاثِهِمُ القَدِيمِ المُشْتَرَكِ وَحْدَهُ بِالمَوْتِ، بَلْ هُوَ لَا يَزَالُ يَقْضِي بَيْنَ الحِينِ وَالحِينِ عَلَىٰ التُّرَاثِ القَوْمِيِّ لِكُلِّ شَعْبٍ مِنْ هَذِهِ الشُّعُوبِ بِالمَوْتِ، حَتَّىٰ مَا يَسْتَطِيعُ الإِنْجِلِيزِيُّ اليَوْمَ مِنْ عَامَّةِ الشَّعْبِ أَنْ يَفْهَمَ لُغَةَ (شكسبير) الَّذِي مَاتَ فِي القَرْنِ السَّابِعَ عَشَرَ.

بَيْنَمَا لَا يَسْتَطِيعُ الإِنْجِلِيزِيُّ المُثَقَّفُ أَنْ يَقْرَأَ مَا قَبْلَ (شكسبير)، مِثْلَ (تشوسر)، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا قِلَّةٌ مِنَ المُتَخَصِّصِينَ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ الفَرَنْسِيَّةُ وَالإِيطَالِيَّةُ وَسَائِرُ اللُّغَاتِ الأُورُبِّيَّةِ الحَدِيثَةِ.

أَمَّا نَحْنُ العَرَبَ، عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَقْدَارِنَا مِنَ الثَّقَافَةِ، فَنَقْرَأُ القُرْآنَ، وَنَفْهَمُهُ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَرْجِعُ صُعُوبَتُهُ إِلَىٰ دِقَّةِ المَعَانِي فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ، وَنَقْرَأُ كَثِيرًا مِنْ تُرَاثِ المُتَقَدِّمِينَ، فَلَا نَكَادُ نُحِسُّ فَارِقًا بَيْنَ أُسْلُوبِهَا وَأُسْلُوبِ بَعْضِ المُجِيدِينَ مِنَ المُعَاصِرِينَ.

فَلِمَاذَا نَسْعَىٰ إِلَىٰ أَنْ نُفقِدَ أَنْفُسَنَا هَذِهِ المَزَايَا الَّتِي لَمْ تَفرِضْ عَلَيْنَا فَقْدَهَا ضَرُورَةٌ مِنَ الضَّرُورَاتِ؟

لِمَاذَا نَحْسُدُ أُورُبَّا -الَّتِي ابْتُلِيَتْ بِذَلِكَ- عَلَىٰ مُصَابِهَا، وَنَصْنَعُ صَنِيعَ اليَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ حِينَ مَرُّوا بِقَوْمٍ مِنَ الكُفَّارِ عَاكِفِينَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ يَعْبُدُونَهَا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨][1].

وَالخُلَاصَةُ: أَنَّ العَرَبِيَّةَ لُغَةٌ مُيَسَّرَةٌ، هِيَ لُغَةُ الذِّكْرِ الحَكِيمِ يَسَّرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ كَمَا يَسَّرَهُ، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

❀❀❀

(١) انظر: «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٦٧).

العَرَبِيَّةُ لُغَةُ الوُضُوحِ وَالبَيَانِ

نَفْهَمُ وُضُوحَ العَرَبِيَّةِ مِنَ اسْمِهَا؛ تَقُولُ: أَعْرَبَ عَنْ رَأْيِهِ؛ أَيْ: أَوْضَحَهُ وَبَيَّنَهُ، وَكُلُّ مَا عَدَاهَا مِنَ الأَلْسُنِ أَعْجَمِيٌّ: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وَدَلِيلُ وُضُوحِ العَرَبِيَّةِ: التَّفْصِيلُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

وَمَا عَدَا العَرَبِيَّةَ مِنَ اللُّغَاتِ يَخْلُو مِنْ هَذَا التَّفْصِيلِ وَذَلِكَ الوُضُوحِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت:٤٤].

وَالأَعْجَمِيَّةُ هُنَا لَا تَعْنِي لُغَةً بِعَيْنِهَا، بَلْ هِيَ كَلِمَةٌ تُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ لُغَةٍ غَيْرِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَىٰ.

وَكُلُّ لُغَاتِ البَشَرِ تُؤَدِّي وَظِيفَةَ التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ذِهْنِ المُتَكَلِّمِ مِنْ مَعَانٍ، وَاسْتِيعَابُ المُسْتَمِعِ لِمَعَانِي مَا يَتَلَقَّىٰ مِنْ كَلَامٍ يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ بِهَذَا الكَلَامِ.

وَقَد تَتَمَيَّزُ لُغَاتٌ كَثِيرَةٌ بِمِيزَاتٍ تَعْبِيرِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمُتَفَاوِتَةٍ فِيمَا بَيْنَهَا، وَيَتَحَمَّسُ أَهْلُ اللُّغَاتِ كُلٌّ لِلُغَتِهِ.

وَلَوْ سَأَلْتَ أَهْلَ اللُّغَاتِ وَأَصْحَابَ الدِّرَايَةِ بِهَا لِيُخْبِرُوكَ عَنْ أَحْسَنِهَا وَأَجْوَدِهَا، فَأَخْبَرُوكَ ، لَكَانَ حُكْمُ اللهِ تَعَالَىٰ هُو الحُكْم؛ أَصْدَقُ حَدِيثًا وَأَقْوَمُ قِيلًا.

وَقَدْ حَكَمَ سُبْحَانَهُ بِأَفْضَلِيَّةِ العَرَبِيَّةِ عَلَىٰ غَيْرِهَا، وَقَضَىٰ بِتَمَيُّزِهَا بِالخُصُوصِيَّةِ الَّتِي لَا تَكُونُ لِسِوَاهَا، فَهِيَ اللُّغَةُ المُبِينَةُ المُوَضِّحَةُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وَهِيَ اللُّغَةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي لَمْ تُشَوِّهْهَا اللَّهْجَاتُ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨].

وَهِيَ اللُّغَةُ الفَصِيحَةُ السَّلِيمَةُ، وَغَيْرُهَا يَنُوءُ بِالعُجْمَةِ: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت:٤٤].

وَالعُجْمَةُ فِي اللُّغَةِ: هِيَ الإِبْهَامُ وَعَدَمُ الإِفْصَاحِ فِي الكَلَامِ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ العَرَبِيَّةُ كَذَلِكَ وَهِيَ وَحْدَهَا المُنَاسِبَةُ لِقُرْآنٍ مُفَصَّلٍ؟! قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت:٤٤].

إِنَّ القُرْآنَ العَظِيمَ هُوَ المُعْجِزَةُ الخَالِدَةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لِتَكُونَ دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّتِهِ، وَثُبُوتِ رِسَالَتِهِ.

وَلَقَدْ كَانَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مَيْدَانَ الإِعْجَازِ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ

وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء:٨٨].

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ التَّحَدِّيَ قَائِمًا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣].

وَالعَرَبِيَّةُ تَتَمَيَّزُ بِبَيَانِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا:

فَأَمَّا البَيَانُ:

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وَإِذَا تَدَبَّرْنَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

وَجَدْنَا أَنَّ قَوَلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَرَبِيّٗا﴾ فِي الآيَتَيْنِ يَتَعَدَّىٰ كَوْنَهُ تَحْدِيدًا لِنَوْعِ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ القُرْآنُ المَجِيدُ بِهَا، فَهَذَا مُقَرَّرٌ مَعْلُومٌ، وَمِنَ المُسَلَّمِ أَنْ يَكُونَ عَرَبِيًّا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُمْ، وَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ مُرْسَلًا بِلِسَانِهِمْ، فَالوَصْفُ بِـ﴿عَرَبِيّٗا﴾ يَحْمِلُ مَعْنًىٰ زَائِدًا، يَدُلُّ عَلَىٰ الوُضُوحِ وَالبَيَانِ؛ فَلَا الْتِبَاسَ وَلَا غُمُوضَ.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ خَاصَّةٌ إِلَىٰ مَا فِي العَرَبِيَّةِ مِنْ بَيَانٍ وَوُضُوحٍ، يُمَكِّنَانِ قَارِئَ القُرْآنِ المُتَدَبِّرَ لِآيَاتِهِ مِنْ أَنْ يَعْقِلَ القُرْآنَ وَيَفْهَمَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

«وَلُغَةُ العَرَبِ أَفْضَلُ اللُّغَاتِ وَأَوْسَعُهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

فَوَصَفَهُ سُبْحَانَهُ بِأَبْلَغِ مَا يُوصَفُ بِهِ الكَلَامُ، وَهُوَ البَيَانُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤].

فَقَدَّمَ سُبْحَانَهُ ذِكْرَ البَيَانِ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا تَوَحَّدَ بِخَلْقِهِ، وَتَفَرَّدَ بِإِنْشَائِهِ، مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ، وَنَجْمٍ وَشَجَرٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الخَلَائِقِ المُحْكَمَةِ، وَالنَّشَايَا المُتْقَنَةِ.

فَلَمَّا خَصَّ سُبْحَانَهُ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ بِالبَيَانِ؛ عُلِمَ أَنَّ سَائِرَ اللُّغَاتِ قَاصِرَةٌ عَنْهُ، وَوَاقِعَةٌ دُونَهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَقَدْ يَقَعُ البَيَانُ بِغَيْرِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ أَفْهَمَ بِكَلَامِهِ عَلَىٰ شَرْطِ لُغَتِهِ فَقَدْ بَيَّنَ.

قِيلَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ تُرِيدَ أَنَّ المُتَكَلِّمَ بِغَيْرِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، قَدْ يُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهِ حَتَّىٰ يَفْهَمَ السَّامِعُ مُرَادَهُ، فَهَذَا أَخَسُّ مَرَاتِبِ البَيَانِ؛ لِأَنَّ الأَبْكَمَ قَدْ يَدُلُّ بِإِشَارَاتٍ وَحَرَكَاتٍ لَهُ عَلَىٰ أَكْثَرِ مُرَادِهِ ثُمَّ لا يُسَمَّىٰ مُتَكَلِّمًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُسَمَّىٰ بَيِّنًا أَوْ بَلِيغًا.

وَإِنْ أَرَدْتَ أَنَّ سَائِرَ اللُّغَاتِ تُبِينُ إِبَانَةَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فَهَذَا غَلَطٌ؛ لِأَنَّا

لَوِ احْتَجْنَا إِلَىٰ أَنْ نُعَبِّرَ عَنِ السَّيْفِ وَأَوْصَافِهِ بِاللُّغَةِ الفَارِسِيَّةِ، لَمَا أَمْكَنَنَا ذَلِكَ إِلَّا بِاسْمٍ وَاحِدٍ.

وَنَحْنُ نَذْكُرُ لِلسَّيْفِ صِفَاتٍ كَثِيرَةً، وَكَذَلِكَ الأَسَدُ وَالفَرَسُ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الأَشْيَاءِ المُسَمَّيَاتِ بِالأَسْمَاءِ المُتَرَادِفَةِ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ ذَاكَ؟! وَأَيْنَ لِسَائِرِ اللُّغَاتِ مِنَ السَّعَةِ مَا لِلُغَةِ العَرَبِ؟ هَذَا مَا لَا خَفَاءَ بِهِ عَلَىٰ ذِي نُهْيَةٍ»[1].

«وَاللِّسَانُ العَرَبِيُّ هُوَ المُنَزَّهُ مِنْ بَيْنِ الأَلْسِنَةِ مِنْ كُلِّ نَقِيصَةٍ، وَالمُعَلَّىٰ مِنْ كُلِّ خَسِيسَةٍ، وَالمُهَذَّبُ مِمَّا يُسْتَهْجَنُ أَوْ يُسْتَشْنَعُ؛ فَبَنَىٰ مَبَانِيَ بَايَنَ بِهَا جَمِيعَ اللُّغَاتِ مِنْ إِعْرَابٍ أَوْجَدَهُ اللهُ لَهُ، وَتَأْلِيفٍ بَيْنَ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ حَلَّاهُ بِهِ، فَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ سَاكِنَيْنِ أَوْ مُتَحَرِّكَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ، وَلَمْ يُلَاقِ بَيْنَ حَرْفَيْنِ لَا يَأْتَلِفَانِ وَلَا يَعْذُبُ النُّطْقُ بِهِمَا، أَوْ يَشْنُعُ ذَلِكَ مِنْهُمَا فِي جَرْسِ النَّغْمَةِ وَحِسِّ السَّمْعِ؛ كَالغَيْنِ مَعَ الحَاءِ، وَالقَافِ مَعَ الكَافِ، وَالحَرْفِ المُطْبَقِ مَعَ غَيْرِ المُطْبَقِ، مِثْلِ تَاءِ الافْتِعَالِ مَعَ الصَّادِ، وَالضَّادِ فِي أَخَوَاتٍ لَهُمَا، وَالوَاوِ السَّاكِنَةِ مَعَ الكَسْرَةِ قَبْلَهَا، وَاليَاءِ السَّاكِنَةِ مَعَ الضَّمَّةِ قَبْلَهَا فِي خِلَالٍ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ لَا تُحْصَىٰ»[2].

وَأَمَّا الاسْتِقَامَةُ:

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨].

وَمَا دَامَ القُرْآنُ المَجِيدُ كَمَا وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

---

(١) «الصاحبي» (ص١٦).

(٢) «المزهر» (١/ ٣٤٢).

وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢].

فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ، وَاعْوِجَاجُ اللِّسَانِ: انْحِرَافُهُ عَنِ اسْتِقَامَتِهِ وَمَسَارِهِ الصَّحِيحِ، ذَلِكَ المَسَارُ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِهِ البَيَانُ.

وَالعَرَبِيَّةُ كَانَتْ لُغَةَ القُرْآنِ المُبِينِ، عَلَىٰ نَهْجِ الاسْتِقَامَةِ مِنْ غَيْرِ عِوَجٍ، وَعَرَبِيَّتُهُ تَعْنِي: اسْتِقَامَتَهُ، كَمَا أَنَّ العُجْمَةَ تَعْنِي: نَقْصَ الوُضُوحِ وَقُصُورَ البَيَانِ.

لَقَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ بِالحَضَارَةِ التَّلِيدَةِ، وَالمَدَنِيَّةِ المَبْنِيَّةِ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ وَآدَابِ النُّبُوَّةِ، فَكَانَ التَّوْحِيدُ أَسَاسَهَا، وَالفَضَائِلُ أَرْكَانَهَا، وَالتَّشْرِيعُ الإِلَهِيُّ العَادِلُ سِيَاجَهَا، وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ النَّاصِعَةُ البَيَانِ، الوَاسِعَةُ الأُفُقِ: لِسَانَهَا.

وَقَامَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ بِبَيَانِهَا عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَكَانَتِ الأُمَّةُ المُدَّخَرَةُ لِتَشْيِيدِ هَذِهِ الحَضَارَةِ الَّتِي نُسَمِّيهَا بِحَقٍّ الحَضَارَةَ الإِسْلَامِيَّةَ هِيَ الأُمَّةَ العَرَبِيَّةَ.

وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مُنْذُ دَخَلَتْ فِي رِكَابِ الإِسْلَامِ عَلَىٰ الأُمَمِ الَّتِي أَظَلَّهَا ظِلُّهُ، كَانَتْ سَبَبًا فِي تَقَارُبِ تَفْكِيرِهِمْ، وَتَشَابُهِ عَقْلِيَّاتِهِمْ، وَتَمَازُجِ أَذْوَاقِهِمْ، وَتَوْحِيدِ مَشَارِبِهِمْ.

وَهَذَا هُوَ المَنْهَجُ السَّدِيدُ فِي تَوْحِيدِ الأُمَمِ المُخْتَلِفَةِ الأَجْنَاسِ، وَلَوْلَا العَرَبِيَّةُ لَاخْتَلَفَتِ الأُمَمُ الإِسْلَامِيَّةُ فِي فَهْمِ حَقَائِقِ الدِّينِ بِاخْتِلَافِ العَقْلِيَّاتِ تَؤُولُ إِلَىٰ جِنْسِيَّاتِهَا.

إِنَّ الأُمَمَ الَّتِي دَخَلَتْ فِي الإِسْلَامِ مُتَفَاوِتَةُ الدَّرَجَاتِ فِي الانْفِعَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَأَنْمَاطِ التَّفْكِيرِ، مُتَفَاوِتَةٌ فِي الإِدْرَاكِ وَالذَّكَاءِ، مُتَفَاوِتَةٌ فِي القَابِلِيَّةِ

وَالاسْتِعْدَادِ، مُتَفَاوِتَةٌ فِي التَّصْوِيرِ وَالتَّخَيُّلِ، وَلَكِنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ فَتَحَتْ عَلَيْهَا آفَاقًا جَدِيدَةً فِي كُلِّ ذَلِكَ مَا كَانَتْ تَعْرِفُهَا لَوْلَا العَرَبِيَّةُ، وَدَفَعَتْهَا بِمَا فِيهَا مِنْ قُوَّةٍ، وَبِمَا لَهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِلَىٰ التَّفْكِيرِ وَالتَّعَقُّلِ عَلَىٰ مَنْهَجٍ مُتَقَارِبٍ، وَحَفَّزَتِ الأَفْكَارَ الخَامِدَةَ إِلَىٰ التَّحَرُّكِ، وَزَادَتِ الأَفْكَارَ المُتَحَرِّكَةَ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّةٍ.

إِنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ هِيَ الَّتِي سَهَّلَتْ لِلأُمَمِ الإِسْلَامِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ أَسْبَابَ العِلْمِ وَالمَدَنِيَّةِ، وَمَهَّدَتْ لَهَا الطَّرَائِقَ المُؤَدِّيَةَ إِلَيْهِمَا، حَتَّىٰ أَخَذَتْ كُلُّ أُمَّةٍ حَظَّهَا مِنْهُمَا.

وَلَقَدْ نَاهَضَ العَرَبِيَّةَ؛ بَعْضُ شَيءٍ -قَدِيمًا- لَكِنَّهُ لَمْ يَتَعَدَّ مَوْضِعَهُ.

فَقَدْ عَقَدَ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ فِي «اقْتِضَاء العِلْمِ العَمَل» بَابًا فِي: مَنْ كَرِهَ تَعَلُّمَ النَّحْوِ لِمَا يُكْسِبُ مِنَ الخُيَلَاءِ وَالزَّهْوِ.

سَاقَ فِيهِ أَقْوَالًا فِي ذَمِّ تَعَلُّمِ النَّحْوِ، مَدَارُهَا عَلَىٰ الزُّهَّادِ وَالنُّسَّاكِ مِنْ أَمْثَالِ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، وَبِشْرِ بْنِ الحَارِثِ، وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ الخَطِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَلَيْسَ أَبْلَغُ فِي رَدِّ هَذِهِ الأَقْوَالِ مِنْ ذِكْرِ أَحَدِهَا، وَإِنْ كَانَ بِبَابِ النِّكَاتِ أَشْبَهَ مِنْهُ فِي بَابٍ فِي الدِّينِ وَالعِلْمِ وَاللُّغَةِ.

أَخْرَجَ الخَطِيبُ بِسَنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُثَنَّىٰ السِّمْسَارِ، قَالَ:

«كُنَّا عِنْدَ بِشْرِ بْنِ الحَارِثِ، وَعِنْدَهُ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ العَظِيمِ العَنْبَرِيُّ، وَكَانَ مِنْ سَادَاتِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا نَصْرٍ! أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ قَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَكَتَبْتَ

الْحَدِيثَ، فَلِمَ لَا تَتَعَلَّمُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ مَا تَعْرِفُ بِهِ اللَّحْنَ حَتَّىٰ لَا تَلْحَنَ؟

قَالَ: وَمَنْ يُعَلِّمُنِي يَا أَبَا الْفَضْلِ؟

قَالَ: أَنَا يَا أَبَا نَصْرٍ.

قَالَ: فَافْعَلْ.

قَالَ: قُلْ: ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ بِشْرٌ: يَا أَخِي وَلِمَ ضَرَبَهُ؟

قَالَ: يَا أَبَا نَصْرٍ مَا ضَرَبَهُ، وَإِنَّمَا هَذَا أَصْلٌ وُضِعَ.

فَقَالَ بِشْرٌ: هَذَا أَوَّلُهُ كَذِبٌ، لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ»[1].

وَمِثْلُ هَذَا التَّلبِيسِ يَدْفَعُهُ الخَطِيبُ نَفْسُهُ، فَقَدْ عَقَدَ فِي كِتَابِهِ «الجَامِعِ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ» بَابًا فِي: «التَّرْغِيبِ فِي تَعَلُّمِ النَّحْوِ وَالعَرَبِيَّةِ لِأَدَاءِ الحَدِيثِ بِالعِبَارَةِ السَّوِيَّةِ»، سَاقَ فِيهِ بِإِسْنَادٍ عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما كَانَ يَضْرِبُ وَلَدَهُ عَلَىٰ اللَّحْنِ، وَلَا يَضْرِبُهُم عَلَىٰ الخَطَأِ.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: النَّحْوُ فِي العِلْمِ كَالمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، لَا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ[2].

فَلَا تَهُولَنَّكَ أَمْثَالُ هَذِهِ المَقَالَاتِ، فَإِنَّ لَهَا وُجُوهًا تُحْمَلُ عَلَيْهَا مَعَ إِحْسَانِ الظَّنِّ بِقَائِلِيهَا، وَأَمَّا أَنْتَ فَاجْتَهِدْ فِي تَصْحِيحِ النِّيَّةِ للهِ تَعَالَىٰ فِي طَلَبِكَ

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص٩٤).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (٢/ ٢٤).

لِمَا تَفْهَمُ بِهِ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدٍ القَاسِمَ بْنَ سَلَّامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ فِي الشَّافِعِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «كَانَ الشَّافِعِيُّ: مِمَّنْ يُؤْخَذُ عَنْهُ اللُّغَةُ»[1].

فَتَدَبَّرْ أَحْوَالَ الأَئِمَّةِ تَعْلَمْ أَيْنَ الصَّوَابُ.

❀❀❀

(١) «آداب الشافعي» (ص١٣٦).



الخَاتِمَةُ

لَعَلَّ بَعْضَ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ فَهْمَ وَاضِحِ الكَلَامِ -لِعَجْزٍ فِي عُقُولِهِمْ أَوْ فَسَادٍ فِي نِيَّاتِهِمْ- يَظُنُّونَ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ إِتْقَانِ العَرَبِيَّةِ، وَالإِلْمَامِ بِاللُّغَةِ، تَعْنِي العُكُوفَ عَلَىٰ آثَارِ المُعَاصِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ القَصَصِ، أَوْ أَصْحَابِ القَصِيدِ -زَعَمُوا- وَتَرْكَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِحُجَّةِ الإِلْمَامِ بِالعَرَبِيَّةِ مِنْ أَجْلِ الدِّينِ، وَمَنْ ظَنَّ هَذَا فَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ لَهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِ بِمِثْلِ عَقْلِ الآدَمِيِّينَ، أَوْ أَنْ يُرِيحَ الأَرْضَ مِنْ فَسَادِهِ، وَشَرِّ قَلْبِهِ.

وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يُولِيَ المُسْلِمُ اللُّغَةَ بَعْضًا مِنَ اهْتِمَامِهِ، وَشَيْئًا مِنْ جُهْدِهِ، فَيَقْرَأَ فِي كُتُبِ السَّلَفِ، وَمَنْ سَارَ عَلَىٰ دَرْبِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الأَدَبِ الهَادِفِ، لَا مِنْ أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ، وَالمَذَاهِبِ المُحْدَثَةِ، بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعِينَ بِالأَدَبِ عَلَىٰ مَا فِي أَخْلَاقِ هَؤُلَاءِ مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ!

وَعَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ فَسَادَ حَيَاتِنَا الأَدَبِيَّةِ، بِالنَّظَرِ فِي «لَمْحَة مِنْ فَسَادِ حَيَاتِنَا الأَدَبِيَّةِ»، وَ«رِسَالَة فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ ثَقَافَتِنَا»، لِلْأُسْتَاذِ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

وَعَلَيكَ بِالنَّظَرِ فِي كِتَابِ «تَحْتَ رَايَةِ القُرْآنِ» لِلْأُسْتَاذِ مُصْطَفَىٰ صَادِق الرَّافِعِيِّ، ثُمَّ عَلَيْكَ بِتَصْحِيحِ النِّيَّةِ فِي الطَّلَبِ، وَبَذْلِ المَجْهُودِ، وَاجْعَلْ نُصْبَ

عَيْنَيْكَ قَوْلَ القَاضِي الجُرْجَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا مَطْمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا

وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِي جَانِبًا ... عَنِ الذُّلِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا

إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَىٰ ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا

أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ تَعَظَّمَا

وَاللهُ ﷻ يَتَوَلَّاكَ بِحِفْظِهِ وَتَسْدِيدِهِ، وَيَمُنُّ عَلَيْكَ بِعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَيَصِلُكَ بِعَطَاءٍ سَابغٍ مِنْ عِلْمٍ وَحِلْمٍ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ مِنْ طُغْيَانِ القَلَمِ، وَسُوءِ القَصْدِ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَفِتْنَةِ العُجْبِ وَالكِبْرِ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَأَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ العُلَا، أَنْ يُبَارِكَ فِي هَذِهِ السُّطُورِ أَبَدًا، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهَا كُلَّ مُسْلِمٍ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا لِي لَا عَلَيَّ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

وَقَدْ كَانَ الانْتِهَاءُ مِنْ تَحْرِيرِ هَذِهِ الطَّبْعَةِ فِي لَيْلَةِ الجُمُعَةِ الخَامِسِ مِنْ

شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ لِسَنَةِ إِحْدَىٰ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَبَوَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا-.

المُوَافِقِ -بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَىٰ- التَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ فِبْرَايِر لِسَنَةِ عَشْرٍ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ النَّصْرَانِيِّ.

وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

وَالحَمْدُ للهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَدَائِمًا وَسَرْمَدًا.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

وَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وكتب

أبو عبد الله

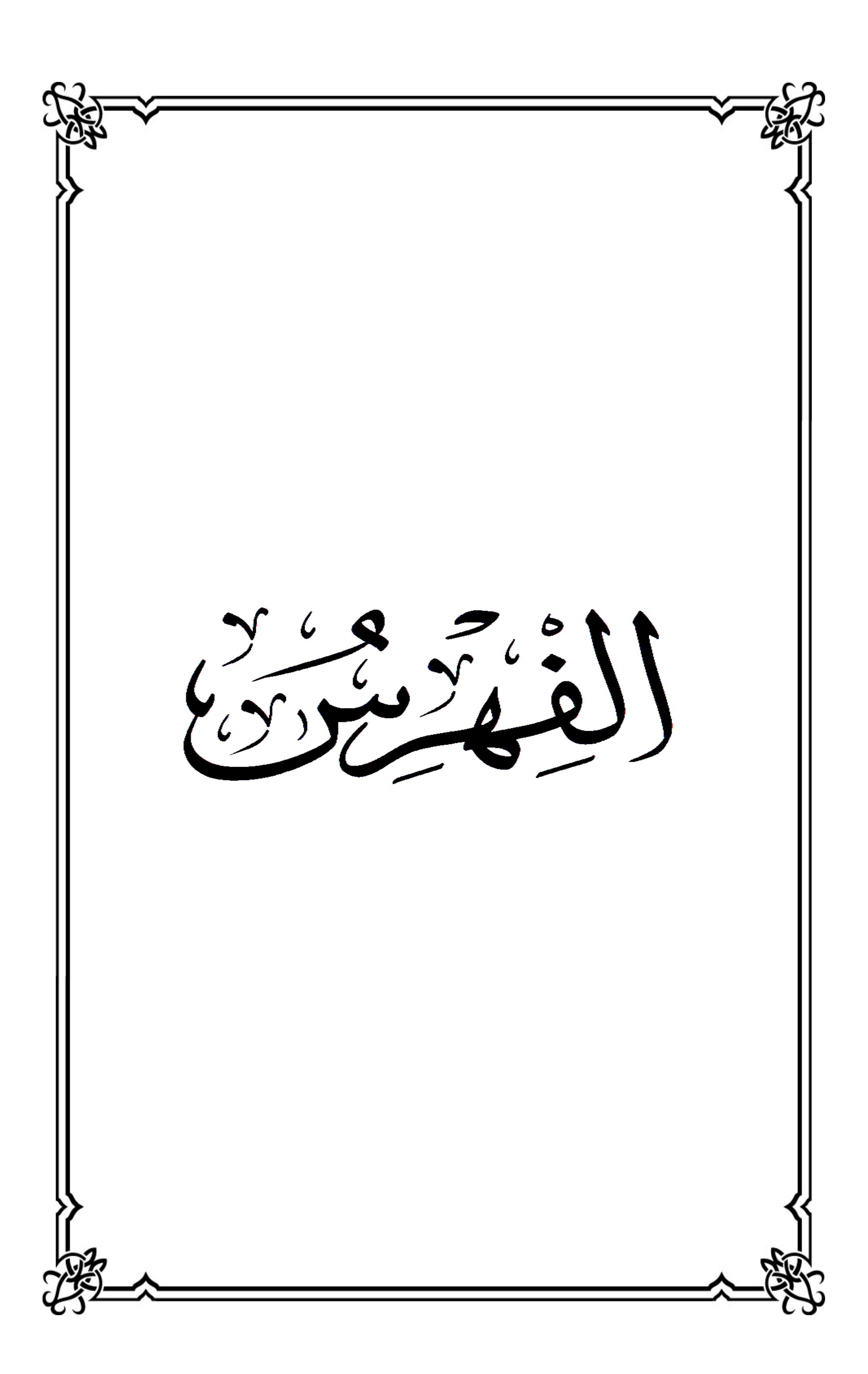
محمد بن سعيد بن رسلان

-عفا الله عنه وعن والديه-

سُبك الأحد

الجمعة: ٥/ ٣/ ١٤٣١

١٩/ ٢/ ٢٠١٠


الفهرس

فِهْرِسُ الموضُوعَاتِ

❀❀❀